

بقلم
موسى محمد على

دار الشعب
(٩٢) شارع قصر العينى بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادى الى صراطك المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب » .

بسم الله الرحمن الرحيم

((اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا))

صدق الله العظيم

تمهيد

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونعوذ بك من شرور انفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

ونشهد أن لا اله الا أنت ، رضيت الاسلام لنا دينا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، أهداه الله للناس رحمة ، واختاره للاسلام داعيا ، واصطفاه للبشرية قائدا ومربيا ومرشدا ومعلما ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وتركها على المحجة البيضاء التى لن يضل عنها الا هالك .

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

وبعد : فان الانسان أينما رمى ببصره فى جوانب تلك الحياة ، وجد شبح الحق واضحا أمامه ، يسترشد به فلا يزيغ ولا يطغى ، ويسير على سننه ومنواله فلا يضل ولا يغوى .

لهذا فان كل دين من الأديان السماوية يعتمد ـ أول ما يعتمد ـ على الوحى الالهى ، أو على الالهام الربانى ، فعنهما صدر ، وعلى تعاليمهما أرسيت قواعده ، وتأسست أركانه ، وشيد بناؤه .

ونبى الاسلام صلى الله عليه وسلم ، انسان من بنى البشر ، اختاره الله تعالى لوحيه ، واجتباه سبحانه لنبوته ، واصطفاه عز وجل لرسالته ، واختصه بخصوصية عموم التبليغ علوا لقدره ، وشرفا لأمته :

« فاستمسك بالذى أوحى اليك ، انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون » (١)

---

(١) الزخرف آية : ٤٣ ، ٤٤ .

هذا النبى العظيم : منحه الله سبحانه القـــدرة الكاملة على الاتصال به ، وأكمله العصمة الوافرة توفيقا للتعبير عن ارادته ، وجمله بالعناية الالهية ، تحقيقا لعظيم دعوته ، وانزل عليـــه الذكر تبيانا : هدى وموعظة للمؤمنين ، ودستورا لأمته .

هـــذا وبما لنبى الاســـلام من امتياز وسمو ، وبراءة نفس ، وطهـــارة قلب ، وبكل ما له من شرف النبـــوة ، كان صلوات الله وسلامه عليه ، لا يرى رؤيا الا وجاءت كفلق الصبح .

فلا يرى صلى الله عليه وسلم ، الا بأمر ، ولا ينطق الا عن أمر ، ولا يتحـــرك الا بأمر ... بل انه لا يرى خبرا الا وكان تنزيلا من حكيم حميد .

انه لا ينطق عن هوى ، ولا يتحدث عن رغبة حاكت فى صدره ، ولا عن خاطر همت له نفسه ، ولا عن غرض وقر فى قلبه ، يتفق وما عليه البشر من حب اللذة ، وجشع الهوى ، وايثار الشهوة .

انه المعصوم ولا شك : ومن حق عصمته ، أن كان صلوات الله وسلامه عليه ، عازفا عن الدنيا وما فيها من لذة ومتعة ، وبهجة وشهرة ، بل انه عزف عن كل ما يؤدى الى نقص فى مرتبة الرسالة والنبوة .

انه المعصـــــوم الذى لا يغوى ، بل انه الصـــادق الأمين الذى لا يبتدع من اجل رسالته ولا يطغى :

« ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى » (١) .

انه المعصوم الذى برأه الله تعالى ، بكل ما تحمل هـــذه الآيات الكريمة ، بين طياتها من سمو التقدير ، وعظيم الاجلال . بل انه المعصوم الذى براه الله سبحانه حتى لم يكن لنفسه ولا لهواه عليه من سبيل .

لقد براه الله بالأمانة فى المجتمعات والاسر ، وبالصـــدق فى القول

---

(١) النجم : ٢ ـ ٥ .

والعمل ، وبالاخلاص فى السر والعلن ، وبالعدل فى الرضا والغضب ، وبالقصد فى الفقر والغنى .

بل انه براه فى صمته فكان صمته فكرا ، وبراه فى نطقه فكان نطقه ذكرا ، وبراه فى نظره فكان نظره عبرا .

انه براه فى كل شيء حتى كان صلوات الله وسلامه عليه ، بكمال الكمال موصوفا ، وعن قليل القليل من النقص معصوما .

انه بحق معصوم : وحظه الوافر من العصمة ، أنه لا يقضى بقضاء الا وكان فيه ارادة الله سبحانه :

« قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، ان اتبع الا ما يوحى الى ، وما أنا الا نذير مبين » (١)

ويتحدث الامام على كرم الله وجهه عن براءته صلوات الله وسلامه عليه وعراقة مجده فيقول :

« مستقره خير مستقر ، ومنبته أشرف منبت ، فى معادن الكرامة ، ومماهد السلامة .

قد صرفت نحوه أفئدة الأبرار ، وثنيت اليه أزمة الأبصار .

دفن الله به الضغائن ، وأطفأ به النوائر .

الف به اخوانا ، وفرق به أقرانا .

أعز به الذلة ، وأذل به العزة .

كلامه بيان ، وصمته لسان » ا هـ

بهذا الطابع النبوى المبرأ ، طابع الصفاء والطهر والنقاء ، طابع رسول الاسلام ، نتبين أن الاسلام كذلك : دين البراءة والعصمة ، دين الطهر والصفاء ، دين السعادة الدنيوية والأبدية : ذلك لاشتماله وعمومه لكل ما جاءت به الأديان السابقة ، وما تميز به من كرم فياض ، ومروءة ومودة ، وما ملىء به من حب وايثار ، وعطف واحسان .

---

(١) الاحقاف : ٩ .

انه دين العموم والشمول الذى ارتضاه الله لخلقه ، واختاره شريعة ميسرة لعباده ، وافتراضه سبحانه عقيدة ثابتة بقضائه وعدله ؛

انه دين أتى به سبحانه لا غبن فيه ولا اجحاف ، ولا نقص به ولا اسراف ، فكان بذلك التمام : شريعة موفقة ، على وجه يتناسب مع فطرة الله التى فطر الناس عليها دون تبديل أو انحراف .

لقد أتى الله سبحانه بهذا الدين الاسلامى عقيدة تامة ، لا يحيد عنها من طلب الهداية ، ولا ينتهك حرمتها من اتقى الله سبحانه ، ولا يضل عن صراطها المستقيم ذو بصيرة وثابة تدعو للخير ، وتؤمن بالله ، ولا يرغب عنها من ابتغى الاسلام دينا ، وخضع لله سجودا ، واستجاب لله مسلما تسليما ، أنه بعث سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق بشيرا ونذيرا :

والاسلام بكل ما جاء به من معان كريمة وبكل ما اتسم به رسوله الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وما اتسمت به كذلك رسالته من معان انسانية سامية ، كان من البدهى ــ وهو يقرر توحيد الله سبحانه ــ أن يكون هو دين الانسانية الفاضلة ، والسعادة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة .

لا سيما وأنه يستمد قوته من السماء ، وينير الكون نبراسه الوضاء ، ويغمر فيض كرمه أهل الأرض والسماء ؛ الا من سبق عليه القول فكان ــ بفسقه أو كفره ــ من الأشقياء .

هذا وكما أن الاسلام أصدر التشريع ، وقنن القوانين ، وأوضح الأحكام ، واثبت قواعد الخير الذى صلح به حال البلاد والعباد ، وأخذ بيد الانسانية الى السعادة المثلى ، فانه كذلك أظهر الحلال والحرام ، وأرشد ــ محذرا ــ الى ما بينهما من أمور متشابهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، وحذر من هذه المتشابهات ، ليستبرىء الانسان لعرضه ودينه ، والا : وقع فى محارم الله سبحانه .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ان الحلال بين وان الحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن

كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله هي محارمه ، الا وان في الجسد مضغة ، اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » (١) ا هـ

وعن عطية بن عروة السعدي الصحابي ، رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع مالا بأس به ، حذرا مما به بأس » (٢)

بهذا رسم الاسلام ـ في بساطة ويسر ـ طريق الهداية ، وأوضح سبيلها للسالكين ، وأظهر الضلال في أبشع صوره ، وحذر بأن يرغب عنه من اراد الله بقلب سليم .

ولأجل أن يتم الله نعمه على بني البشر ـ بعد ان افاض عليهم بما في الكون من آيات ـ انزل القرآن من اجلهم ، وارسل الرسول فيهم ومنهم ، حتى لا تكون لهم الحجة ، وتنقطع عنهم المعذرة .

أنزله سبحانه هداية للتي هي اقوم ، بل أنزله كذلك دستورا جامعا ، وقانونا عادلا ، وسبيلا واضحا ، وبيانا ميسرا .

من أجل هذا وذاك ، بل ومن أجل مبادىء الاسلام السامية ، واعجاز قرآنه المعجز ، أردت وبالله التوفيق ، واستعنت به ومنه يستمد العون وحده ، أن أنشر في هذا الكتاب صورة طيبة متواضعة عن سماحة اسلامنا الحنيف ، تحمل بين طياتها حقيقة واضحة عن أهمية هذا الدين السماوي الجامع المانع ، العادل السمح ، وما منحه الله من فضائل اختص بها وحده دون أن يشركه دين سواه .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

خاصة وأن هذا الدين ـ الذى اختاره الله وارتضاه ـ انطلقت وما زالت تنطلق عليه السنة حداد ، بالسب والرمى والاتهامات الكاذبة الضالة المضلة ، من شـــيوعية حمراء ، ووجودية حمقاء : والحادية عمياء ، وزندقة جهلاء ؛ وكثير وكثير ، ممن لا يعى عن الاسلام شيئا ، ولا يرعى له حرمة ، ولا يقدر فيه لله سبحانه شعيرة من شعائره .

وان الغاية العظمى التى أقصدها ، والهدف الجاد الذى أحب أن أصبو اليه أن يوفقنى الله لرد هذه الخزعبلات الممقوتة ، ودحض حجج هؤلاء الحمقى الموروثة ، حتى يفيئوا عن غيهم ويروا آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، ويتبين لهم أن الاسلام حق ، وان الله على كل شىء شهيد .

وانى لأرجو من نشر هذا الجهد المتواضع : أن ترد به شـــبه الذين مرقوا من الدين ، وخرجوا عن حد الاعتدال فى فهم الاسلام ، وأساءوا الظن به ، وحملوا عليه متقولين :

ان الاسلام فى تخلف بأبنائه ، وفى انصراف صارف عن ركب الحضارة وتيار المدنية بأتباعه .

وبعد : فان الاسلام دين السمو بالانسانية كما أجملنا ذلك فى عرضنا هذا ، وما سيفصله فيما بعد بتوفيق الله كتابنا الذى نحن بصدده .

ولقد سميته بـ « الاسلام دين السعادة » أملا فى الله تعالى أن يكتب لنـــا وللمسلمين السعادة فى الدين والدنيـــا والآخرة . واعترافا كذلك : أن الله قدر للاسلام البقاء ، وأسند اليه القيادة الرشيدة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والله وحده الموفق وهو حسبى عليه توكلت واليه أنيب .

الباب الأول

- التعريف بالاسلام
- الاسلام والمجتمع الانساني الأول
- دور الاسلام المثالي في تحرير الشعوب



الفصل الأول

التعريف بالاسلام

يقول الله تعالى :

((ان الدين عند الله الاسلام)) (١)

ويقول سبحانه :

((ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين)) (٢)

ويقول صلوات الله وسلامه عليه ــ فيما روى عن ابن مسعود رضى الله عنهما :

((ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعن جنبتى الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند راس الصراط داع يقول :

استقيموا على الصراط ولا تعوجوا ، وفوق ذلك داع يدعو ، كلما هم عبد أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال :

((ويحك لا تفتحه ، فانك ان تفتحه تلجه ، ثم فسره فأخبر :

ان الصراط : هو الاسلام ، وان الأبواب المفتحة ، محارم الله ، وأن الستور المرخاة ، حدود الله .

والداعى على راس الصراط : هو الاسلام ، وأن الأبواب المفتحة ، محارم الله ، وأن الستور المرخاة ، حدود الله ؛

والداعى على راس الصراط : هو القرآن ، وان الداعى من فوقه ، هو واعظ الله فى قلب كل مؤمن)) (٣) ا هـ

---

(١) آل عمران آية : ١٩ .

(٢) آل عمران آية : ٨٥ .

(٣) انظر كتاب : « جامع المعقول والمنقول » شرح جامع الاصول لاحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم جـ ١ ص ٢٦٠ .

وفى صحيح الترمذى ، عن النواس بن سمعان رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله ضرب مثلا صراطا مستقيما ، على كنفى الصراط زوران ، لها أبواب مفتحة ، على الأبواب ستور ، وداع يدعو على راس الصراط ، وداع يدعو فوقه ، والله يدعو الى دار السلام ، ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

والأبواب التي على كنفى الصراط ، حدود الله ، فلا يقع احد فى حدود الله ، حتى يكشف الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » (١)

من هذه النصوص الرائعة : التى تحمل بين طياتها صورا طيبة ، وحقائق عن الاسلام مباركة ، تفعم دنيا المسلمين بعبير الخلد وأنفاس الملائكة ، نفهم أن الدين الاسلامى :

هو دين الله الخالد : الذى شرعه سبحانه على لسان رسوله الصادق ، صلى الله عليه وسلم ، من عبادات ومعاملات ، والذى ارتضاه لعباده ، ولن يقبل عند الله غيره من الأديان الأخرى .

هذا التعريف الدقيق المعنى ، العميق المغزى ، الذى أطلقناه على الاسلام ، انما هو :

باعتبار نسبة المقارنة بين الاسلام ، وبين غيره من الأديان السابقة الأخرى .

ولقد كان واقع هذا الدين من جهة هذا الاطلاق :

أنه اخذ من القوة مأخذه الوافر ، الذى لا يحتمل فيه ضعف ، ومن السلامة حتى لايتسرب اليه شك ، ومن اليقين الصادق ، حتى لا يتطرق اليه وهم ، ومن الحق الخالص ، حتى لا يشوبه باطل أو افتراء .

---

(١) أخرجه الترمذى أنظر كتاب : « جامع المعقول والمنقول » ج ٢ ص ٢٥٧ .

يقـول سبحانه :

« اليـوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) .

وعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب ـ فيما رواه الامام البخارى ـ قال : قال رجل من اليهود لعمر :

يا أمير المؤمنين ، لو أن علينا نزلت هذه الآية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » لاتخذنا ذلك اليوم عيدا . فقال عمر :

« انى لأعلم أى يوم نزلت هذه الآية ؛ نزلت يوم عرفه ، فى يوم جمعة » (٢) .

وعن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال :

« انما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم ، انى رأيت الجيش بعينى ، وانى أنا النذير العريان ، فالنجاة ؛ فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم ، فأصـبحوا مكانهم ، فصـبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ؛

فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ؛ ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق » (٣) .

بهذا التشبيه النبوى الرائع ، وبهذه المثل الاسلامية العـالية ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أروع المثل ، التى تعتبر فى حد مفهومها الاسلامى ، نموذجا حيا ، لبيان شـأن الاسـلام ، وما اشتمل عليه من الصدق والاخلاص والأمانة ، وبيان ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من الحق الواضح ، والقوة النورانية الهادية .

---

(١) المائدة آية : ٣ .

(٢) رواه البخارى رضى الله عنه .

(٣) رواه الامام البخارى .

بيان الحق الواضح الذى أخذ بل وسيأخذ بيد أتباعه الى النجاة ، واستئصال شأفة الذين عصوا الله سبحانه ، وقطع دابر القوم الذين كفروا ، واجتياح كل من كذب بالاسلام ، واستخف برسالة رسوله ، عليه الصلاة والسلام .

وما ذاك الا لعظم شأن الاسلام ، وتثبيت علو مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسمو رسالته عن بقية رسالات سائر الأديان، وتحقيقا لجدارته التامة ، بالحفاوة والتكريم ، ووجوب لزوم السمع والطاعة لأوامره ، والاجتناب لنواهيه ، والتأسى بأخلاقه وأفعاله ، والتزام طريقه ، والسير على منواله :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله » (١) .

هذا : وان اطلاق هذا التعريف الذى عضدته الأسانيد القوية ، من الآيات القرآنية الكريمة ، والتى أشادت بعلو رتبته الأحاديث النبوية الشريفة ، انما كان ذلك كذلك : باعتبار نسبة المقارنة بين الاسلام ، وبين ما غايره من الأديان الأخرى .

أما اذا أردنا تعريفا للاسلام جامعا لأنواع الخير والفضيلة ، مانعا لأنواع الشر والرذيلة ؛

أما ان أردنا تعريفا للاسلام يتناسب مع جلالة قدر الاسلام وسمو منزلته ؛

أما ان أردنا ذلك : فان الأمر يعوزنا ـ لما نحن عليه من احتياج دائم للتأدب مع النبى ـ أن نفسح المجال ، ونذكر من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ما هو جامع لمحاسن الاسلام ، والمشتمل على فضائل هذا الدين الحنيف .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم ، بارزا يوما للناس ، فأتاه جبريل فقال :

---

(١) الحشر آية : ٧ .

ما الايمان ؟ قال :

الايمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعث .

قال : ما الاسلام ؟ قال :

الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان .

قال : ما الاحسان ؟ قال :

أن تعبد الله ، كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك .

قال : متى الساعة ؟ قال :

ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ؛

اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الابل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن الا الله ، ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم :

((ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير)) (١) .

ثم أدبر فقال : ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال :

هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)) (٢) .

ولكى نزيد من توضيح شأن التعريف بالاسلام ، نذكر من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما يحقق ذلك فى صورة جميلة رائعة .

عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله :
ما الاسلام ؟ قال صلوات الله وسلامه عليه :

---

(١) لقمان آية : ٣٤ .

(٢) من كتاب « الاسلام والايمان » لشيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود .

« أن يسلم لله قلبك ، وان يسلم المسلمون من لسانك ويدك »(١)

وروى الترمذى فى صحيحه ، والنسائى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم » (٢)

وروى البخارى ، ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رجلا ، سأل النبى صلى الله عليه وسلم :

أى الاسلام خير ؟ قـال :

« تطعم الطعام ، وتقـرأ السـلام ، على من عرفت ومن لم تعرف »(٣) .

وروى مسلم فى صحيحه ، والترمذى ، عن العباس بن عبد المطلب قال : انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ذاق طعم الايمان ، من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » (٤) .

قال صاحب التحرير ، رحمه الله تعالى :

« معنى رضيت بالشىء قنعت به ، واكتفيت به ، ولم أطلب معه غيره ؛ فحينئذ يكون معنى الحديث :

لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسـع فى غير طريق الاسلام ، ولم يسلك الا ما يوافق شريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا شك فى أن من كانت هذه صفته ، فقد خلصت حلاوة الايمان الى قلبه ، وذاق طعمه » اهـ

---

(١) رواه الامام أحمد ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) اخرجه الترمذى والنسائى .

(٣) أخرجه البخارى ، ومسلم ، والنسائى .

(٤) أخرجه مسلم والترمذى .

وقال القاضي عياض رحمه الله : معنى الحديث :

صح ايمانه ، واطمأنت به نفسه ، وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات ، دليل على ثبوت معرفته ، ونفاذ بصيرته ، ومخالطة الايمان بشاشة قلبه » اهـ

ويقول ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، عن قوله صلى الله عليه وسلم ، « ذاق طعم الايمان ... الخ »

« فيه دليل على أن من لم يكن كذلك ، لا يجد حلاوة الايمان ، ولا يدرك مذاقه ، وانما يكون ايمانه صورة لا روح فيها ، وظاهرا لا باطن له ، ومرتسما لا حقيقة تحته .

وفيه اشارة الى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى ، تتنعم بملذات المعانى ، كما تنعم النفوس بملذات الأطعمة .

وانما ذاق طعم الايمان ، من رضى بالله ربا ؛ لأنه لما رضى بالله ربا ، استسلم له ، وانقاد لحكمه ، وألقى قياده اليه خارجا عن تدبيره واختياره ، الى حسن تدبير الله واختياره ؛ فوجد لذاذة العيش ، وراحة التفويض .

ولما رضى بالله ربا ، كان له الرضا من الله ، كما قال الله تعالى :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

واذا كان له الرضا من الله ، أوجده الله حلاوة ذلك ، ليعلم ما من به عليه ، وليعلم احسان الله اليه ؛

ولا يكون الرضا بالله الا مع الفهم ، ولا يكون الفهم الا مع النور ، ولا يكون النور الا مع الدنو ، ولا يكون الدنو ، الا مع العناية ؛

فلما سبقت لهذا العبد العناية ، خرجت له العطايا من خزائن المنن ؛ فلما واصلته امداد الله وأنواره ، عوفى قلبه من الأمراض والأسقام ، فكان سليم الادراك ، فأدرك لذاذة الايمان ، وحلاوته لصحة ادراكه ، ولسلامة ذوقه ؛

ولو سقم قلبه بالغفلة عن الله ــ والعياذ بالله تعالى ــ لم يدرك ذلك ، لأن المحموم ، ربما وجد طعم السكر مرا ، وليس هو فى نفس الأمر كذلك .

فاذا ما زالت أسقام القلوب ، أدركت الأشياء على ما هى عليه ، فتدرك حلاوة الايمان ولذاذة الطاعة ، ومرارة القطيعة والمخالفة .

فيوجب ادراكها لحلاوة الايمان ، اغتباطها به ، وشهود المنة من الله عليها فيه ، وتطلب الأسباب الحافظة للايمان ، والجالبة له .

ويوجب ادراك لذاذة الطاعة ، المداومة عليها ، وشهود المنة من الله فيها .

ويوجب ادراكها لمرارة الكفران والمخالفة ، الترك لهما ، والنفور عنهما ، وعدم الميل اليهما ، فيحمل على الترك للذنب ، وعدم التطلع اليه ، وليس كل متطلع تاركا ، ولا كل تارك ، غير متطلع .

وانما كان كذلك : لأن نور البصيرة دال على أن المخالفة لله ، والغفلة عنه ، سم للقلوب مهلك .

فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله تعالى ، كنفرتك عن الطعام المسموم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وبالاسلام دينا » .

لأنه اذا رضى بالاسلام دينا ، فقد رضى بما رضى به المولى ، واختاره لقوله تعالى :

« ان الدين عند الله الاسلام » . ولقوله تعالى :

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا ، فلن يقبل منه » . ولقوله تعالى .

« ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » .

واذا رضى بالاسلام دينا ، فمن لازم ذلك :

امتثال الأوامر ، والانكفاف عند وجود الزواجر ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والغيرة اذا رأى ملحدا يجادل ، أن يدخل فيه ما ليس منه ، فيدفعه ببرهانه ، ويقمعه بتبيانه .

وقوله صلى الله عليه وسلم ، « وبمحمد نبيا » :

فلازم من رضى بمحمد نبيا ، أن يكون له وليا ، وأن يتأدب بآدابه ، وأن يتخلق بأخلاقه زهدا فى الدنيا ، وخروجا عنها ، وصفحا عن

الجناية ، وعفوا عمن أساء اليه ، الى غير ذلك من تحقق المتابعة ، قولا ، وفعلا ، وأخذا ، وتركا ، وحبا ، وبغضا ، وظاهرا ، وباطنا .

فمن رضى بالله أ استسلم له ، ومن رضى بالاسلام : عمل له ، ومن رضى بمحمد صلى الله عليه وسلم : تابعه ، ولا تكون واحدة منها الا بكلها ؛

اذ محال أن يرضى بالله ربا ، ولا يرضى بالاسلام دينا ، أو يرضى بالاسلام دينا ، ولا يرضى بمحمد نبيا ، وتلازم ذلك بين لاخفاء فيـــه » (1) أ هـ

الدين الاســلامى وموقفه من الأديان السابقة :

اما مكانة الاسلام ، وأما موقفه من الأديان السابقة الأخرى ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصور ذلك أحسن تصــوير وأبدعه ، فيقول :

« مثلى ومثل الأنبياء قبلى ، كمثل رجل بنى بيتا فأجمله وزينه الا موضع لبنة من زاوية ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم الأنبياء » .

وعن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه قال :

جاءت ملائكة الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نائم ، فقال بعضهم : انه نائم ، وقال بعضهم :

ان العين نائمة ، والقلب يقظان . نقالوا :

ان لصاحبكم هذا مثلا ، فاضربوا له مثلا ؛ فقال بعضهم : انه نائم ؛ وقال بعضهم :

ان العين نائمة ، والقلب يقظان ؛ فقالوا :
مثله كمثل رجل بنى دارا ، وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعيا .

فمن أجاب الداعى دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعى ؛ لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة .

---

(1) أنظر كتاب : « التنوير فى اسقاط التدبير » لابن عطاء الله السكندرى رضى الله عنه .

فقالوا أ أولوهاله ، يفقهها ؛ فقال بعضهم :

انه نائم ، وقال بعضهم :

ان العين نائمة ، والقلب يقظان ، فقالوا :

فالدار الجنة ، والداعى محمد صلى الله عليه وسلم .

فمن أطاع محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، فقد أطاع الله ، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقد عصى الله ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، فرق بين الناس » (١) ا هـ

من هذه النصوص النبوية الكريمة ، التى لها من الصحة والقوة ، مالها من الصدق واليقين ، نفهم أن الاسلام هو :

اثبات التوحيد الخالص المخلص لله وحده ، وتنزهه سبحانه وتعالى بالعبادة الخالصة لوجهه ، وابطال الشرك ، ونفى الشريك ، ومنع الشبيه ، والنظير له تعالى :

« **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** » .

وانه التصديق الصادق ، بارسال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإقرار الكامل الصادر عن قلب مؤمن ، أنه عبد الله ورسوله، الذى اصطفاه الله لخلقه ، واختاره لوحيه .

وانه اقام الصلاة المفروضة ايضا :

الصلاة التى يخبر عن عظمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما يلى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قـال :

قال لى جبريل :

« ان الله تعالى يقرئك السلام ويقول :

---

(١) رواه الامام البخارى فى صحيحه رضى الله عنه .

« اذا وقف العبد بين يدى للصلاة ، وقال : الله أكبر ، أرفع الحجاب الذى بينى وبينه .

واذا قال : الحمد لله ، يقول أ لمن الحمد ؟ فيقول لله .

فيقول : ومن الله ؟ فيقول : رب العالمين .

فيقول : ومن رب العالمين ؟ فيقول : الرحمن الرحيم .

فيقول ومن الرحمن الرحيم ؟ فيقول مالك يوم الدين .

فيقول : يا عبدى أنا مالك يوم الدين .

فيقول العبد : اياك نعبد واياك نستعين .

فيقول : يا عبدى أنا اياى تعبد ، واياى تستعين ، سل تعط .

فيقول اهدنا . فيقول :

أى الهدى تريد ؟ فيقول :

الصراط المستقيم ، فيقول :

أى الصراط تريد ؟ فيقول :

صراط الذين أنعمت عليهم ؛

فيقول . يا ملائكتى اشهدوا أنى قد جعلت عبدى من الذين أنعمت عليهم ، من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

فيقول العبد غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين .

فيقول الله تعالى :

« اشهدوا أنى جعلته من الذين أنعمت عليهم ، ولم أجعله من المغضوب عليهم ، ولا الضالين .

فيقول العبد : آمين . فتقول الملائكة : آمين »(١) ا هـ

انه الصلاة المفروضة ، بالكتاب والسنة ، واجماع الأمة ، الثابتة

---

(١) أنظر كتاب « شرح القلوب لابن الجوزى » .

بشروطها وأركانها ، والقيام بأدائها فى أوقاتها ، دون جمعها على بعضها ، والمحافظة على جماعتها وجمعتها .

انه الصلاة التى هى الصلة القوية بين الانسان وربه ، والمقربة العظمى ، التى تقرب العبد من خالقه .

انه الصلاة التى هى المناجاة المشروعة ، والأعمال الطيبة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتى هى ذكر الله الأكبر ، والله يعلم ما تصنعون .

وأن الاسلام هو كذلك :

ايتاء الزكاة عن طيب خاطر ، وانشراح صدر ، واطمئنان نفس ، واخلاص نية .

انه الزكاة التى هى عبارة عن اخراج جزء من مال حلال ، وكسب مشروع للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل .

انه الزكاة الصحيحة المقبولة ، المحصنة للأموال ، الحافظة للبنين والبنات ، الرافعة للأعمال الصالحات .

انه الزكاة التى تربط الغنى بالفقير ، والقوى بالضعيف ، والفرد بالجماعة ، والقبائل بالشعوب ؛

انه الزكاة التى تربط ذلك كله برباط الأخوة والمحبة ، والألفة والشفقة ، والمودة والرحمة ؛

انه الزكاة التى تدفع فاقة الفقير ، وترد بأس الجياع والمعوزين ، وتدخل البشر والسرور على المحرومين .

انه الزكاة التى تطفىء غضب الرب ، وتكسر جماح طمع الطامعين .

انه الزكاة التى هى الانفاق فى سبيل الله ، الذى يضاعفه الله لمن يشاء من عباده ، والذى يقول فى شأنه

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة انبتت

سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم »(١) .

وان الاسلام هو أيضـــا :

الصوم الذى هو ركن من اركانه ، وأس قوى من أسس بنيانه .
انه الصوم الذى فرضه الله على المؤمنين ليكون سببا مباشرا لتقوى الله سبحانه .

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) .

انه الصوم الذى به تكسر الشهوات ، وتحرم المنكرات ، وتمسك به النفوس : وتجمح به الأهواء ، وتحبس الشياطين ، وتوصـــد أبواب الجحيم ، وتفتح أبواب الجنان .

انه الصوم الذى تصح به المعدة ، وتنشط به الأعضاء ، وتقوى به الأجسام ، وتتروض به القلوب ، وتسمو الأعمال ، ويقوى اليقين ، وترقى درجة الايمان .

انه الصوم الذى يقول الله فى فضله على لسان رسوله :

« كل عمل ابن آدم له ، الا الصوم ، فانه لى ، وأنا أجزى به » .

انه الصوم ، والصوم جنة .

وأن الاسلام هو : حج بيت الله الحرام ، وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

انه حج البيت الذى هو أول بيت وضع للناس ، والذى جعل الله الأمان لمن دخله .

انه الحج الذى فرضه الله على من استطاع اليه سبيلا .
انه الحج الى بيت الله الحرام ، الذى أنزل الله فى حقه :

---

(١) البقرة آية : ٢٦١ .

(٢) البقرة آية : ١٨٣ .

((ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم : ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين))(١) .

وأن الاسلام هو كذلك أيضــا :

الجهاد فى سبيل الله سبحانه ، اعلاء لكلمة الله تعالى ، والدفاع المستميت ضد أعداء الدين والوطن .

انه الجهــاد فى ســبيله ســبحانه ، من أجل الشرف والعزة والكرامة ، وسلامة الفرد والمجتمع .

انه الجهاد ضد كل غاصب أو معتد آثم .

انه الجهاد من أجل المبادىء الانسانية ؛

انه الجهاد الخالص المخلص لوجه الله سبحانه ، من أجل دينه ، دون فخر ، أو مراءاة ، أو سمعة أو شهرة .

انه الجهاد الجاد من أجل الحق وللحق ، وللاسلام والمسلمين أجمع .

انه الجهاد الذى تنال به منزلة الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

انه الجهاد بالقتال فى سبيل الله تعالى ، الذى أمرنا به سبحانه بقــوله :

((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم))(٢) .

---

(١) آل عمران آية : ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) التوبة آية : ١٤ ، ١٥ .

انه الجهاد الذى فرضه الله علينا بقوله :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ، ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيمو الصلاة ، وآتو الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير(١) » .

انه الاسلام بكل هذه المعانى ، بل ان الاسلام كان اسلاما لا بكل ذلك فحسب ، بل انه كان اسلاما ، لتضمنه أيضا اسلام الوجه لله سبحانه .

انه تضمن اسلام الوجه لله سبحانه ، على وجه يتناسب وخضوع القلب هيبة لجلال الله سبحانه ، ويتفق وقداسة السجود المعنى به تعظيم الحق تعالى .

يقول سبحانه :

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا(٢) » .

ويقول تعالى :

« ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، والى الله عاقبة الأمور (٣) » .

وعن بهز بن حكيم ، عن أبيه عن جده ـ فيما رواه النسائى فى صحيحه ـ قال : قلت يا رسول الله !

ما أتيتك حتى حلفت أكثر من عددهن ـ لأصابع يديه ـ أن لا آتيك ، ولا آتى دينك ، وانى كنت امرء ، لا أعقل شيئا الا ما علمنى الله ورسوله ،وانى سألتك لوجه الله ؟

---

(١) الحج آية : ٧٨ .

(٢) النساء آية : ١٢٥ .

(٣) لقمان آية : ٢٢ .

بم بعثك الله الينا ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

بالاسلام . قال :

وما آيات الاسلام ؟ قال : أن تقول :

« أسلمت وجهى لله ، وتخليت ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة (١) » .

واسلام الوجه لله سبحانه ، اسلاما تاما ، لا يتأتى للانسان الا بالاذعان الكامل لأوامر الله تعالى ، والتسليم المطلق ، والخضوع الكلى لأحكامه ، والقاء الكيان البشرى فى خضم العبودية لله وحده ، دون أن يشرك فى ذلك اشتغال بما سوى الله سبحانه وتعالى ، حتى يصفو القلب ، وتخشع الجوارح ، وتصدق النية ، وتصح العقيدة ، وتسلم الأفكار من الظنون السيئة ، وتذوب بشريته فى صهاريج العبودية ، ويتحقق العبد بقوله :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » (٢) .

ولن يتأتى القرب للعبد من ربه فى سجوده الذى هو أولى درجات أسلام الوجه لله تعالى ، الا بسلامة المسلمين من لسانه ويده .

وهذه السلامة المقصودة هنا ، انما تكون بعدم الايذاء مطلقا ، فعلا أو تركا ، قولا أو عملا ، هما بالنفس ، أو عزما بالارادة .

اذ أن سلامة المسلم من لسان أخيه ويده ، تستلزم : كف الأذى مطلقا بسائر أنواع الجوارح ، وترك ما نهى الله تعالى عنه ؛ ففى الحديث الشريف يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر ، من هجر ما نهى الله عنه » .

---

(١) أخرجه النسائى .

(٢) الذاريات آية : ٥٦ ، ٥٧ .

فاذا ما تأتى من المسلم ذلك ، وتحقق به أيضا ــ وهو على يقين صادق ، واخلاص مخلص ــ كان شأنه عند الله أعظم ، وثوابه أجزل ، وحاله يتفق وما أمره به الرسول صلى الله عليه وسلم .

بهذه المعانى الاسلامية ، الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة ، كان الاسلام اسلاما كاملا ، أرتضاه الله لخلقه دينا ، واختاره خاتما لجميع الأديان السابقة .

هيمنة الاســـلام أ

ان الاسلام على الرغم من منزلته السامية التى سبق أن ذكرناها ، والتى لم يشركه فيها غيره ، واختص بها وحده دون ما عداه ؛ على الرغم من ذلك : فانه صنو الأديان السابقة ، والمهيمن عليها قاطبة .

ذلك : أنه يتحد معها فى المبادىء ، ويفوقها فى الغايات ، ويسير معها فى خصوصيتها ، ويفضلها أنه خاتم الرسالات وأعمها .

يقول سبحانه مبينا ذلك :

((انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعــده ، وأوحينا الى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان : وآتينا داود زبورا (١))).

ويقول جل ذكره :

((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصـــينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليــه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب(٢))) .

يقول صاحب روح المعانى فى تفسير هذه الآية (٣) :

---

(١) النساء آية : ١٦٣ .

(٢) الشورى آية : ١٣ .

(٣) صاحب روح المعانى هو الشيخ الألوسى صاحب التفسير المشهور .

« شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ، دينا واحدا فى الأصول ، وهى :

التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتقرب بصالح الأعمال ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وتحريم الكبر ، والزنا ، والايذاء للخلق ، والاعتداء على الحيوان ، واقتحام الدناءات ، وما يعود بخرم المروءات .

فهذا كله مشروع دينا واحدا ، وملة متحدة ، لم يختلف على السنة الأنبياء ، وان اختلفت أعدادهم » أ هـ

وقال الحافظ ابو بكر بن العربى :

« لم يكن مع آدم عليه السلام الا نبوه ، ولم يفرض له الفرائض ، ولا شرعت له المحارم ، وانما كان فيها على بعض الأمور مقتصرا على بعض ضروريات المعاش ، واستمر الأمر الى نوح عليه السلام ، فبعثه الله تعالى ، بتحريم الأمهات والبنات ، ووظف عليه الواجبات ، وأوضح له الأدب فى الديانات ، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء ، واحدا بعد واحد ، وشريعة اثر شريعة ، حتى ختمه سبحانه ، بخير الملل على لسان أكرم الرسل » ا هـ

ويقول الرازى أيضا :

« شرعنا لكم من الدين ، دينا تطابقت الأنبياء على صحته ، وقد أراد له صانعه أن يكون خاتما لهذه الأديان جامعا لمحاسنها ، محتويا لغاياتها ، ولذا ذابت ، وفنيت فى طياتها ، وجعل الاصرار عليها دونه لونا من الوان العبث غير مقبول . ولسنا نرمى القول جزافا :

فالدين الواحد الذى لا يدخله النسخ ، ولا يختلف باختلاف الأنبياء ، هو فى نظر القرآن حجة الله الوحيدة ، والمسمى اسلاما » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من الأنبياء نبى الا أعطى من الآيات ، ما مثله أو من ، أو آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الى ، فأرجو أنى اكثرهم تابعا يوم القيامة (١) » .

---

(١) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

ويقولَ صاحب كتاب : « أنوار التنزيلَ ، وأسرار التأويلَ (١) » :

« لا دين مرضى عند الله سوى الاسلام ، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم » .

وعن عوف رضى الله عنه ، ان ابا المنهال ، حدثه انه سمع ابا برزة قال :

« ان الله يغنيكم ، أو انعشكم بالاسلام ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم (٢) » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قالَ :

« جلس ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ينتظرونه ، فخرج حتى اذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم ، واذا بعضهم يقول :

ان الله تعالى اتخذ من خلقه خليلا ، فابراهيم خليله .

وقال الآخر :

ماذا بأعجب من ان كلم الله تعالى موسى تكليما .

وقال آخر :

فعيسى روح الله تعالى وكلمته .

وقال آخر :

آدم اصطفاه الله تعالى ، فخرج عليهم ، فسلم فقالَ :

قد سمعت كلامكم وعجبكم ؛

ان ابراهيم خليل الله تعالى ، وهو كذلك ، وموسى كليمه ، وعيسىَ روحه وكلمته ، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك .

---

(١) هو ناصر الدين أبى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى صاحب التفسير المشهور .

(٢) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

الا وانى حبيب الله تعالى ولا فخر ، وانا أول شافع ومشفع ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتحها الله تعالى ، فيدخلينها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر (١) » .

ويقول الامام على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه !

« ان الله تعالى خصكم بالاسلام ، واستخلصكم له ، وذلك لأنه اسم سلامة ، وجماع كرامة ، أصطفى الله تعالى منهجه ، وبين حججه ، من ظاهر علم ، وباطن حكم .

لا تفنى غرائبه ، ولا تنقضى عجائبه . فيه مرابع النعم ، ومصابيح الظلم ؛

لا تفتح الخيرات الا بمفاتيحه ، ولا تكشف الظلمات الا بمصابيحه ؛

قد أحمى حماه ، وأرعى مرعاه ؟

فيه شفاء المستشفى ، وكفاية المكتفى » اهـ

وحقا أن الاسلام كذلك ، لأنه دين الله الوحيد الذى اختاره الله لخلقه عامه ، ورضيه شريعة جامعة ، يتعبد عليها كل من اراد الله بقليب سليم من عباده .

انه بحق كذلك : لأنه الدين الالهى المرضى عند الله ، المعنى به الشرع ، المبعوث به الرسل ، المبنى على التوحيد لله سبحانه ، المقرو كمال الربوبية للخالق البارىء جل جلاله .

انه دين سماوى ، سما عن الكفر والشرك ، وابتعد عن النفاق والالحاد ، بل انه دين سماوى ، حارب الكفر والشرك ، وقضى على النفاق والظلم .

انه دين كامل ، ارتضاه الله وكمله لعباده ، وجعله نعمة مسبغة ،

---

(١) اخرجه الترمذى ، وابن مردويه .

طابت لهـا نفوس المخلصين من خلقـه ، واهتدت بها قلوب الذين اهتدوا ، فزادهم الله هدى ، وآتاهم تقواهم .

يقول عنه سيدنا على رضى الله عنه وكرم الله وجهه :

« ان هذا الاسلام ، دين الله الذى اصطفاه لنفسه ، واصطنعه على عينه ، وأصفاه خيرة خلقه ، وأقام دعائمه على محبته .

أذل الأديان بعزته ، ووضع الملل برفعه ، وأهان أعداءه بكرامته ، وخذل محاديه بنصره ، وهدم أركان الضـلالة بركنه ، وسقى من عطش من حياضـه ، وأتأق (١) الحيـاض بمواتحه ، ثم جعـله لا انفصام لعروته ، ولا فك لحلقته ، ولا انهدام لأساسه ، ولا زوال لدعائمه ، ولا انقـلاع لشجرته ، ولا انقطـاع لمـدته ، ولا عفـاء لشرائعه ، ولا جـذ لفروعه ، ولا ضنـك لطـرقه ، ولا وعوثة لسهولته ، ولا سواد لوضحه ، ولا عوج لانتصابه ، ولا عصل فى عوده ، ولا وعث لفجه ، ولا انطفاء لمصابيحه ، ولا مرارة لحلاوته .

فهو دعائم أسـاخ فى الحـق أسناخها ، وثبت لها أساسها ، وينابيع غزرت عيونها ، ومصابيح شبت نيرانها ، ومنارة اقتدى بها سفارها ، وأعلام قصـد بها فجاجها ، ومناهل روى بها ورادها ؛ جعل الله فيه منتهى رضوانه ، وذروة دعائمه ، وسنام طاعته ؛

فهو عند الله وثيق الأركان ، رفيع البنيان ، منير البرهان ، مضىء النيران ، عزيز السلطان ، مشرف المنار ، معوز المثار ؛

فشرفوه واتبعوه ، وادوا اليه حقه ، وضعوه فى مواضعه » اهـ

وصدق رضى الله عنه ، اذ أن الاسلام هو :

الدين القيم ، والعبرة المستلهمة ، والنفحة الربانية الموحاة ، والطريق السوى لمن اهتدى ، والرباط الوثيق الذى لا تنفك عراه ، ولا تنحل أواصره ، ولا تحجب الأضواء دونه .

فهو دين لا تعوقه الحواجز ، ولا تمنعه الأسـتار ، ولا يبليه زمان ، ولا يخلقه رد ، ولا تنتهى منه العجائب .

---

(١) أتاق : ملأ .

ذلك : أن شرائعه قاطبة ، عقائده كلها ، وقوانينه جميعها ، مأخوذة من كتاب الله الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، اللذين هما وحي مباشر ، عن الله سبحانه ، أو وحي غير مباشر عن طريق الالهام منه سبحانه وتعالى .

شمول الاسلام وعمومه :

لقد فرض الدين الاسلامي الفروض ، وأوجب الواجبات ، وأباح الجائز ، وحبب في النوافل ، وحث على السنن ، ونهى عن المحرم ، وأحال المستحيلات . وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وحذر عن الانهماك في المخالفات .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال :

بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم ، في المسجد ، إذ دخل رجل على جمل ، ثم أناخه في المسجد ، ثم عقله ، ثم قال :

أيكم محمد ؟

والنبي صلى الله عليه وسلم ، متكيء بين ظهرانيهم ، فقلنا :

هذا الرجل الأبيض المتكيء .

فقال له : ابن عبد المطلب ؟

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : قد أجبتك . فقال الرجل

اني سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجد في نفسك ؟ قال : سل عما بدا لك . فقال :

أسألك بربك ! ورب من قبلك ! الله أرسلك الى الناس كلهم ؟ قال :

اللهم نعم . قال :

أنشدك بالله ! آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ قال :

اللهم نعم . قال :

انشدك بالله ! آلله امرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال:

اللهم نعم . قال :

انشدك بالله ! آلله امرك أن تأخذ هذه الصدقة من اغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا ؟

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم نعم .

قال الرجل :

آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة ، أخو بنى سعد بن بكر (١) » أ هـ

وفى رواية أخرى للامام مسلم رضى الله عنه : قال أنس رضى الله عنه :

نهينا فى القرآن أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن شىء ، فكان يعجبنا أن يجىء الرجل من أهل البادية ، العاقل (٢) ، فيسأل ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية ، فقال :

يا محمد ! أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم ، أن الله أرسلك ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق .

قال : فمن خلق السماء ؟

قال : الله .

قال : فمن خلق الأرض ؟

قال : الله .

قال : فمن نصب هذه الجبال ، وجعل فيها ما جعل ؟

قال : الله .

---

(١) هذا لفظ البخارى ، انظر : جامع المعقول والمنقول ، شرح جامع الأصول لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم جـ ١ ص ١١٩ .

(٢) أى الرجل الموصوف بالذكاء وكمال الفطنة .

قال : فبالذى خلق السماء والأرض ، ونصب هذه الجبال ؟ آلله أرسلك ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة فى أموالنا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان فى سنتنا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : وزعم رسولك ، أن علينا حج البيت ، من استطاع اليه سبيلا ؟

قال : صدق .

قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

قال : ثم ولى ، وقال :
والذى بعثك بالحق ، لا أزيد عليهن ، ولا أنقص منهن .
فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« لئن صدق ليدخلن الجنة (١) » أ هـ

ويعبر الامام على رضى الله عنه ، عما اشتمل عليه الاسلام من محاسن الشيم ، وما انطوى عليه من فضائل وقيم فيقول :

« ان افضل ما توسل به المتوسلون الى الله سبحانه وتعالى :

الايمان به وبرسوله .

والجهاد فى سبيله ، فانه ذروة الاسلام .

وكلمة الاخلاص ، فانها الفطرة .

واقام الصلاة ، فانها الملة .

وايتاء الزكاة ، فانها فريضة واجبة .

وصوم شهر رمضان فانه جنة من العقاب .

وحج البيت واعتماره ، فانهما ينفيان الفقر ، ويرحضان الذنب .

وصلة الرحم ، فانها مثراة فى المال ، ومنسأة فى الأجل .

وصدقة السر ، فانها تكفر الخطيئة .

وصدقة العلانية ، فانها تدفع ميتة السوء .

وصانع المعروف ، فانها تقى مصارع الهوان » أ هـ

هذا وان كان الاسلام قد اشتمل على هذه الفضائل على طريق التزام ما أمر الله تعالى به ، فان ذلك لم يكن حدا فاصلا يقف عنده الاسلام ، اكتفاء على أوامر الله سبحانه ، وانما نهى الاسلام نهيا كليا عن كل ما نهى الله عنه أيضا ، حتى اشتمل على كثير من الفضائل الاسلامية ، التى يتحلى بها كل مؤمن عن طريق الاجتناب لما نهى الله تعالى عنه أيضا .

لذلك اعتبر الاسلام ، أن الأمة الاسلامية ، كانت خير أمة أخرجت للناس ، لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ، واعتبر

---

(١) الحديث بطوله رواه مسلم - أنظر كتاب جامع المعقول والمنقول ج ١ ص ١٢٠ .

تماما ، أن كل واحد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أحد شطرى القضية المنتجة للايمان بالله سبحانه ، ايمانا كاملا .

وليست الأمة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس عنده ، لأمرها بالمعروف ، فحسب ، أو لنهيها عن المنكر فقط ، وانما كانت خير أمة لتحققها بالأمرين معا ، اللذين هما قاعدة الخيرية المطلوبة .

لهذا حذر الاسلام وانذر ، ووعظ وأرشد ، وزجر وخوف ، ووعد وتوعد ، ورغب ورهب ، واستفاض فى استعمال ذلك كله ، استفاضة تامة ، تحقيقا لاتباع أوامر الله تعالى ، واجتناب نواهيه سبحانه .

الاسلام يرسم طريق الهداية ويوصل للسعادة :

رسم الاسلام طريق الهداية الذى يوصل لسعادة الانسانية المثلى ، والذى يحقق لها الفضيلة الكاملة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

انه رسم ذلك فى الحياة الدنيا : بتقفى آثار الأنبياء والصالحين ، والتأسى بأخلاق سيد المرسلين ، والأخذ بدعوته المجيدة الواردة فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وكتب العلماء ، وسيرة الصالحين .

« قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى (١) »

والقرآن الكريم يبين فضيلة هذه الدعوة الاسلامية الخالدة بيانا واضحا ، فى صراحة صريحة فيقول :

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله ، وعمل صالحا ، وقال انني من المسلمين (٢) »

وأما فى الآخرة فقد رسمه بالاخبار والتبشير بما أعده الله

---

(١) يوسف آية : ١٠٨ .

(٢) فصلت آية : ٣٣ .

للمتقين من عباده ، والأنبيـــاء الصالحين من صـــفوة خلقه الذين بشرهم الله بقوله :

« الا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم[1] » .

انه رسمه فى الآخرة : بالاخبار والتبشير بما أعده الله لهؤلاء من النعيم المقيم ، والأجر الوفير ، والثواب العظيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قـــرة أعين جزاء بمـــا كانوا يعملون[2] » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يقول الله : أعددت لعبادى الصالحين ، ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ اقرءوا ان شئتم :

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قـــرة أعين جزاء بمـــا كانوا يعملون » .

وفى الجنة شجرة يســـير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا ان شئتم :

« وظل ممدود »

وموضع سوط من الجنة ، خير من الدنيا وما فيها ، اقرءوا ان شئتم :

---

(1) يونس آية : ٦٢ – ٦٤ .

(2) السجدة آية : ١٧ .

« فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز (١) » .

لهذا فانه لا جدال ولا مراء ، أن الاسلام هو :

دين السعادة والفضيلة ، دين العدل والانصاف ، دين الرحمة والألفة ، دين العطف والمحبة ، دين الرعاية والعناية ، دين الاحسان والمساواة ، دين التآخى والتواد ، دين الله الغالب الذى لا يغلب ، دين الله الباقى الذى ليس بعده أو وراءه دين .

يقول عنه سيدنا على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه :

« الحمد لله الذى شرع الاسلام فسهل شرائعه لمن ورده ، وأعز أركانه على من غالبه ، فجعله أمنـا لمن عقله ، وسلما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل ، ولبا لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر .

فهو أبلج المناهج ، وأوضح الولائج .

مشرف المنـار ، مشرق الجـواد ، مضىء المصـابيح ، كريم المضمار ، رفيع الغاية ، جامع الجلبة ، متنافس السبقة ، شريف الفرسان .

التصـديق منهاجه ، والصـالحات مناره ، والموت غايته ، والدنيا مضماره ، والقيامة حلبته ، والجنة سبقته » ا هـ

ولا عجب اذن من الاسلام ــ وهو بهذه المثابة ــ أن كان : دين السعادة الانسانية فى الدنيا والآخرة ، ذلك : لما انطوت عليه صحائفه البيضاء ، من معانى انسانية راقية ، وما اشتمل عليه من فضـائل اجتماعية عامة ، تأخذ بيد أتباعه المخلصين ، الى مرتبـة النعيم المقيم ، فى جنات الخلد والفوز العظيم .

---

(١) رواه بهذا اللفظ والسياق : الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وصدره فى الصحيحين .

خاصة وأنه : تولى تنظيم الحياة الانسانية جميعها ، أفرادا وجماعات ، وتناول منذ قيادته ـ بهذا التنظيم ـ طبيعة العلاقة بين الخلق والخالق ، والعباد ورب العباد .

كما تناول كذلك : طبيعة العلاقة بين .

الانسان والكون والحياة ، وطبيعة العلاقة الانسانية بين الفرد ، وبين الجماعة ، وبين الانسانية فى شتى مناحى الحياة .

ودين هذا شأنه ، كما علم بالضرورة خليق بالخضوع لأحكامه ، والاذعان التام لأوامره ، والاستجابة الكاملة لاجتناب كل ما نهى عنه ، حتى تسمو الانسانية بالاستجابة له ، عن بقية الحيوانات ، وتتحقق عندها الربوبية الكاملة ، لخالق الأرض والسموات .

ولا شك أنه لن يتأتى لانسان ما ، مهما عز وارتقى ، وارتفع وساد ، الا الخضوع لأوامر هذا الدين الاسلامى ، والامتثال المطلق ، والتسليم التام ، لما جاء به الرسول النبى الأمى ، الذى بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . وكان من فضل الله سبحانه ، كما أراد ، فبشر وأنذر ، ونصح وأرشد ، ووجه وبلغ ، واستمر كذلك صلوات الله وسلامه عليه ، الى أن انتشرت الرسالة ، وعم عبيرها الخالد ، فسعدت به الأمم ، واستيقظت الهمم ، ورشدت القبائل ، وصحت العقائد ، وبلغت الهداية القلوب ، وآمن به المؤمنون ، وعلموا أن ما جاءهم به حق ، وأن الحق لله سبحانه .

يقول سيدنا على رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه :

« أن الله سبحانه ، بعث محمدا صلى الله عليه وآله ، بالحق ، حين دنا من الدنيا الانقطاع ، وأقبل من الآخرة الاطلاع ، وأظلمت بهجتها بعد اشراق ، وقامت بأهلها على ساق ، وخشن منها مهاد ، وأزف منها قياد .

فى انقطاع من مدتها ، واقتراب من أشراطها ، وتصرم من أهلها ، وانفصام من حلقتها ، وانتشار من سببها ، وعفاء من أعلامها ، وتكشف من عوراتها ، وقصر من طولها .

جعله الله سبحانه بلاغا لرسالته ، وكرامة لأمته ، وربيعا لأهل زمانه ، ورفعة لأعوانه ، وشرفا لأنصاره .

ثم أنزلَ عليه الكتاب نورا ، لا تطفأ مصابيحه ، وسراجا لا يخبو توقده ، وبحرا لا يدرك قعره ، ومنهاجا لا يضل نهجـــه ، وشعاعا لا يظلم ضوؤه ، وفرقانا لا يخمـد برهانه ، وتبيانا لا تهدم أركانه ، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزا لا تهزم أنصاره ، وحقا لا تخــذل أعوانه .

فهو معدن الايمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافى الاسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يغيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، واعلام لا يعمى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون .

جعله الله ريا لعطش العلماء ، وربيعا لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطريق الصلحاء ، ودواء ليس بعده دواء ، ونورا ليس معه ظلمة ، وحبلا وثيقة عروته ، ومعقلا منيعة ذروته ، وعزا لمن تولاه ، وسلما لمن دخله ، وهدى لمن ائتم به ، وعذرا لمن انتحله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وحاملا لمن حمـله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلمـا لمن دعى ، وحديثا لمن روى ، وحكما لمن قضى » اهـ

وبعد : فيقول الله سبحانه :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجـــره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

الفصل الثانى

الاسلام والمجتمع الانسانى الأول

يقول الله تعالى :

((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين (١))) .

ويقول سبحانه :

((كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد .

وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم (٢))) .

آيات كريمة ، من قرآن كريم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تشعر تمام الاشعار ، وتبين لنا بيانا واضحا ، حاجة المجتمع الانسانى الأول الى من يأخذ بيده ، وينقذه من الظلام المخيف ، الى النور الساطع الآمن الوادع .

ذلك ان الانسانية قبل مجىء الاسلام ظلت ادهارا طويلة ، تتخبط فى دياجير الظلام ، حائرة بين متاهات الشرك ، وعبادة الأوثان ؛

لا تهتدى الى فكرة شاملة ، عن الخالق الحق ، للكون ، والحياة ، والانسان .

---

(١) آل عمران آية : ١٦٤ .

(٢) ابراهيم آية : ١ — ٤ .

ذلك : أنها لم تكن قد تهيأت بعد ، لادراك مثل هـذه الفكرة الكلية الشاملة .

والقرآن الكريم ، يقص علينا فى كثير من الآيات ، والسنة النبوية تخبرنا بما روته من أحاديث ، والتاريخ الحافل بسير الأعلام من الصحابة والتابعين ، يحدثنا بما سجله من مواقف مشهودة .

يحدثنا ذلك كله : أن الأمة الاسلامية عانت فى بادىء امرها من العذاب ألوانا عديدة ، وتحملت منذ نشأتها من الآلام الكثير والكثير ؛

انها قاست من عناد الكفر ، وتمرد الشرك ، وطغيان الظلم ، وانتشار الفسق ، وفساد الجاهلية وكلوح الحادها ، قاست الأمة الاسلامية فى بادىء أمرها كل ذلك ، بل انها عانت كل ما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ويخافون عذابه ، وتقبض منه قلوب المؤمنين من عباد الله سبحانه .

وليت هذا الايذاء وقف عند حد من الفحش ، ... لا ... بل انه تخطى الرقاب ، وانتهك المحارم ، وتجاوز الحدود ، حتى أخذه الجبن ، وجره الخبث ، الى استعمال كل ما يملك من لؤم ومكر ، ودهاء وفسق .

أخذه الجبن ، وجره الخبث الى استعمال ذلك كله فى ايذاء الانسانية ، وتعدى باجرامه المجرم ، وفسقه الفاسق ، حتى طغى وبغى ، وأحدث مالا ينبغى .

وما زال هكذا يفعل ... ويفعل ... وهو يواصل سيره ، دون أن يقعد أو يكف عن الظلم ، حتى أعجزه القدر ، وغلبه القضاء ، وحال بين أهله وبين ما يشتهون ، أمر السماء ، وحاق بهم الهوان ، ونزل بهم الذل ، كما فعل بأشياعهم من قبل ، من أهل الكفر والشرك ، والنفاق والضلال .

وقف فى وجه الدعوة الاسلامية فى بادىء أمرها ، أهل الشرك والكفر ، وقفة الحاقد الناقم ، يبغون هدم هذه الدعوة الجديدة ، أو الحط من مكانة الرسالة الاسلامية ، أو التقليل من شأنها ، ليتحقق لهم ما يريدون .

خاصة : وأنهم وجدوا أتباع هذه الدعوة المحمدية الجديدة ، يزدهر شأنهم ، ويزداد عددهم ، وتقوى عدتهم ، وهم يشاهدون ذلك بأبصارهم ، ويلمسون حقيقته بأيديهم ، ولكنه الظلام المخيف الذى لا نور بعده .

انهم شاهدوا ذلك فاشتعل أوار الحقد فى قلوبهم ، واشتدت نيرانه فى أفئدتهم ، فما كان منهم الا أن سارعوا بالوقوف فى وجه الرسالة الاسلامية ، على الرغم من صدق الآيات ، ووضوح الحق الذى لا يتفق وأهواءهم :

((ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون(١))) .

انهم شاهدوا من الآيات الكريمة ما شاهدوا ، ولكن أعرضوا ، ولووا رءوسهم ، واستكبروا واستغنوا وكان عاقبة ذلك ، أنهم فكروا ، وقدروا ، ثم أسفرت النتيجة ، من بنات أفكارهم ، لا بد من الصمود ضد هذه الدعوة ، والوقوف فى وجه داعيها الأول ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

ذلك أن الاسلام حينما بدا ، كان العالم البشرى وقت ذاك مغمورا تحت جاهلية عمياء ، تائها فى دياجير الظلام ، حائرا بين تقلب الشرك ، وعبادة الأوثان ، حتى كل ساعده ، وأقعدت الرذيلة قوائمه ، وقوضت أضاليل الكفر دعائمه ، وعمت الفوضى معظم البلاد ، وأخذ الظلم يطفو ، الى أن اخذ مأخذه من قلوب الذين استحوذتهم الشياطين ، واستعبدتهم الأهواء ، واستشرى فيهم الفساد ، فضلت أعمالهم ، وتسفلت أخلاقهم ، وخاب سعيهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

على هذه الحال ، استمر العالم البشرى يتقلب من سيىء الى أسوأ ، ويتغير من قبيح لما هو أقبح ، ولم يزل مغلوبا على أمره ، جاثيا فى بؤرة الجهل والظلام ، محتضنا بين معترك الجاهلية الحمقاء يصارعها فتصرعه ، ويغالبها فتغلبه ، يطفو بآماله فيمد يده ، فلا يجد يدا تمتد اليه ، ويرسب أخرى ، حتى تنبسط فوقه صفحة اليأس فتحسبه من الهالكين .

وهكذا ظل العالم البشرى فى طياته رهن اشارة الفوضى ، يتخبط ويتشبث ، ويظهر ثم يختفى ، ويتحرك ثم يستكين ، حتى وهن

---

(١) المؤمنون آية :

عظمه ، واشتعل رأسه شيبا ، وابيضت عيناه ، واستحال أديمه ، ولم يبق بين الناس منه ، الا رأس يضطرب ، ويد تختلج .

على هذا الحال المخيف الرهيب ، ظلت المعركة قائمة بين الحياة والموت ، والرجاء واليأس ، والطمع والخوف ، والعـالم البشرى ممزق القوى ، حيران الفكر ، طائش اللب ، ضال السبيل ، معوج الصراط . لا يعرف للحياة وزنا ، ولا للهداية سببا ، ولا للاستقامة طريقا ، ولا للسعادة سبيلا .

ويصف الامام على رضى الله عنه ، ما كان عليه حال المجتمع وقت ذاك فيقول :

« أرسله (١) على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم ، واعتزام من الفتن وانتشار من الأمور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، واياس من ثمرها ، واغورار من مائها ؛

قد درست منارة الهدى ، وظهرت أعلام الردى ، فهى متجهمة لأهلها ، عابسة فى وجه طالبها ، ثمارها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف » أ هـ

حاجة المجتمع الى نور جديد :

يقول الله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهـدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم .

فى خضم تلك الظروف العصيبة التى سبق أن أشرنا اليها ، وفى قلب طيات سجلها المظلم المخيف ، عاش المجتمع الانسانى الأول ، وكان من البدهى أن يكون هذا المجتمع فى حاجة ماسـة لمن يخرجه من الظلمات الى النور ، ويهديه الى صراط الله المستقيم .

---

(١) الضمير هنا يرجع الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وشاءت الأقدار ، وأذنت ارادة الله سبحانه ، استخراج هذا المجتمع من هذا الظلام ، فأذن مؤذن القدر للاسلام أن يظهر ، فتنفس الصعداء ، وظهر الفجر يبرق ضياؤه ، ويملأ الكون شعاعه فانعكست الحيرة ، وسقط نجم سمائها ، وانطوى الظلم طى السجل للكتب ، وبدل الله خوف المجتمع أمنا ، واتصلت بالأرض رحمات السماء ، ومن الله على خلقه ، وألقى فى الناس روح البحر ، وبعث فيهم بعثه الالهى لأمره ، فتلألأت السماء ، بهجة وسرورا ، وأشرقت الأرض ضياء ونورا ، وابتسم الوجود ابتهاجا ، بقدوم من اختاره الله للعالمين رحمة ، فكان بالحق داعيا ، وللخلق مبشرا ونذيرا .

يقول سيدنا على كرم الله وجهه ، معبرا عن وصف ما ألم بالناس من حيرة وفتن ، حتى كشف الله عنهم بمبعث رسول من أنفسهم :

« بعثه (١) والناس ضلال فى حيرة ، وخابطون فى فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى فى زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل ، فبالغ صلى الله عليه وسلم ، فى النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا الى الحكمة والموعظة الحسنة » أ هـ

* * *

جاء الاسلام ولا سلطان عليه ، الا لله وحده ، وقام بدعوته السامية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، تنفيذا لقول الله سبحانه :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين (٢) » .

والاسلام فى نشأته هذه ، قام فى مجتمع لم يتكامل بعد ، كما ارادت سنة الله تعالى ؛ فما كان عليه الا أن يتولى تنظيم هذا المجتمع ، ويأخذ بيده الى التنمية والتقدم والارتقاء ، ويضع له القوانين ، ويرسم له السبل ، ويرفع عن أتباعه ما ضرب عليهم من

---

(١) الضمير فى « بعثه » يعود على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) المائدة آية : ٦٧

أسوار الظلم ، وحصار الجاهليــة ، ويرد عنهم بأس الذين ظلموا ، ويضع عنهم اصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم .

ويتولى كذلك : سلوكه ، كما يتولى عمله ، ويجمع فيــه بين الدين والدنيا فى توجيهاته وتشريعــاته ، ليوحد بين عالم الأرض وعالم السماء ، فى مجتمع واحد ، يعيش فيه الفرد ، كما تعيش فيه الجماعة .

من اجل هذه المبادىء الفاضلة ، جاء الاســلام يعرض فكرة جديدة كاملة لا اعوجاج فيها ، ولا انحراف بها ، ولا اضطراب معها ، ولا تعارض فيما بينها ولا تضاد .

انه جاء ليجمع بين القوى والطاقات ، ويمزج النزعات والميول والرغبات ، حتى يحقق اتجاهاتها كلها ، ويعترف بها وحدة متكاملة فى الكون ، والنفس ، والحياة .

انه جاء ليحقق الجمع فى النظام الكونى ، بين الأرض والسماء .

انه جاء ليحقق الجمع فى النظام الدينى بين الدنيا والآخرة .

انه جاء ليحقق الجمع فى النظام الانسانى بين الروح والجسد .

انه جاء ليحقق الجمع فى نظام الحياة بين العبادة والعمل .

انه جاء ليحقق كل ذلك ، ويسلكه بأجمعه فى طريق واحد .

انه الطريق الالهى الخالص لله وحده :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) »

جاء الاسلام وكان لا بد وان يحقق هذا ، ولكن شاء الله سبحانه ، أن يكون للحق أعوان ، وللباطل اخوان ؛ لهذا قوبلت دعوة الاسلام الجديدة ، منذ بدايتها ـ كمــا سبق أن ذكرنا ـ بايذاء الداعى

---

(١) الانعام آية : ١٥٣ .

الأول ، والمعارضة الشديدة ، ضد هذا الرسول المبشر المنذر ، صلى الله عليه وسلم .

وصدقت مشيئة الله ، وأبى الله الا أن يتم نوره ، ويؤيد رسوله ، وينشر الحق الواضح ، الذى كل ما عداه باطل ، و « كتب الله لأغلبن انا ورسلى » . فارتفع صوت الحق مدويا ، وانتشرت الأنوار منه تشع في أرجاء المعمورة ، واحق الله الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكتب الله العزة له ولرسوله وللمؤمنين .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (١) »

وجاء الحق وزهق الباطل ، وسبقت كلمة العذاب ، وحقت الغلبة ، وحاق الذل ، ونزل الهوان ، بأعداء الله ورسوله ، وأعداء الاسلام والمسلمين ، من كفار ، ويهود ، ومشركين ، ومنافقين .

حقت الغلبة على هؤلاء ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، على الرغم مما كانوا عليه من كثرة فى العدد ، وقوة فى العدة ، ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم ولوا مدبرين .

واستطاع صلوات الله عليه وسلامه ، بتأييد الله له ، وبصدقه الصادق فى تبليغ دعوته ، أن يطوى سدفة ظلام الشرك ، وضلال الفكر ، ويقضى على فتن طال مداها ، وعم خطرها ؛ كما استطاع صلى الله عليه وسلم ، أن يبدد عقائد الشرك ، ويقضى على وسائل الفساد والفسق ، ويطهر القلوب من أوهام الجاهلية ، ويثبت دعائم الأخلاق التى بعث ليتممها :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

واخذ صلى الله عليه وسلم ، يكافح ويناضل ، فى سبيل الدعوة ، وهو يواصل سيره الطويل ، يدلى بالحجة تارة ، ويلين للموعظة اخرى .

---

(١) المنافقون آية : ٨ .

ويصور الامام ابن كثير جهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى سبيل دعوته فيقول :

« استمر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يدعو الى الله تعالى ، ليلا ونهارا ، وسرا وجهرا لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد .

يتبع الناس فى أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم ، وفى المواسم ومواقف الحج ، يدعو من لقيه ، من حر وعبد ، وضعيف وقوى ، وغنى وفقير ، جميع الخلق فى ذلك عنده شرع سواء » أ هـ

وحقا انه استمر صلوات الله وسلامه عليه ، هكذا فى تبليغ دعوته ، ونشر رسالته ، حتى ذهب الظلم أدراج الرياح ، بلا رجعة ، وولت عادات الجاهلية ذاهبة ، وبادت خصال الشرك والكفر خاسئة متحسرة .

وأتت الأفواج من الناس سراعا لدين الله الجديد من كل فج ، ودنت العشائر والقبائل خاضعة اليه من كل صقع ، فاتسعت مجالات الدعوة ، وارتفعت معمعة الحق تجوب دروب البلدان ، واعتنق الدين الاسلامى من العالم البشرى الكثير ، وأيقنوا بصدق ما جاءهم به هذا الدين من هدى ، وثبات ويقين .

وحدة العقيدة :

جاء الاسلام أول ما جاء وفى قرارة نفسه ، لابد وأن ينشر الفضيلة ، ويحقق السعادة للانسانية ، فرأى من لازم ذلك ، أن يحرر العقائد الى اتخاذ عقيدة واحدة ؛

يحرر العقائد من كل ما يشوب أصحابها من شرك وكفر ، ويحررها من كل ما يخالفها من الحاد ونفاق ، بل انه جاء ليحررها من كل عبادة غير عبادة الله وحده .

ذلك أنه وجد : أن كل ما عليه أن يدعو الى توحيد الله وحده ، ويبين للناس بطلان ما هم عليه ، وصدق ما جاءهم به ، فأخذ يرشدهم ويحثهم ، ويوجههم الى الايمان الكامل بالاله الواحد ، الذى لا يحول ولا يزول ، ولا يتغير ولا يتبدل ، لا يتغير بحال ، ولا يتبدل بالأحوال .

وما أصدق قول الامام على رضى الله عنه ، فى اثبات العقيدة لله وحده ، واعلام الناس ، بأن البقاء له وحده ، والفناء لكل ما عداه.

يقول رضى الله عنه :

« الذى لا يحول ولا يزول ، ولا يجوز عليه الأفول ، ولم يلد فيكون مولودا ، ولم يولد فيصير محدودا ؛

جل عن اتخاذ الأبناء ، وطهر عن ملامسة النساء ، لا تناله الأوهام فتقدره ، ولا تتوهمه الفطن فتصوره ، ولا تدركه الحواس فتحسه ، ولا تلمسه الأيدى فتمسه .

لا يتغير بحال ، ولا يتبدل بالأحوال ، ولا تبليه الليالى والأيام ، ولا يغيره الضياء والظلام ، ولا يوصف بشىء من الأجزاء ، ولا بالجوارح والأعضاء ، ولا بعرض من الأعراض ، ولا بالغيرية والأبعاض ، ولا يقال له حد ، ولا نهاية ، ولا انقطاع ولا غاية ، ولا أن الأشياء تحويه فتقله أو تهويه ؛ أو أن شيئا يحمله فيميله أو يعدله .

ليس فى الأشياء بوالج ، ولا عنها بخارج ، يخبر لا بلسان ولهوات ، ويسمع لا بخروق وأدوات .

يقول ولا يلفظ ، ويحفظ ولا يتحفظ ، ويريد ولا يضمر ؟

يحب ويرضى ، عن غير رقة ، ويبغض ويغضب من غير مشقة ؛ يقول لمن أراد كونه : « كن فيكون » .

لا بصوت يقرع ، ولا بنداء يسمع ، وانما كلامه ــ سبحانه ــ فعل منه ، أنشأه ومثله لم يكن من قبل كائنا ، ولو كان قديما ، لكان الها ثانيا » اهـ

على نفس ما جاء فى هذا النص الذى تحدث فيه الامام عن توحيد الله تعالى ، وتنزهه سبحانه ، واثبات البقاء له وحده ، كانت دعوة الاسلام الصارخة ، وصيحته المدوية ، الى تخليص الناس من عقائد الشرك والكفر ، والاعلان الواضح فيهم ، أنه ليس هناك اله غيره ، وما من سلطان فى الملك والملكوت غير سلطانه ، وما من أحد يملك من الضر والنفع شيئا ، أو يميت أو يحيى ، أو يعطى أو يمنع الا الله وحده سبحانه .

((ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا (١)))

((قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير ، انك على كل شىء قدير .

تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب (٢)))

ويقـول سبحانه :

((الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا .

واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا)) (٣) .

و ((تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير)) (٤) .

السموات والأرض ، ومن فيهن ، وما فيهن ، ملك ذلك كله ، خلقا وايجادا ، بقـاء (٥) وفناء ، استمرارا وزوالا ، منعا وعطـاء ، نفعا وضرا ... ملك ذلك كله : لله الواحد الأحد ، الذى تنزه عن الشرك والشريك ، والشبيه والنظير ؛

بل ان الكون كله ، وما فيه من أرض وسماء ، وما بين الأرض والسماء ... الخ ، له تعالى وحده .

---

(١) مريم آية : ٩٣ .

(٢) آل عمران آية : ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) الفرقان آية : ٢ ، ٣ .

(٤) الملك آية : ١ ــ ٤ .

(٥) ليس المقصود هنا بالبقاء : الدوام الأبدى ، وانما هو الاستمرار حتى يأتى أمر الله سبحانه .

« قل لمن مافى السموات والأرض ؟

قل : لله ، كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون .

وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم .

قل : أغير الله اتخذ وليا ؟ فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل : اني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين . قل : اني أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين ، وأن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير ، فهو على كل شيء قدير ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ، قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله ، شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ، ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله ءالهة أخرى ؟ قل : لا أشهد ، قل : انما هو اله واحد ، واننى برىء مما تشركون » (١) .

آيات بينات من كتاب مبين ، أثبتت يقينا ، أن الله سبحانه له ما فى السموات والأرض ، وأنه هو الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه ، وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات ، وهو الذى أرسل الرياح فتثير سحابا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، وهو الذى قسم الأرزاق ، وحدد الآجال ، وهو الذى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، وهو الذى خلق الخلق وجعل كل ما سواه عبيدا ، ليس لهم الخيرة من أمرهم ، ولا فى أمر غيرهم :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا اله الا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم واليه ترجعون » (٢) .

---

(١) الأنعام آية : ١٢ ـ ١٩ .

(٢) القصص آية : ٦٨ ـ ٧٠

على ضوء هذا التوحيد الخالص ، وعلى نفس هذه العقيدة المنزهة ، جاء القرآن هاديا الى عقيدة واحدة ، بل وجاء الاسلام كذلك محررا العقيدة معلنا فى الناس أيضا أن مرد ذلك لله وحده ؛

مرد ذلك لله الخالق لكل شيء ، والمظهر لكل شيء ، والواحد الأحد الذى ليس معه شيء .

يقول سيدنا على كرم الله وجهه ، فى موعظة له :

« ... فالله الله أيها الناس فيما استحفظكم من كتابه ، واستودعكم من حقوقه ، فانه سبحانه لم يخلقكم عبثا ، ولم يترككم سدى ، ولم يدعكم فى جهالة ولا عمى ؛

قد سمى آثاركم (١) ، وعلم أعمالكم ، وكتب آجالكم ، وأنزل عليكم الكتاب تبيانا لكل شيء ، وعمر فيكم نبيه أزمانا ، حتى أكمل له ولكم – فيما أنزل من كتابه – دينه الذى رضى لنفسه ، وأنهى اليكم على لسانه محابه من الأعمال ، ومكارهه ، ونواهيه وأوامره ، والقى اليكم المعذرة ، واتخذ عليكم الحجة ، وقدم اليكم بالوعيد ، وأنذركم بين يدى عذاب شديد .

فاستدركوا بقية أيامكم ، واصبروا لها أنفسكم ، فأنها قليل فى كثير الأيام التى منكم فيها الغفلة والتشاغل عن الموعظة ، ولا ترخصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة ، ولا تداهنوا فيهجم بكم الا دهان على المعصية » ا هـ

وصدق رضى الله عنه ، لأن الله هو الله فى كل شيء ، وهو الواحد الأحد الذى ليس معه شيء ، وهو الفرد الذى لا شريك يعاونه ، ولا شبيه يماثله ، ولا ضد يعانده . وصدق الله العظيم اذ يقول :

« اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » (٢).

ويقول سبحانه :

« فاعلم أنه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم متقلبكم ومثوايكم » (٣) .

---

(١) بين أعمالكم وحددها لكم .

(٢) طه آية : ١٤ .

(٣) محمد آية : ١٩ .

والقرآن الكريم غاص بمثل هذه الآيات ، ولهذا تنـاول الرد فى أتم اقناع ، وأبلغ حجة ، على الذين يجعلون مع الله آلهة اخرى ؛ واثبت لهم أن الله هو الاله الواحـد فى السموات وفى الأرض ، يعـلم سرهم وجهرهم ويعلم ما يكسبون .

وحـده لاشريك له :

يقـول الله تعـالى :

« وهو الذى فى السماء اله ، وفى الأرض اله ، وهو الحـكيم العليم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون ، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون » (١) .

آيات كريمة ، من قرآن عظيم ، دلت حقيقة أن الله واحد لاشريك له فى ملكه وملكوته ، فى السماء ، وفى الأرض ، بل انه اله واحد حكيم عليم ، له ملك السموات والأرض ، وعلم ما بينهما ، اليه المرجـع والمصير ، لا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شـــهد بالحق وهم يعلمون .

ثم أقام الاسلام الدليل ، واثبت الحجة ، على أنه واحد ، دون أن يكون معه آلهة أخرى ، فى السموات والأرض ، ومن فيهن ، فقال سبحانه :

« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (٢) .

ويقـول تعـالى :

« ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ، ولعلابعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » (٣) .

---

(١) الزخرف آية : ٨٤ ـ ٨٦ .

(٢) الانبياء آية : ٢٢ .

(٣) المؤمنون آية : ٩١ ، ٩٢ .

ثم برهن القرآن برهنة واضحة ، واستفاض استفاضة تامة ، فى أن تصرف الكون كله بما فيه ومن فيه ، لله وحده سبحانه ، فقال تعـالى :

« قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون .

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله قل أفلا تتقون .

قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجـار عليه ان كنتم تعلمونَ ؟

سيقولون لله ، قل فانى تسحرون » (١) .

ثم وجه القرآن الكريم الخلق ، وحثهم بالآيات حتى يفيئوا الى رشدهم ، ويستشعروا بقلوبهم ، أن سابغ النعم التى لا تحصى ، والمتفضل بعظيم احسانه الذى لا ينسى ، هو الله وحده ، المستوجب للحمد ، المستحق للثناء والشكر ، فقال سبحانه :

« قل الحمـد لله وسـلام على عبـاده الذين اصطفى الله خـير أما يشركون ؟

أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أءله مع الله ، بل هم قوم يعدلون .

أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالهـا أنهارا ، وجعل لهـا رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أءله مع الله ؟ بل أكثرهم لايعلمون .

أمن يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أءله مع الله قليلا ما تذكرون .

أمن يهديكم فى ظلمـات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، أءله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون .

---

(١) المؤمنون آية : ٨٤ ـ ٨٩ .

من يبدؤ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أءله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) .

وأسند القرآن الكريم ، ادخال ظلمة الليل فى ضـوء النهار ؟ وايلاج كل منهمـا فى الآخر ، وجعـل كل منهما سرمدا ، الى يوم القيامة . أسند القرآن الكريم ذلك كله الى الله وحده فقال :

« قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة ، من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟

قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيـامة ، من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ، أفلا تبصرون ؟

ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » (٢) .

ويقـول تعـالى :

« خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهـار ؟ ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار » (٣) .

ويعبر سيدنا على رضى الله عنه عن نسـبة هذا الكون كله وما فيه لله وحده فيقول :

« خلق الخلائق على غير مثال خلا من غيره ، ولم يستعن على خلقها بأحد من خلقه ، وأنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال ، وأرساها على غير قرار ، وأقامها بغير قوائم ، ورفعها بغير دعائم ، وحصنها من الأود والاعوجاج ، ومنعها من التهافت والانفراج .

أرسى أوتادها ، وضرب أسدادها ، واستفاض عيونها ، وخد أوديتها ، فلم يهن ما بناه ، ولا ضعف ما قواه .

هو الظاهر عليهـا بسلطانه وعظمتـه ، وهو الباطن لها بعلمـه ومعرفته ، والعالى على كل شيء منها بجلاله وعزته .

---

(١) النمل آية : ٥٩ – ٦٤ .

(٢) القصص آية : ٧١ – ٧٣ .

(٣) الزمر آية : ٥ .

لا يعجزه شيء منها طلبه ، ولا يمتنع عليه فيغلبه ، ولا يفوته السريع منها فيسبقه ، ولا يحتاج الى ذى مال فيرزقه .

خضعت الأشياء له ، وذلت مستكينة لعظمته ، لا تستطيع الهرب من سلطانه الى غيره ، فتمتنع من نفعه وضره ، ولا كفء له فيكافيه ، ولا نظير له فيساويه .

هو المغنى لها بعد وجودها ، حتى يصير موجودها كمفقودها »اه

بهذه التوضيحات الواضحة التى جاء القرآن الكريم بها ، والتى دلت على آثار رحمة الله تعالى على خلقه ، وبهذه العظات البالغة التى شرحها لنا الامام على رضى الله عنه ، ثبت يقينا : أن تصرف الكون كله ، وما فيه من أرض وسماء ، وبحار ، ووديان ، وليل ونهار ، و ... أمر ذلك كله خاص بالله وحده ، ومرده اليه سبحانه .

لهذا كان من ضرورة الايمان الضرورية بالله تعالى ، الرجوع اليه فى كل شيء ، والاذعان له وحده والتسليم المطلق لارادته ، والطاعة المحضة ، والاقتداء الحسن برسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وجه الاسلام الناس ، وأرشد القرآن الخلق الى اتخاذ عقيدة واحدة ، وحذرهم بالتالى كذلك أيضا ، عن تشبيه الله بخلقه ، وأن من شبه الله بتباين أعضاء خلقه ، وتلاحم حقاق مفاصلهم المحتجبة، لتدبير حكمته ، وعظيم قدرته ، لم يعقد غيب ضميره على معرفة الله سبحانه ، ولم يباشر قلبه اليقين ، بأنه لاند ، ولا ضد ، ولا شريك له ، ولا مثيل ؛

وكأنه لم يسمع تبرؤ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، ولم يسمع كذلك : تبرؤ التابعين من المتبوعين ، اذ يقولون :

« تالله ان كنا لفى ضلال مبين ، اذ نسويكم برب العالمين » .

هذه العقيدة الاسلامية : التى أرشد القرآن الكريم الناس اليها ، وأمرهم باعتناقها ، هى عقيدة التوحيد الخالصة لله سبحانه، انها عقيدة التجرد عن كل أنواع العبادة الى عبادة اله واحد ، انها العقيدة التى أنقذت الكثير من متاهات الجاهلية الضالة ،

وخلصت الأكثر من العادات السيئة التى استحوذت على القلوب ، واستهوت لفيفا من أفراد المجتمع الانسانى الأول .

انها العقيدة الاسلامية التى غزت الجاهلية فى عقر دارها ، وأخذت سيرها الى التقدم الارتقائى ، حتى أظهرها الله على كل ما عداها ، على يدى رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم .

انها العقيدة الاسلامية التى اختارها الله لخلقه ، وأحبها لنفسه ، واختتم بها كل ما سبق من الأديان السماوية قبلها .

لهذا ، فانه لا يتأتى لمسلم ، ولا ينبغى لعاقل ، أن ينتظر اتصالا جديدا من السماء بالأرض ، بعد أن اختتم الله الأديان بهذه العقيدة ، ولا ينتظر نبيا آخر بعد رسولها صلى الله عليه وسلم ، يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ولا كتابا جديدا يهدى الانسانية الحائرة الى سبيل الرشد والسعادة ؛

ولكن ينبغى لكل مسلم أن يعلم يقينا ، أن الله جلت قدرته ، ترك فينا كتابا لن يضل من بعده من اتبعه ، وشريعة لن يشقى من عمل بها لميعاده .

هذا الكتاب : انه المصدر الأول والمنهل العذب الذى تنهل منه هذه العقيدة الاسلامية ، وتستمد منه أول ما تستمد .

وما هذه الشريعة الا شريعة الاسلام السمحة الميسورة .

وما هذا الكتاب الذى لن يضل من بعده من اتبعه ، الا القرآن الذى يقول عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما أسند عن الحارث ، وأخرج الترمذى ، وروى عن على رضى الله عنه :

« ستكون فتنة ، قيل : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال :

كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر من بعدكم ؛

هو الفصل ليس بالهزل ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم .

من تركه من جبار قصمه الله ، ومن إبتغى الهدى فى غيره أضله الله ؛

هو الذى لاتزيغ به الاهواء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولاتلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ؛

هو الذى لم تنته الجن اذ سمعته عن أن قالوا :

« انا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا به » .

من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » ا هـ .

ويقول ابن عوف ، فيما رواه البخارى رضى الله عنهما :

« ثلاث أحبهن لنفسى واخوانى :

هذه السنة أن يتعلموها ، ويسألوا عنها ، والقرآن أن يتفهموه ، ويسألوا عنه ، ويدعوا الناس الا من خير (١) » .

ويقول الامام على رضى الله عنه أ

« اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لايغش ، والهادى الذى لا يضل ، والمحدث الذى لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحد الا قام عنه ، بزيادة أو نقصان ؛

زيادة فى هدى ، ونقصان من عمى .

واعلموا انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى ؛ فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينو به على لأوائكم ، فان فيه شفاء من أكبر الداء : وهو الكفر والنفاق والغى والضلال ؛

فاسألوا الله يه ، وتوجهوا اليه بحبه ، ولا تسألوا به خلقه .

انه ما توجه العباد الى الله بمثله ، واعلموا أنه شافع ومشفع ، وقائل ومصدق ، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة ، شفع فيه ، فانه ينادى مناد يوم القيامة :

« ألا ان كل حارث مبتلى فى حرثه ، وعاقبة عمله ، غير حرثة القرآن » ..

---

(١) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

فكونوا من حرثته واتباعه ، واستدلوه على ربكم ، واستنصحوه على أنفسكم ، واتهموا عليه آراءكم ، واستغشوا فيه أهواءكم » أ هـ

وعن مرة الهمدانى يقول : قال عبد الله :

« ان احسن الحديث كتاب الله ، واحسن الهدى ، هو هدى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وان ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين » (١)

وبعد ، فيقول الله تعالى :

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الي صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور » (٢) .

---

(١) رواه الامام البخارى رضى الله عنه .

(٢) الشورى آية : ٥٢ ، ٥٣ .



الفصل الثالث

دور الاسلام المثالى فى تحرير الشعوب

نشأ الاسلام فى بلاد مستقلة ، لا سلطان للملك عليها ، فلم يكن مضطرا أن يضيق دائرة عمله ، خشية سلطان عليه ؛ فهو سيد نفسه ، وميدان عمله هو الحياة البشرية كلها .

ولعل هذا كان من أبرز الدواعى — بعد ما اتسم به من حق وصدق — وأهم الأسباب التى جعلت الطريق أمام الاسلام معبدا ، وسبيله سهلا ميسرا ؛

وكان ذلك أيضا : هو السر السارى فى نجاح دعوة الاسلام ، وازدياد عدد المسلمين ، وارتقاء دعوتهم الى ما حققته من آمال ، وما وصلت اليه من أهداف .

فلا يحق لباحث أن يرتاب ، ولا يصح لصاحب بصيرة نفاذة ، أن يشك فى أن فكرة المجتمع الذى نشأ فيه الاسلام ، وقت مجيئه ، كانت منفصلة انفصالا كاملا ، عن الديانات الصحيحة السالفة ، كما هو واضح تماما فى نظمه التى كانت فوضى عارمة لا سراة لها ، ولا قوانين تضبطها ، حتى ابتعد المجتمع ابتعادا كليا عن العقيدة الصحيحة ، التى جاءت بها الرسل من قبل .

ورضى الله عن الامام على ، اذ يحدثنا عن فكرة المجتمع الذى نشأ فيه الاسلام ، وعن فكرة انفصاله عن الديانات الصحيحة السابقة فيقول :

« نسلت القرون (١) ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، الى أن بعث الله سبحانه محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لانجاز عدته (٢) ، وتمام نبوته ، مأخوذا على النبيين ميثاقه ، مشهورة سماته (٣) كريما ميلاده ، وأهل الأرض يومئذ ملل

---

(١) مضت متتابعة .

(٢) أن الله تعالى ، حقق ما وعد ، وكان وعده حقا .

(٣) يعنى علاماته التى ذكرت فى كتب الأنبياء من قبل .

متفرقة ، وأهــواء منتشرة ، وطوائف متشـــتتة ، بين مشـــبه الله بخلقه ، أو ملحد فى اسمه ، أو مشير الى غيره ، فهداهم به من الضلالة ، وأنقذهم بمكانه من الجهالة » اهـ

كانت حال المجتمع وقت نشأة الاسلام هكذا ، وشاءت ارادة الله سبحانه ، الا يترك خلقه همــلا بغير طريق واضح ، ولا علم قائم مستقيم ، فأكرمهم سبحانه وتعالى بفضله ، وأنزل فيهم كتابا مبينا لهم حلاله وحرامه ، وعبره وأمثاله ؛ مفسرا مجمله ، ومبينا غوامضه ، فكان لهذا الكتاب الفضل الأسبق فى تحرير شـعوب المجتمع من ربقة العبودية ، وفك أغلال الاستعباد من أعناق أتباعه ، الذين استولت عليهم الجاهلية بمبادئها الضالة ، وشقتهم بحيرتها المحيرة .

وكان الفضل أيضا : فى تحرير المجتمع وانقــاذه من حيرته ، وتبصيره بسبيل الهــداية والرشاد ، كان الفضـــل فى ذلك كله ، للرسول الأكرم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى اختاره الله لوحيه ، واختتم به جميع من سبقه من الأنبياء والرسل .

ولا ريب : أن ما نقرره اليوم عن الاســـلام فى بادىء أمره ، ليس بدعا نختلقــه ، أو تأويلا جــديدا ، نؤيد به حقيقــة ما ذكرناه عن الاسلام ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وانما ذلك : حق صادق ، ودليل قاطع يقرر بجلاء حقيقة الاسلام المباركة ، على ضوء ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفهمه أصحابه الأتقياء من بعده ، حتى ضحوا بالغالى والنفيس من أجله ، رضوان الله عليهم .

يقول سيدنا على رضى الله عنه :

« لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وســلم ، نقتل آباءنا ، وأبناءنا ، واخواننا ، وأعمامنــا ، ما يزيدنا ذلك الا ايمانا وتسليما ، ومضيا على اللقم ، وصبرا على مضض الألم ، وجدا فى جهـــاد العــدو .

ولقد كان الرجل منا ، والآخر من عدونا ، يتصاولان تصــاول الفحلين ، ويتخالسان انفسهما (١) أيهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا .

---

(١) يعنى أن كل واحد يريد أن يختلس روح الآخر .

فلما رأى الله صدقنا ، أنزل بعـدونا الكبت (١) ، وأنزل علينـا النصر ، حتى استقر الاسلام ملقيا جرانه (٢) ، ومتبوئا أوطانه .

ولعمرى لو كنـا نأتى ما أتيتم ، ما قام للدين عمود ، ولا أخضر للايمان عود ، وأيم الله ، لتحتلبنها دما ، ولتتبعنها ندما » اهـ

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

انه لمما يزيد من فهم الصحابة لهذا الدين وضوحا ، ما قاموا به من التضحية والثبات ، وراء دعوة الحق الذى كل ما عداه باطل ، وراء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى نشر دين جديد ، والذود عن هذه الدعوة الخالصة لله ، والدفاع المستميت ضد كل معتد آثم .

لقد وهبوا أنفسهم للقتال فى سبيل الله ، وباعوا أرواحهم بثمن هو الجنة ، وضحوا بأموالهم وأبنائهم ابتغاء كلمة الحق ، وارتفاعها عالية خفاقة ، حتى ساد الدين الاسلامى ، وعز وانتصر ، وكتب الله له العزة ولرسوله ، وللمؤمنين .

واننا لنـذكر ـ تشريفا بسـيرة هؤلاء ـ من النماذج الحية الرائعة ، ما تنكشف به الحجب ، وتزول الأقنعـة ، ويظهر لنـا واضحا طابع ايمان الذين وجلت قلوبهم ، فباعوا أنفسهم وأرواحهم فى سبيل الله ، دون أن تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله سبحانه :

من هذه النماذج نذكر ـ كما روت كتب السيرة ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استشار أصحابه يوما فى شأن القتـال ضد المشركين والكفار ، اختبارا لقوة ايمانهم ، وصدق اخلاصهم ، وثبات يقينهم ، وتبيانا لحبهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

فقام سيدنا ابو بكر الصـديق ، فقال : وأحسن ، وقام سيدنا عمر ، فقال : وأحسن ، ثم قام المقداد بن الأسود فقال :

« يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنوا اسرائيل لموسى :

(١) يعنى الدال والخذلان والانكسار .

(٢) يعنى التمكن والثبات .

« اذهب أنت وربك فقاتلا ، اننا ها هنا قاعدون ؛
ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون » .
وفى رواية أخرى للامام البخارى رضى الله عنه :

ولكن نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخلفك ؛ فوالذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى « برك الغماد » لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فقال له رسول الله خيرا ، ودعا له ، ثم قال رسول لله صلى الله عليه وسلم :

« أشيروا على أيها الناس » .

فقام سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال :

« والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم :

« أجل » . فقال سعد :

لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك ؛ فامض لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا .

انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله » .

ففرح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظهر السرور على وجهه ، وأعلن فى القوم بشائر النصر قائلا لهم :

« سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى بها احدى الطائفتين :

والله لكأنى الآن أنظر الى مصارع القوم » .

هكذا كان موقف الصحابة .

انه لموقف البطولة الرائعة ، والايمان الصادق ، والاخلاص المخلص ، والدفاع والذود ، بالأموال والأروح ، عن هذا الدين الحنيف ، والوقوف بجوار أشجع رسول ، وأكرم نبى صلى الله عليه وسلم .

انه لموقف الايمان القوى ، الذى لاتهمه الطعنة ، بل تزيده قوة .

انه لموقف الصحابة الأجلاء الذين استفاضت فى الثناء عليهم الأحاديث الشريفة .

ولبيان فضل الصحابة ، واقدامهم للدفاع عن هذا الدين ، نسرد من الأحاديث ما يوضح ذلك .

روى أنه لما عزم أبو بكر على تسيير جيش أسامة ، دخل عليه عمر ، وعثمان ، وأبو عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعد بن زيد ، رضى الله عنهم ، فقالوا :

يا خليفة رسول الله ، ان العرب قد انتفضت عليك ، من كل جانب ، وانك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئا ، اجعلهم عدة لأهل الردة ، ترمى بهم فى نحورهم ، وأخرى لا تأمن المدينة أن يغار عليها ، وفيها الذرارى والنساء ، ولو تأخرت لغزو الروم حتى يضرب الاسلام بجيرانه ، ويعود أهل الردة الى ما خرجوا منه ، أو يفنيهم السيف ، ثم تبعث أسامة حينئذ ، فنحن لا نأمن الروم أن تزحف الينا .

فلما استوعب أبو بكر كلامهم قال :

هل منكم احد يريد أن يقول شيئا ؟

قالوا : لا ، لقد سمعت مقالتنا . فقال :

« والذى نفسى بيده ، لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة ، لأنفذت هذا البعث ، ولا بد أن يرجع منه ، كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل عليه الوحى من السماء يقول :

« انفذوا جيش أسامة (١) ؟ » .

وعن عمر رضى الله عنه قال :

لما اجتمع المهاجرون وأنا فيهم حين ارتدت العرب ، فقلنا : يا خليفة رسول الله (٢) ، اترك الناس يصلون ، ولا يؤدون الزكاة ، فانهم لو قد دخل الايمان فى قلوبهم لأقروا بها .

فقال ابو بكر ، رضى الله عنه :

---

(١) أنظر كتاب « الجهاد فى الاسلام » لجامعة الأزهر .

(٢) وهو : أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

« والذى نفسى بيده ، لأن اقع من السماء ، أحب الى من ان أترك شيئا ، قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان أقاتل عليه » فقاتل العرب حتى رجعوا الى الاسلام .

فقال عمر :

« والذى نفسى بيده ، لذلك اليوم خير من آل عمر » (١) .

أما شجاعة سيدنا عمر رضى الله عنه ، التى من اجلها سمى الفاروق ، والتى من أجلها فرق الله به بين الحق والباطل ، فان الحديث التالى يحدثنا عنها تماما :

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :

ما علمت أحدا هاجر الا مختفيا ، غير عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فانه لما هم بالهجرة ، تقلد سيفه ، وحمل قوسه ، وأخذ فى يده أسهما ، وأتى الكعبة ، وأشراف قريش بفنائها ، فطاف سبعا ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلقهم ، واحدة ، واحدة ، فقال :

شاهت الوجوه ، من أراد ان تثكله أمه ، ويؤتم ولده ، وترمل زوجته ، فليلقنى خلف هذا الوادى ، فما تبعه منهم أحد » (٢) .

أما سيدنا عثمان رضي الله عنه ، وتضحيته الباسلة ، وكرمه الفياض فى سبيل الجهاد : فقد روت كتب السيرة ، أنه أنفق من أمواله الكثير ، فى تجهيز الجيوش ، ابتغاء وجه الله تعالى ، واعلاء كلمته ، حتى أنه جهز يوما جيش العسرة ، كما جهز يوما ثلث الجيش الذى بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى القبائل ، والى مكة ، فكفى ثلث ذلك الجيش مئونتهم ، حتى أن كان ليقال :

« ما بقيت لهم حاجة ، حتى كفاهم شق أسقيتهم ؛

ويقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال يومئذ :

---

(١) الجهاد فى الاسلام .

(٢) انظر كتاب « الجهاد فى الاسلام » .

« ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا » (١) .

اما شجاعة سيدنا على رضى الله عنه ، وشدة جراته ، وقوة اقدامه ، للجهاد فى سبيل الله ، فحسبه من الشرف الرفيع ، والرجولة الحقة ، أن باع روحه ونفسه ، وأقام مكان النبى صلى الله عليه وسلم ، ليلة الهجرة ، وهو على علم تام ، ويقين صادق ، أن الكفار والمشركين يريدون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحكموا أمرهم أن ينفذوا ذلك الليلة . ولكن عليا لم يمنعه ذلك أن يقوم مكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وينام على فراشه ، ليوهم المشركين ، ويسلم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وموقف آخر من مواقف سيدنا على رضى الله عنه ، يسجل له اسمى أنواع البطولة :

عن كعب بن مالك الأنصارى رضى الله عنه قال :

لما كان يوم الخندق ، خرج عمرو بن عبد ود ، معلما ليرى مشهده ، وهو مقنع بالحديد ، فنادى من يبارز ؟

فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال :

أنا لها يا نبى الله ، صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : انه عمرو ، اجلس .

ثم نادى عمرو ، الا رجل يبارز ؟ فجعل يؤنبهم ، ويقول :

أين جنتكم التى تزعمون انه من قتل منكم دخلها ؟ أفلا تبرزون الى رجلا ؟

فقام على رضى الله عنه فقال :

أنا يا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : اجلس .

ثم نادى الثالثة ، فقام على رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا .

---

(١) من كتاب : « الجهاد فى الاسلام » .

فقال : انه عمرو ، فقال : وان كان عمرا (١) ؛

فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمشى اليه ، وهو يقول :

انى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز
من ضربه نجلاء يبقى ذكرها عند الهزائز

فقال له عمرو : من أنت ؟

قال : أنا على .

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : أنا على بن أبى طالب .

فقال : يا ابن أخى ، من أعمامك ما هو أسن منك ، فانى أكره أن أهريق دمك ؟

فقال على رضى الله عنه :

لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك .

فغضب ، فنزل وسل سيفه ، كأنه شعلة من نار ، ثم أقبل نحو على رضى الله عنه ؛ مغضبا ، واستقبله على بحربته ، فضربه عمرو فى حربته فقدها ، واثبت فيها السيف ، وأصاب رأسه فشجه ؛

وضربه على رضى الله عنه ، على حبل عاتقه فسقط ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التكبير ، ثم أقبل على رضى الله عنه ، نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

هلا استلبت درعه ؟ فانه ليس للعرب دوع خير منها ؟ قال : ضربته فاتقانى بسوءته ، فاستحييت أن أسلبه » (٢) .

---

(١) قالها وهو يعلم أن عمرا ، هو من هو من شدة الكفر ، وغلظة الشرك ، وكراهيته الشديدة للاسلام والمسلمين .

(٢) أنظر كتاب « الجهاد فى الاسلام » .

ها هو جانب من جوانب شجاعة الامام على رضى الله عنه ، كما صوره لنا الحديث الرائع الجميل .

أما شهامة المقداد ، وشجاعته النادرة ، وبطولته الباسلة ، وجراته القوية ، فقد بلغ شأن ذلك عنده ، مبلغ الغبطة ، التى تمنى ابن مسعود — وهو من هو شجاعة وتضحية — أن يكون هو صاحبها .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

لقد شهدت من المقداد مشهدا ، لأن أكون صاحبه ، أحب الى مما يعدل به .

جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يدعو على المشركين ، فقال :

والله يا رسول الله ، لا نقول لك ، كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون .

نقاتل عن يمينك ، وعن يسارك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشرق ، وسر بذلك (١) »

أما موقف طلحة رضى الله عنه ، من الجهاد فى سبيل الله ، والتضحية القوية فى سبيل انتصار هذا الدين ، فانه موقف يمتاز بالشرف الرفيع ، والعزة الكريمة ، وحسبه تشريفا ، شهادة الصديق رضوان الله عليه ، فى حقه يوم أحد :

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان أبو بكر رضى الله عنه ، اذا ذكر يوم أحد قال :

ذاك يوم كله لطلحة ، رضى الله عنه ، ثم أنشأ يحدث فذكر الحديث وفيه :

فانتهينا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كسرت رباعيته ، وشج فى وجهه ، وقد دخل فى وجنته حلقتان ، من حلق المغفر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أنظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام »

« عليكما صاحبكما ، يريد طلحة رضى الله عنــه ، وقد نزف فذكر الحديث وفيه :

ثم أتينا طلحة رضى الله عنه ، فى بعض تلك الجفار ، فاذا به بضع وسبعون طعنة ورمية وضربة ، واذا قد قطعت اصــبعه ، فأصلحنا شأنه » (١) .

وأما شجاعة أسد الله ، وأسد رسوله ، حمزه بن عبد المطلب ، رضى الله عنــه ، فان الحــديث التالى يصور لنا جانبــــا حيا من جوانبهــــا .

عن الحارث التميمى قال :

كان حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه ، يوم بدر ، معلما بريشة نعامة ، فقال رجل من المشركين :

من رجل أعلم بريشة نعامة ؟

فقيل : حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه . قال :

« ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل » (٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، حمزة رضى الله عنه ، حين رجع الناس من القتال قال : فقال رجل :

رأيته عند تلك الشجرة ، وهو يقول :

« أنا أسد الله ، وأسد رسوله ؛

اللهم انى أبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ـ لأبى سفيان وأصحابه ـ وأعتذر اليك مما صنع هؤلاء من انهزامهم »

فسار رسول الله صلى الله عليه وســلم ، نحوه ، فلما رأى جبهته بكى ، ولما رأى ما مثل به ، شهق ثم قال :

ألا كفن ؟ فقام رجل من الأنصار ، فرمى بثوب :

قال جابر رضى الله عنه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) من كتاب : « الجهاد فى الاسلام » .

(٢) انظر : « الجهاد فى الاسلام » .

« سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة ، حمزة رضى الله عنه » (١)

أما الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، وباعوا انفسهم وارواحهم ابتغاء مرضاته ، واشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وصدقوا الله عهده ، فصدقهم الله وعده .

من هؤلاء الذين ربحت تجارتهم ، واهتدوا بهدى الله سبحانه ، انس بن النضر رضى الله عنه .

فعن انس رضى الله عنه قال :

عمى سميت به ، ولم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم بدر ، قال : فشق عليه ، وقال :

أول مشهد شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غبت عنه ، ولئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، قال : فشق عليه ، وقال :

فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم أحد ، قال :

فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فقال له انس رضى الله عنه :

يا أبا عمرو ، واها لريح الجنة ، اجده دون احد ، قال :

فقاتلهم حتى قتل ، فوجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة ، وطعنة ، ورمية . قال :

فقالت اخته ، عمتى الربيع بنت النضر ، فما عرفت أخى الا ببنانه ، ونزلت هذه الآية :

---

(١) أنظر : « الجهاد فى الاسلام » .

«من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » (١)

أما بطولة الأبطال الرائعة ، وتمنى الموت فى سبيل الله ، والحرص الحريص على الاستشهاد ضد العدو ، فان ذلك انما يتمثل فى سيف الله المسلول « خالد بن الوليد » رضى الله عنه .

فعن أنس بن حارثة رضى الله عنه قال :

لم يكن أحد أعدى للعرب من هرمز ، فلما فرغنا من مسيلمة وأصحابه ، أقبلنا الى ناحية البصرة ، فلقينا هرمز بكاظمة فى جمع ، فبرز له خالد ، ودعا البراز ، فبرز له هرمز ، فقتله خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وكتب بذلك الى أبى بكر الصديق ، فأعطاه سلبه ، فبلغت قلنسوته مائة ألف درهم ، وكانت الفرس اذا شرف الرجل فيهم ، جعلوا قلنسوته مائة ألف درهم » (٢)

وعن أبى الزناد قال : لما حضرت خالدا الوفاة ، بكى ، ثم قال :

لقد حضرت كذا وكذا ، زحفا ، وما بي فى جسدى شبر ، الا وفيه ضربة سيف ، أو طعنه رمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفى ، كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء » (٢)

أما الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واشتروا الدار الآخرة بالحياة الدنيا ، فمنهم الصحابى الجليل الذى غسلته الملائكة : « حنظلة بن أبى عامر » رضى الله عنه .

فقد روت كتب السيرة ، أن حنظلة بن أبى عامر ، ليلة أن أعرس بزوجته ، نودى بالجهاد فى غزوة أحد ، من ليلته ، فخرج مسرعا الى المعركة ، وأظهر ضروبا من البسالة والشجاعة والقوة ،

---

(١) أنظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام » — والآية رقم ٢٣ من سورة الاحزاب .

(١) أنظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام .

(٢) أنظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام » .

حتى أتاه سهم مفاجيء فاستشهد ، وبعد المعركة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لقد رأيت حنظلة بن أبى عامر ، تغسله الملائكة بماء المزن فى صحاف الفضة بين السماء والأرض » .

فذهب الصحابة اليه ، وهو فى القتلى ، فوجدوا شعره يقطر ماء فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال :

« اذهبوا الى زوجته فاسألوها ، فذهبوا اليها فقالت :

انه أعرس بى أول ليلة فقط ، ولما سمع الداعى الى الجهاد ، خرج مسرعا وهو جنب ، فرجعوا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه فقال :

« من أجل ذلك ، غسلته الملائكة » (١)

وموقف آخر من مواقف الشجاعة ، يدل على الايمان القوى ، واليقين الصادق ، والثقة الكاملة ، والحب التام لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

هذا الموقف الجاد ، يقصه لنا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فيقول :

« انى لواقف يوم بدر فى الصف ، فنظرت عن يمينى وشمالى ، فاذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أضلع منهما .

فغمزنى أحدهما فقال : يا عماه ، أتعرف أبا جهل ؟

فقلت : نعم ؛ وما حاجتك اليه ؟ قال :

أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذى نفسى بيده ، لئن رأيته ، لا يفارق وجهى وجهه ، حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك .

---

(١) انظر : « الجهاد فى الاسلام » .

فغمزنى الآخر ، فقال أيضا مثلها :

فلم يطل الوقت حتى نظرت الى أبى جهـل ، وهو يجول فى الناس ، فقلت :

ألا تريان ؟ هذا صاحبكم الذى تسألانى عنه .

فابتدراه بسيفيهما فضرباه ، حتى قتلاه ، ثم انصرفا الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه فقال :

أيكما قتله ؟ قال كل منهما : أنا قتلته ، قال :

هل مسحتما سيفيكما ؟ قالا : لا . قال :

فنظر النبى صلى الله عليه وسلم ، فى السيفين فقال :

كلاهما قتله ، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح ، والآخر معاذ بن عفراء رضى الله عنهما » (١)

هذه جولة عابرة حول النماذج الحية الرائعة التى ضربت الصحابة بها أروع ما سطرته الأقدار من شرف الصحبة ، واخلاصهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وحبهم الصادق لهذا الدين ، وايثارهم له ، على النفس والمال ، والجاه ، والبنين والبنات ، وفهمهم الوقاد لهذا الدين وتفانيهم الكلى من أجل تقويته ، والانصراف الصارف لهم عن كل شىء يخالف شريعته السماوية الغراء .

انهم تفانوا فى كل شىء ، رغبـة فى اعلاء كلمـة الله سبحانه ، وانتصـار دعـوة رسوله صلى الله عليـه وسلم ، وتحقيق العزة ، والكرامة ، والشرف ، القـائم على محبـة الله ورسوله صلى الله عليـه وسـلم .

انهم تفانوا رضوان الله عليهم ، فى كل شىء حتى أخذ الايمان القوى مأخذه العميق فى قلوبهم ، وسرت أشعته فى أجسامهم الطاهرة ، حتى كان الواحد منهم ، لا حرج عليه أن يقتل ــ فى بساطة ويسر ــ أباه ، أو ابنه ، أو عشيرته ، أو أهله ، اذا رغب عن الاسلام فى شىء أو عارض دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، عملا بقوله تعالى :

---

(١) انظر كتاب : « الجهاد فى الاسلام »

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو اخوانهم ، أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله ، هم المفلحون » (١) .

ولنذكر على سبيل البيان والتوضيح ـ كما روت كتب السيرة ـ

أن عبد الله بن عبد الله ، بن أبى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله !

انه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى ، فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلا ، فمرنى به ، وأنا أحمل اليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ، وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر الى قاتل عبد الله بن أبى يمشى بين الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار » .

« وهنا يضرب رسول الرحمة ، صلوات الله وسلامه عليه ، أروع مثل المكارم فى العفو ، وكظم الغيظ فيقول له :

« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

هذا قليل من كثير من الصور الجليلة التى سما فيها ايمان الصحابة ، عن العاطفة ، وحب العشيرة والقرابة ، حتى لا يكون فى ايمانهم دخل ، ولا فى حبهم خلل ، ولا فى صدقهم لله ورسوله شك .

لهذا نجوا ، ونجوا جميعا ، منذ أن وزن ايمانهم ونصرتهم للحق ، وحبهم له ، بميزان قوله صلى الله عليه وسلم :

« لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

حتى ولو كان المخلوق ، أبا أو أخا ، صديقا أو قريبا .

---

(١) المجادلة آية : ٢٢ .

هكذا كان طابع الرجال الذين لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولم تمنعهم أموالهم ولا أولادهم عن الجهاد فى سبيله ، حتى أكرمهم وكانوا هم السعداء فى الدنيا والآخرة .

ها هو ذا دور الصحابة الفعال نحو هذا الدين ، وفهمهم الوقاد لمبادئه ، الذى استوجب عليهم كل ما قاموا به ، وما قدموه من تضحيات شاقة ، وعمل دائب ، كما بينا ذلك فيما سردنا من نماذج .

الرسول المجاهد صلى الله عليه وسلم :

انه لمن يمن الطالع ، وسعادة الحظ ، أن نعود الآن الى فكرة تحرير الشعوب ، وأن الفضل فى ذلك انما هو للمبشر الأول ، والرسول المجاهد الأعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من كتاب كريم لا يأتيه الباطل من بين يديه و لامن خلفه .

أتى به صلى الله عليه وسلم ، الى هذا المجتمع ، وأخذ يعرفهم رسالة التوحيد الخالص ، على الرغم مما كانت تعج به العرب وقت ذاك ، من عناد الكافرين ، وتكذيب المشركين ، وصدور الاتهامات من المكابرين ، الذين حملوا على الاسلام ورسوله ، ووجهوا سهام الطعن ، وجادلوا بالباطل ، ليدحضوا به الحق الواضح الذى فيه الهداية والكفاية .

أتى صلى الله عليه وسلم ، على الرغم من ذلك كله ، ينذر فى الناس ويبشر ، ويخوف ويطمئن ، ويرهبهم ويرغبهم ، وظل وهو على حاله هذه يعمل ـ بكل جهد وطاقة ، وعين الله ترعاه وتحفظه ـ على اخراج الناس من ظلمات الكفر والشرك ، الى نور الايمان والحق ، ومن عبادة الأوثان الى عبادة الرحمن ، ومن طاعة الشيطان الرجيم ، الى طاعة الله الرحمن الرحيم .

واستمر صلوات الله وسلامه عليه ، يحث الناس ويرشدهم ، ويبين لهم أن الله تعالى ، أنزل عليه القرآن الكريم تبيانا ، ليعلم العباد ربهم اذ جهلوه ، ويقروا به اذ جحدوه ، ويثبتوه بعد اذ أنكروه .

وليعلموا أن الله تعالى ، قد تجلى لهم سبحانه فى كتابه ، من غير أن يكونوا رأوه بما أراهم من قدرته ، وخوفهم من سطوته ، وكيف محق من محق بالمثلات ، واحتصد من احتصد بالنقمات .

بهذه النصائح الرشيدة ، أخذ صلوات الله وسلامه عليه ، يحث الفكر ويوجهه ، ويرشد القلوب وينمى شعورها الكريم ، والشدائد الشديدة تعترض طريقه ، وهو يقابلها بصبر دائم ، وحزم جازم ، ويقين متيقن أن الله مؤيده وناصره .

استمر صلوات الله وسلامه عليه ، بهذه الثقة القوية ، يصارع الجبابرة ، ويرد بأس الظلم ، ويحارب عقائد الالحاد والفسق دون ملل أو فتور .

ويتحدث الامام على رضى الله عنه ، عن شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

« كنا اذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق ، ولقى القوم القوم ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب الى العدو منه .

قيل : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الكلام ، قليل الحديث ، فاذا أمر الناس بالقتال ، تشمر وكان الشجاع هو الذى يقرب منه فى الحرب لقربه من العدو » اهـ .

وصدق الامام على رضى الله عنه ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الرسول الشجاع المجاهد ، والنبى العابد المكافح ، الذى جاهد فى الله حق جهاده ، وأمر أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، ويؤمنوا به .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ،

ويؤمنوا بى ، وبما جئت به ، فاذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم ، وأموالهم ، الا بحقها ، وحسابهم على الله » (١) .

وفى رواية أخرى : عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها ، وحسابهم على الله »(٢) .

أعلن ذلك صلوات الله وسلامه عليه ، فى صراحة صريحة ، وهو على علم تام ، ويقين جازم أن ذلك مغضب لقومه ، مثير لشعورهم ، باعث الأسى فى نفوسهم ، ولكنها شجاعة الرسالة ، وجرأة النبوة ، وغيرة الرجولة ، ونصرة الحق ، أبت أن ترغب فيما سوى الله أبدا ، أو تجامل فى طاعته أحدا .

لم يحل بينه وبين ما يصبو اليه من تبليغ دعوته شىء من ذلك أبدا ، فظل ثابت القدم ، قوى الارادة ، لم يتغير لحالهم ، ولم يتأثر لقولهم .

بل انه سار فى جد جاد ، يثبت لهم ــ بما لديه من فصاحة لسان ، وبلاغة جنان ــ انه رسول الله اليهم ، اصطفاه الله لنفسه ، واختاره للناس رحمة ، أوحى الله اليه بما أوحى من الشرع ، وأنزل عليه القرآن ، لينذر به أم القرى ومن حولها .

ولكن : لم يستجيبوا له ، ولم يستروحوا نسمات ما دعاهم اليه ، وأخذتهم صيحة الاستكبار ، وقتلت فيهم الأنانية معانى الانسانية الراقية .

اذ كيف يكون هذا النبأ العظيم ، لرجل مثلهم ، لغته كلغتهم ، نشأته كنشأتهم ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

---

(١) رواه الامام مسلم رضى الله عنه .

(٢) رواه الامام مسلم رضى الله عنه .

« وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ؟ » .

زعموا الباطل ، وأصروا على الخبث ، واستكبروا عن الاستجابة له ، واجتمعوا فى ناديهم يتسامرون تعنتا منهم ، وكيدا لهذا النبى المرسل .

ويقص علينا الامام على رضى الله عنه ، طرفا من فحشهم فى القول ، وتعنتهم فى الطلب فيقول :

« لقد كنت معه صلى الله عليه وسلم ، لما أتاه الملأ من قريش فقالوا له : يا محمد !

انك قد ادعيت عظيما ، لم يدعه آباؤك ، ولا أحد من بيتك ، ونحن نسألك أمرا ، ان أجبتنا اليه وأريتناه ، علمنا انك نبى ورسول ، وان لم تفعل علمنا انك ساحر كذاب فقال صلى الله عليه وآله .

وما تسألون ؟ قالوا :

تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك . فقال صلى الله عليه وسلم :

ان الله على كل شيء قدير ، فان فعل الله لكم ذلك ، أتؤمنون وتشهدون بالحق ؟

قالوا : نعم . قال :

فانى سأريكم ما تطلبون ، وانى أعلم انكم لاتفيئون الى خير ، وان فيكم من يطرح فى القليب ، ومن يحزب الأحزاب ؛ ثم قال صلى الله عليه وآله :

« يا أيتها الشجرة ، ان كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر ، وتعلمين انى رسول الله ، فانقلعى بعروقك ، حتى تقفى بين يدى باذن الله » .

والذى بعثه بالحق ، لانقلعت بعروقها ، وجاءت ولها دوى شديد ، وقصف كقصف أجنحة الطير ، حتى وقفت بين يدى رسول الله صلى الله عليه وآله ، مرفرفة ، والقت بغصنها الأعلى على رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، وببعض أغصانها على منكبى ، وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله .

فلما نظر القوم الى ذلك قالوا : ـ علوا واستكبارا ـ فمرها فلياتك نصفها ، ويبقى نصفها ؛

فامرها بذلك ، فأقبل اليه نصفها ، كأعجب اقبال واشده دويا ، فكادت تلتف برسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالوا كفرا وعتوا :

فمر هذا النصف ، فليرجع الى نصفه ، كما كان ، فأمره صلى الله عليه وسلم ، فرجع . فقلت انا :

لا اله الا الله ، انى اول المؤمنين بك يارسول الله ، واول من أقر بأن الشجرة فعلت ما فعلت ، بأمر الله تعالى ، تصديقا بنبوتك ، واجلالا بكلمتك .

فقال القوم كلهم :

بل ساحر كذاب ، عجيب السحر ، خفيف فيه ، وهل يصدقك فى امرك الا مثل هذا ، يعنوننى » (١) أ هـ .

ها هم أولئك الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، لم يتدبروا الحق للحق ، ولم يستمعوا للنبى صلى الله عليه وسلم ، قاصدين الصدق ؛

انهم طلبوا منه ذلك لا لقصد الهداية والايمان ، وانما طلبوا منه ذلك : عنادا واستكبارا ، ظنا منهم أنه معجز له ومكذب ، ولما اسفرت النتيجة بتصديق النبى صلى الله عليه وسلم ، أصروا على انكارهم ، واتحدت كلمة الشر منهم ، وجزموا الرأى لا بد من التصدى لهذه الدعوة ، والصمود فى وجه صاحبها .

خاصة : حينما ادارك علمهم ، بأن اتباعها يزيدون يوما بعد يوم ، فازدادوا خبثا على خبثهم ، ولؤما على لؤمهم ، ففكروا ، وقدروا ان يواجهوا محمدا بالبأس الشديد ، لعله يكف عنهم ، أو يفيىء لرأيهم ، أو يعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، فيمسك لسانه ،

---

(١) انظر نهج البلاغة : للامام على رضى الله عنه .

ويملك نفسه ، عن كل ما آذاهم به ، وحقرهم ، وأبطل زعمهم ، وأفسد عقيدتهم .

كان هذا نتيجة ما فكروا فيه ، وما قدروا له أقدارهم .

وموقف آخر يشرح لنا خبث هؤلاء القوم ، واعراضهم عن الحق ، وتماديهم فى الباطل .

حدث أن عتبة بن ربيعة ، قال يوما ، وهو جالس فى نادى قريش ، والرسول صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد :

يامعشر قريش : ألا أقوم الى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم اليه فكلمه .

فقام عتبة اليه حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت : من البسطة فى العشيرة والكمال فى النسب ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

قل : يا أبا الوليد أسمع . قال :

يا ابن أخى ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .

وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك .

وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا .

وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل ، حتى يداوى منه » .

وعند ما فرغ عتبة من حديثه ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، يستمع منه ، قال :

لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى ؟ قال :

بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض اكثرهم فهم لايسمعون ، وقالوا : قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ... ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرؤها ، وعتبة منصت لها ، حتى انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم ، من قراءتها الى السجدة ، ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس اليهم قالوا :

ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

« ورائى انى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ؛ والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به » .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال :

هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدالكم » (١) أ هـ .

صور هذا الحادث موقف المعاندين الذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، رغم ما فيها من صلاح حالهم ،

---

(١) انظر « القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم » لشيخنا العارف بالله الدكتور عبد الحليم محمود .

وسعادتهم فى الدنيا والآخرة لو أطاعوه وآمنوا بما جاءهم به . ولكنها شقوة الكفر والشرك ، غلبت عليهم .

انهم لم تسجد جباههم للحق ، رغم أن هذه الدعوة أخذت مأخذ الجاذبية الساحره من قلب عتبة .

أنظر لقوله لهم حينما قالوا له : « ما وراءك يا أبا الوليد » فأجابهم قائلا

ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط . والله ماهو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة » أ هـ .

أثار شعور عتبة ، ما تلاه الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات حتى لم يسعه الا الصمت والسكوت عند سماعها الى أن سرت جاذبيتها فى جسمه ، واستولت على كيانه : ولكنه النور الالهى ، يقذفه الله سبحانه ، فى قلب من أحب من خلقه .

وهكذا شأن القرآن الكريم ، الذى لو أنزله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

أما الذين لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم لسماعه ، فانهم قوم ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .

لهذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم ينزل عن رأيه . كيف ذاك : وهو المعصوم الذى حفظه الله من أن يقع الذباب على جسمه ، أو يطأ قدم موضع ظله ؟

لم يفعل صلوات الله وسلامه عليه : شيئا من ذلك ، لأنه المعصوم، ولأن رسالته لم تكن لغرض شخصى ، نابعة عن ارادة نفسية ، وانما هى رسالة السماء ، موجهة الى عباد الله تعالى ، ليوحدوه اجلالا ، ويسبحوه تعظيما ، ويخلصوا له وحده ؛

فلا اللات ، ولا العزى ، ولا هبل ، ولا تعدد آلهة .

فلا عبادة الا للمولى ، ولا ربوبية الا للعلى الأعلى .

ويتحدث ربيعة بن عباد ، عما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى سبيل الدعوة الاسلامية فيقول :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الجاهلية ، فى سوق ذى المجاز ، وهو يقول :

« يا أيها النـاس ، قـولوا لا اله الا الله تفلحوا » . والنـاس مجتمعون عليه .

ويقـول ربيعة أيضا :

انه رآه يتبع الناس فى منازلهم ، يدعوهم الى الله ، فلمـا رأى المشركون أن الدعوة الاسلامية : تنتشر ، قاموا الى أبى طالب ، عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وانذروه بالحرب ، أن لم ينه ابن أخيه ويمنعه عن السير فى دعوته ، وبعث اليـــه أبو طالب ، فلما حضر قال له :

يا ابن أخى : ان قومك قد جاءونى ، وقالوا كذا وكذا ، فابق على وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيــق ، أنا وأنت ، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عمه خاذله : وأنه ضعف عن القيام معه ، فقال صلى الله عليه وسلم ، لعمه أبى طالب :

« والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فى طلبه » ا هـ

وأخذت صيحة الحق ترتفع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعلو ، حتى أخذ الايمان مأخذه الصادق من القلـوب ، وازداد المسلمون عددا ، وعدة .

فما من يوم الا وتأتى وجوه لله مسلمة ، وبوحدانيته مؤمنة ، ولخشيته سبحانه مذعنة ، تسير على هدى نبيه ، وتتبع النـور الذى أنزل معه .

دعوة النبى وشجاعته الأدبية :

قوى شأن الذين عرفوا صدق هذا الدين ، وعظم حرصـهم عليه ، خاصة وانهم رأوا فى نبيه صلى الله عليه وسلم العزوف الكلى والزهد التام ، فى الدنيا وما فيها من متاع أو نعيم .

يقول الامام على كرم الله وجهه فى زهده صلى الله عليه وسلم :

« قد حقر الدنيا وصغرها ، وأهون بها وهونها ، وعلم أن الله زواها عنه احتقارا ، وبسطها لغيره احتقارا ، فأعرض عنها بقلبه ، وأمات ذكرها عن نفسه ، وأحب أن يغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها ريشا ، أو يرجو فيها مقاما .

بلغ عن ربه معذرا ، ونصح لأمته منذرا ، ودعا الى الجنة مبشرا ، وخوف من النار محذرا » اهـ

شاهد العارفون هذا العزوف النبوى ، فما كان منهم الا أنهم أخذوا من النبى الكريم أ نموذجا حيا ، صالحا للدعوة قائدا للرسالة .

خاصة : وانه صلوات الله وسلامه عليه ، فوق ذلك كله ، انفرد بالشجاعة الأدبية ، واتسم بالسمات الخلقية ، والتضحية المؤثرة ، والفناء فى الفكرة ، والومضات الروحية والفكرية البارعة والبطولة الفذة فى شتى مناحى الحياة ، ومختلف مجالاتها ، لنشر رسالة الدعوة الاسلامية .

انهم رأوا فى النبى كل شىء جميل ، يرضى عقيدتهم التى استنارت بنور الاسلام : واهتدت بهديه عليه الصلاة والسلام ، فما كان عليهم ، الا انهم أيقنوا دون أن يتشككوا واعترفوا دون أن يرتابوا ، وآمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أن الذى يدعو اليه محمد كله خير ، بل هو فى أخلاق الناس حسن . يقول الشيخ « الألوسى » :

لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ، بمكة ، ودعا الى الاسلام ، بعث أكثم بن صيفى أبنه « حبيشا » فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقال لهم :

« ان ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره : وكتابه ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الاخلاق ، ويدعو الى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران وقد حلف ذووا الرأى منكم :

أن الفضل فيما يدعو اليه ، وأن الرأى ترك ما ينهى عنه » .

ثم نطق كلمته الرائعة ، التى حملت بين طياتها صورة طيبة ، وحقيقة مباركة ، لما دعا اليه هذا النبى :

« ان الذى يدعو اليه محمد : لولم يكن دينا ، لكان فى أخلاق الناس حسنا »(١) .

وصدق أكثم بن صيفى : فان دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لو لم تكن دينا ـ واستغفر الله من هذا الظن ـ حسبما زعم من زعم ، هى فى أخلاق الناس حسن ، وعمل متقبل » .

ذلك : أنه لم يدع الا لخير ، ولم يوجه الا لفضيلة ، ولم يرشد الا لسعادة تامة فى الدنيا والآخرة .

ومن هنا كان صلوات الله وسلامه عليه ، أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، كما صرح بذلك القرآن الكريم قائلا :

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... » (٢) .

أولى بهم من أنفسهم لأنه دعاهم الى الله وحده ، وعرفهم سبيل الوصول اليه ، وارشدهم الى ما يحقق لهم النجاة فى الدنيا ، والظفر بالسعادة فى الآخرة .

بخلاف ما تدعو النفس اليه من قبح وشر : وما تأمر به من الفحش والسوء ، وتزينه لصاحبها من العصيان والفجور ، مما يكون سببا للامر بمخالفتهما ، بل ومخالفة الشيطان والهوى .

« حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » .

ولله در القائل :

---

(١) انظر كتاب القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم ، لفضيلة شيخنا العارف بالله : الدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) الاحزاب آية : ٦ .

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وان هما محضاك النصـــح فاتهم

ومخالفة النفس عمل جليل الى أبعد الحدود ، فاذا ما وفق العبد اليه كان له أن يتخذ لنفسه هدفا يتناسب وحكمة وجوده .

والهدف الذى يتناسب وحكمة وجود الانسان ، انما يكون ، بالتزام :

((وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا)) .

فالشارع الحكيم : لم يأمر بالتزام ما أتى به الرسول ، واجتناب ما نهى عنه الا لأنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم ينطق عن هوى ، وانما هو وحى يوحى : فطاعته طاعة لله سبحانه وتعالى :

((من يطع الرسول فقد أطاع الله)) .

وفى الالتزام لما أتى به ، وفى الاجتناب لما نهى عنه ، استجابة لأمر الحق سبحانه ، وطاعة له تعالى ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه ، لم يأمرنا بشىء ، ولم ينهنا عن شىء الا لأنه :

((عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)) .

واذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، للعالمين رحمة وبالمؤمنين رءوف رحيم ، فان دعوته لا تكون الا كذلك ، لأنها دعوة الى الله ، والدعوة الى الله : ليس هناك دعوة أحسن منها :

((ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين)) .

وقصة هرقل عظيم الروم ، حينما دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ، تبين عظيم جمال دعوة الرسول صلى الله عليـه وسلم ، وحسن مأخذها من قلوب السامعين ، وسياسته الرشيدة صلى الله عليه وسلم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كتب الى قيصر يدعوه الى الاسلام ، وبعث بكتابه اليه مع دحية الكلبى ، وامره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يدفعه الى عظيم بصرى ليدفعه الى قيصر .

فلما جاء قيصر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال حين قرأه :

« التمسوا لى ها هنا أحدا من قومه ، لأسالهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قال ابن عباس : فأخبرنى أبو سفيان : أنه كان بالشام فى رجال من قريش ، قدموا تجارا فى المدة التى كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين كفار قريش . قال أبو سفيان :

فوجدنا رسول قيصر ببعض الشام ، فانطلق بى وبأصحابى ، حتى قدمنا ايلياء ، فأدخلنا عليه ، فاذا هو جالس فى مجلس ملكه ، وعليه التاج ، واذا حوله عظماء الروم ، فقال لترجمانه أ

سلهم أيهم أقرب نسبا الى هذا الرجل الذى يزعم انه نبى ؟ قال أبو سفيان :

فقلت : انا اقرب اليه نسبا . قال :

ما قرابة ما بينك وبينه ؟ فقلت :

هو ابن عمي ، وليس فى الركب يومئذ احد من بنى عبد مناف غيرى . فقال قيصر :

أدنوه ، وامر أصحابى فجعلوا خلف ظهرى عند كتفى ، ثم قال لترجمانه :

قل لأصحابه : انى سائل هذا الرجل عن الذى يزعم انه نبى ، فان كذب فكذبوه ! قال أبو سفيان :

والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابى عنى الكذب

لكذبته ، حين سألنى عنه ، ولكن استحيت ان يأثروا الكذب عنى ؟ فصدقته ؛ ثم قال لترجمانه :

قل له : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قلت :

هو فينا ذو نسب . قال :

فهل قال هذا القول احد منكم قبله ؟ قلت : لا . فقال :

كنتم تتهمونه على الكذب ، قبل ان يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال :

فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال :

فأشراف الناس يتبعونه ، أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم .

قال :

فيزيدون أو ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال :

فهل يرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . ونحن الآن منه فى مدة نحن نخاف ان يغدر . قال أبو سفيان :

ولم يمكنى كلمة ادخل شيئا ، أنتقصه به ، لا اخاف ان تؤثر عنى غيرها .

قال : فهل قاتلموه أو قاتلكم ؟ قلت : نعم . قال :

فكيف كان حربه وحربكم ؟ قلت :

كانت دولا ، وسجالا ، يدال علينا المرة ، وندال عليه الأخرى .

قال : فماذا يأمركم ؟ قال :

يأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ؛ وينهانا عما كان يعبد آباؤنا .

ويأمرنا بالصلاة ، والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، واداء الامانة .

فقال لترجمانه حين قلت ذلك له : قل له :

انى سألتك عن نسبه فيكم ، فزعمت أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال احد منكم هذا القول قبله ؟ فزعمت أن لا . فقلت :

لو كان احد منكم قال هذا القول قبله ، قلت : رجل يأتم بقول قد قيل قبله .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فزعمت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله ؛

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فزعمت أن لا ، فقلت :

لو كان من آبائه ملك ، قلت يطلب ملك آبائه .

وسألتك : أشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم ؟ فزعمت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم اتباع الرسل .

وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون ؟ فزعمت انهم يزيدون ، وكذلك الايمان حتى يتم .

وسألتك : هل يرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ فزعمت أن لا .

فكذلك الايمان حين تخلط بشاشته القلوب ، لا يسخطه احد .

وسألتك : هل يغدر ؟ فزعمت ان لا ، وكذلك الرسل لا يغدرون .

وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم ؟ فزعمت ان قد فعل ، وان حربكم وحربه ، تكون دولا ، ويدال عليكم مرة ، وتدالون عليه الأخرى . وكذلك الرسل : تبتلى وتكون لها العاقبة .

وسألتك : بماذا يأمركم ؟ فزعمت انه يأمركم ، أن تعبدوا

الله ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة .

قال :

وهذه صفة النبى قد كنت أعلم انه خارج ، ولكن لم أظن أنه منكم ، وان يك ما قلت حقا ، فيوشك أن يملك موضع قدمى هاتين ، ولو أرجوا أن اخلص اليه ، لتجشمت لقيــه ، ولو كنت عنده ، لغسلت قدميه . قال أبو سفيان :

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرىء فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم :

من محمد عبد الله ورسوله ، الى هرقل عظيم الروم ، ســلام على من اتبع الهدى .

أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، واسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، فان توليت ، فعليك اثم الأريسيين !

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ان لا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا ، اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون (١) »

قال ابو سفيان :

فلما ان قضي مقالته ، علت أصوات الذين حوله من عظمـاء الروم ، وكثر لغطهم ، فلا ادرى ماذا قالوا :

وامرنا فأخرجنا ، فلما ان خرجت مع اصحابى وخلوت بهم قلت لهم :

لقد امر امر ابن ابى كبشة ، هذا ملك بنى الأصفر يخافه ! قال ابو سفيان :

---

(١) آل عمران آية : ٦٤ .

« والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر ، حتى أدخل الله قلبى الاسلام وأنا كاره (١) »

سرت جاذبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، الى قلوب السامعين ، تهيمن على الكيان الانسانى ، وتغمر بنور ربها الجسد البشرى .

فيالها من براعة أخاذه ، ورغبة جذابه ، اشتملت على توحيد خالص لله ، واسترسال جامع لعوامل الألفة ، ويقين صادق ، واخلاص مخلص فى الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

انها دعوة الرسول الصادق التى أخذت صيحتها المدوية ، تشق أندرية الكفر ، وتفرق دواوين الشرك ، وتقوض دعائم النفاق والظلم ، وتبطل عبادة الأصنام ، وتوضح للناس : أن هذه الأصنام شرك كلها ، كفر جميعها ، الحاد ونفاق بأجمعها .

انها الدعوة التى بينت أن هذه الأصنام عاجزة ، لا تعطى ولا تمنع ، ضعيفة لا تقدر ، مغلوبة لا تغلب ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

انها الدعوة الالهية التى أوضحت فى وضوح واضح ، على لسان رسولها المجاهد ، ما ضرب الله به فى القرآن الكريم ، مثلا لبيان ضعف هذه الأصنام التى أخبر الله عن تمام عجزها بقوله :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله ، لن يخلقوا ذبابا ، ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا ، لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٢) » .

بين الله تعالى ضعف الأصنام وعجزها ، بل وسلب القدرة منها ، بأنها لا تستطيع أن تسترد ما سلب منها ، ولو كانت مجتمعة متعاونة ، عن طريق أضعف مخلوق أو أقله ، وهو الذباب مثلا .

---

(١) رواه الامام البخارى بسنده فى صحيحه ج ٤ ص ٥٤ ـ ٥٧ .

(٢) الحج آية : ٧٣ .

فكيف يتأتى لها ان تملك من النفع والضر شيئا ؟

فهى اذ ثبت عجزها عن ان تسترد ما سلب منها ، فهى فى نفع غيرها ، أو ضره ، أعجز ، وأعجز ؛

اذن فهى عاجزة أبدا ، مقهورة حتما ، مغلوبة على امرها لا غالبة .

بالعجز الدائم موصوفة ، وبالضعف القائم بها مقهورة ، فكيف يتصور أن تكون آلهة تعبد ؟

((انكم وما تعبدون من دون الله ، حصب جهنم أنتم لها واردون (١))) .

الاسلام يقضى على العادات السيئة ويحرر المراة :

عالجت الدعوة الاسلامية وقت مجيئها فى عموم شامل ، وفى شمول مطلق ، تحرير الشعوب وكافحت وناضلت حتى قضت على الكثير من العادات السيئة ، وخلصت العديد من المنكرات الفاحشة، وعملت عملها الجاد ، فى توجيه المجتمع الانسانى التوجيه السليم ، الذى يحض على التماسك والتآلف ، ويحث على التعاطف والتراحم بين أفراد المجتمع وأبنائه .

لهذا أرشدت الدعوة الاسلامية المجتمع ، لكى يعم السلام ، وينتشر الأمان ، ويتكافأ المجتمع الانسانى ، ويتساند بنيانه ، فتسود السعادة ، وتعم الفضيلة ، ويعيش الناس فى رخاء وهناء ، تقودهم عقيدة واحدة ، وتربطهم أخوة حانية ، ويجمعهم دين عام شامل ، فيه سعادتهم فى الدنيا ، وفوزهم الفائز فى الآخرة.

* * *

جاء الاسلام وحالة المجتمع على نحو ما سبق ان صورنا من الفوضى العارمة ، والرذائل المنكرة ، التى كانوا عليها ، كأن كان يباح عندهم للسيد ــ حسبما لديهم من زعم باطل ــ أن يقتل

---

(١) الانبياء آية : ٩٨ .

عبيده ، أو يعـذب خدمه ، لأنهم من نوع آخر غير نوع الســادة الأحرار ... الخ .

وكان كذلك عنـدهم : وأد البنــات فى التراب ، هـونا بهن ، وعاراً منهن ، وقتل الأولاد خشية الفقر والاملاق ، واعتقــاد أن الملائكة الذين هم عبـاد الرحمن اناثا ، واعتبـار المرأة نوعا من الحيوانات التى تباع وتشترى ، أو اعتبارها جزءا من المتاع الذى يتمتع به الرجل ، كما كان ذلك هو السائد فى القرون الســابقة ؛ وغير ذلك مما هو مخالف لشريعة الله ، ورسالة السماء .

فما كان على الاسلام الا انه انكر كل هذه العادات الماجنة ، بل انه أنكر كل شيء يخالف شريعة الله .

ثم اخذ يقرر الاسلام وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير، والمحيا والممات ، معلقا فى الناس أنه لا فضل الا للعمـل الصالح ، ولا كرامة الا للاتقى من عباد الله سبحانه :

((يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم (١)))

وحسبنا من انكار رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ، لهذه العادة ، ما روى عن المعرور بن سويد أنه قال :

رأيت أبا ذر رضي الله عنه ، وعليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فذكر انه ساب رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعيره بأمه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« انك امرؤ فيك جاهليــة هم أخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخــوه تحت يده ، فليطعمــه مما يأكل ، وليلبســه ممــا يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم (٢) » .

---

(١) الحجرات آية : ١٣ .
(٢) متفق عليه .

واشتد موقف الاسلام فى القضاء على كثير من العادات ، فأعلن الحرب الشعواء على الذين يأدون البنات فى التراب ، وعبر عن فعلهم الشنيع بقوله :

« واذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب الاساء ما يحكمون (١) »

وعن قتل الأولاد خشية الفقر والاملاق بقوله :

« ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرز قكم واياهم (٢) » .

ويقول سبحانه :

« ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان قلتهم كان خطأ كبيرا (٣) » .

وعن الذين جعلوا لله من عباده جزءا ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، عبر بقوله سبحانه وتعالى :

« وجعلوا له من عباده جزءا ، ان الانسان لكفور مبين ، ام اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ، ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، اشهدوا خلقهم ؟

ستكتب شهادتهم ويسألون (٤) » .

وكما الغى الاسلام هذه العادات الجاهلية ، ووبخ القائمين بفعلها ، فانه كذلك الغى كل ما كانت تعامل به المرأة ، وأخذ بيدها الى ان وضعها فى المكانة اللائقة بها التى لم يسبق أن وصلت اليها

---

(١) النحل ٥٧ ـ ٥٩ .
(٢) الانعام آية : ١٥١ .
(٣) الاسراء آية : ٣١ .
(٤) الزخرف آية : ١٥ ـ ١٩ .

فى اية شريعة من شرائع العالم ، سواء أكان ذلك فى قديم الزمان ، أو فى متوسطه ، أو فى حديثه .

كانت المرأة فى الجاهلية مستعبدة ، مسلوبة الحقوق ، بل انها كانت تعد من سقط المتاع ، للرجل الحق فى بيعها وشرائها ، والتصرف فيها ، كما يتصرف فى ماشيته ، وما يملك من أغنام .
ووصل شأنها قديما ، الى أن كان الرجل يكرهها على البغاء وان ارادت تحصنا ، ابتغاء عرض الحياة الدنيا ، وأن يعضلها عن الزواج ، ليذهب ببعض ما أتاها ، ويتزوج عليها كيفما شاء ، ومتى شاء ، دون حرج عليه ، أو مانع يوقفه عند حد .

قضت المرأة على هذه الحال سنين عدة ، لا تشعر بالاستقرار ، ولا يعد لها حساب ، ولا يعطى لها من المكانة ما يليق بها كأنثى ، حتى ظلت فى قلق دائم ، مهضومة الحق ، مهيضة الجناح ، سواء أكان ذلك فى بلاد العرب ، أو الفرس ، أو الرومان .

ينظر اليها على أنها لا ترقى بحال ، الى مستوى الرجل ، ولم تصل الى مكانته ، لا فى طبيعة تكوينها ، ولا فى مؤهلاتها ، التى تكون شخصيتها .

بهذا الانحطاط الخلقى ، كانت المرأة غارقة فى بحار من الجهل والظلام ، الى أن جاء الاسلام ، فكان لابد وهو يبنى مجتمعا جديدا قوامه الخلق الكريم ، والمروءة الفاضلة ، يقوم على التكافل الاجتماعي ، والتعاون الانسانى ، والعدل التام ، والمساواة المثلى ، فى الحقوق المقررة ، التى تعذ للمرأة حسابها ، وتحفظ كرامتها ، وتصون عرضها كأنثى ، فاعتد بالمرأة ، وعمل على استرداد حقوقها ، وما سلب منها من حرية ، وأثبت ما لها وما عليها ، كانسانة تحس كما يحس الرجل ، وتتألم كما يتألم ، نهى الاسلام عن تعضل المرأة عن الزواج قائلا :

« ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن »

وسبب نزول هذه الآية يبين النهى الاسلامى التام ، عن عضل المرأة عن الزواج ، كما ذكر المفسرون :

« كان أهل المدينة فى الجاهلية ، وفى أول الاسلام ، اذا مات

الرجل ، وله امرأة ، جاء ابنه من غيرها ، أو قرابته من عصبته ، فألقى ثوبه على تلك المرأة ، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فان شاء أن يتزوجها ، تزوجها بغير صداق ، الا الصدق الذى أصدقها الميت ؛ وان شاء زوجها غيره واخذ صداقها ، ولم يعطها شيئا ، وان شاء عضلها وضارها لتفدى منه بما ورثت عن الميت ، أو تموت هى فيرثها .

فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى ، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها يقال له : حصن ؛ وقال مقاتل :

اسمه قيس بن ابى قيس ، فطرح ثوبه عليها ، فورث نكاحها ثم تركها ، فلم يقربها ، ولم ينفق عليها ، يضارها لتفتدى منه بمالها .

فأتت كبيشة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت : يا رسول الله !

ان أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى ، وقد أضر بى ، وحول على ، فلا هو ينفق على ، ولا يدخل بى ، ولا هو يخلى سبيلى ؟

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله ، قال :

فانصرفت وسمعت بذلك النساء فى المدينة ، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلن :

ما نحن الا كهيأة كبيشة ، غير أنه لم ينكحنا الأبناء ، ونكحنا بنوا العم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » (١)

---

(١) انظر كتاب « أسباب النزول » للواحدى النيسابورى – ص ٨٤ – والآية ١٩ من النساء .

وحذر الله تعالى ونهى ، عن اكراه الفتيات على البغاء ان اردن تحصنا ، فقال سبحانه :

((ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا)) (١) .

ثم زاد الاسلام اهتمامه بالمرأة حتى قدر لها نصيبها فى الميراث ، بعد ما طال حرمانها منه ، فقال سبحانه :

((يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين)) (٢)

واتسعت دائرة الاهتمام الاسلامى بالمرأة ، حتى اعتد برأيها فى شريعته ، وأثبت العمل بشهادتها فقال :

((واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل وامرأتان)) (٣)

ثم حرص الاسلام على حقوقها المادية ، فأباح لها حرية التصرف فيما تملكه لنفسها ، والذى أخذته فى مقابل البضع ، حتى لا يحل للزوج قهرها عليه ، أو استرداده منها فقال :

((... وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وانما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا)) (٤) .

وزاد حرص الاسلام ، وقويت عنايته بالمرأة الى أن وضع حدا لتعدد الزوجات ، لا يصح بحال للرجل أن يتعداه ، وشرط لهذا التعدد العدالة التى تحفظ للمرأة حقوقها ، وتصون لها عرضها ، والا ... فواحدة . فقال سبحانه :

---

(١) النور آية : ٣٣ .

(٢) النساء آية : ١١ .

(٣) البقرة آية : ٢٨٢ .

(٤) النساء آية : ٢٠ ، ٢١ .

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » (١) .

وسما الاسلام بالمرأة ، حتى أوصى بها خيرا وحث على الاحسان اليها ، ولو كان فى الاحسان اليها تحمل الأذى منها .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه :

« استوصوا بالنساء خيرا ، فان المراة خلقت من ضلع ، وان اعوج ما فى الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » (٢) .

وعن عمرو بن الأحوش الجشمى ، رضى الله عنه ، أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم ، فى حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال :

« الا واستوصوا بالنساء خيرا ، فانما هن عوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك ، الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضربا غير مبرح ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ؛

الا ان لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ؛

فحقكم عليهن : أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن فى بيوتكن لمن تكرهون ؛

الا وحقهن عليكم ، ان تحسنوا اليهن فى كسوتهن ، وطعامهن » (٣)

قرر الاسلام ذلك للمرأة ، ولم يقف بها عند هذا الحد ، وانما أباح لها من الحقوق المدنية ، أن تمارس التجارة وأن تشتغل

---

(١) النساء آية : ٣ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

بالصناعة فى مختلف الحرف ، ومهام الأعمال ، ما دام ذلك محوطا بالضمانات الشرعية التى تحفظ عليها عفافها ، وتصون لها أنوثتها ، وتحافظ على كرامتها وعزتها .

والتاريخ الاسلامى حافل بالمثل النسائية العليا ، التى توضح المكانة الثقافية ، والأدبيــة ، والاجتماعيــة ، والأخلاقية التى احتلتها المرأة :

ولنضرب لذلك مثــلا : بأم سليم صاحبة المكانة المشــهورة ، والكرامة المأثورة ، والسيرة الحسنة .

فقد روى أن أم سليم رضى الله عنها ، قالت للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ! غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، نتلقى العلم عنك فيه .

فأجابها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووعدهن يوما .

وها هى السيدة أمينة بنت قيس الغفارية ، التى تعتبر نموذجا رائعا فى الجهاد ، والتى قدر الرسول صلى الله عليه وسلم جهادها ، وحسن بلائها فى غزوة خيبر .

وهذه أم عمار نسيبة بنت كعب ، التى تقاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم :

عن أم سعد بنت سعد بن الربيع ، رضى الله عنهما قالت :

« دخلت على أم عمارة رضى الله عنها ، فقلت لها : يا خالة ، أخبرينى خبرك . فقالت :

خرجت يوم أحد ، أول النهار أنظر ما يصنع الناس ، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى أصحابه ، والدولة والريح للمسلمين ، فلما انكشف المسلمون ، انحزت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمى عن القــوس ، حتى خلصت الجراح الى ــ قالت :

فرأيت على عاتقها جرحا أجوف ، له غور ، فقلت لهــا : من أصابك بهذا ؟ قالت :

ابن قمئة ، اقماه الله !

فلما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل يقول :

« دلونى على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا نجوت ان نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، رضى الله عنه ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضربنى هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو الله كانت عليه درعان » .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عنها :

« ما التفت يمينا ، ولا شمالا ، الا واراها تقاتل دونى » (١) .

وبلغ اهتمام الاسلام بالمرأة مبلغ العدل التام ، والاحسان المتفضل ، حتى سوى بينها ، وبين الرجل فى النواحى الروحية ، وفى الجزاء على الأعمال الصالحة . يقول سبحانه :

« من عمل صالحا من ذكر او أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون » (٢) .

والمراد بالعمل الصالح هنا ، ليس هو مجرد العبادات والتصرفات الأخلاقية فحسب ، وانما هو يشمل عمل المرأة ، وعمل الرجل فى الميادين الاصلاحية ، والمجالات الاجتماعية .

فصاحب العمل فى أى نوع : اذا أداه وأتقنه ، وأجاده كما يجب وعلى ما ينبغى ، كان هذا العمل ثمرة ناضجة ، صالحة لصاحبها فى الحياة الدنيا ، وحياة طيبة له فى الدار الآخرة .

وصدق الله العظيم اذ يقول :

---

(١) أنظر كتاب « الجهاد فى الاسلام »

(٢) النحل آية : ٩٧ .

((ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا))(١).

ويأمر الله تعالى عباده بالعمل ، ويرغبهم فيه ، ويحثهم عليه ، ويوجههم الى ما فيه صلاحهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، فيقول فى عموم شامل ، وفى شمول مطلق :

((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ، والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون))(٢)

والمعهود كما هو معروف ، أن الخطاب للرجال ، والنساء شقائق لهم ، يدخلن فيه ، ويشملهن معهم .

ويستجيب الله سبحانه ، دعاء من دعاه ، ذكرا كان أو أنثى ، ما لم يكن فيه اثم ، أو قطيعة رحم ؛

يقول سبحانه :

((فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم واوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثوابا من عند الله ، والله عنده حسن الثواب)) (٣) .

وغاية ما يمكن اجماله ان نقول :

ان الاسلام حقق السعادة الدائمة للانسانية فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، بالقضاء على كثير من العادات السيئة ؛ على أن تحقق هذه السعادة لم يكن بمجرد القضاء على العادات السيئة كما ذكرنا

---

(١) الكهف آية : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) التوبة آية : ١٠٥ .

(٣) آل عمران آية : ١٩٥ .

فحسب ، وانما حققهـــا بأسمى معانيهـا ، بما أتى به أولا من توحيد العقائد الى عقيدة واحدة فى الله وحده ، وبما أمر به أيضا ، وحث عليه ، ووجه اليه من أنواع العبادات والمعاملات التى أخفى الكثير من حكمها ، لأسرار يعلمها الله سبحانه ، وربما كان منهـا : أن يجد الانسان فى جميعها ، ويحرص على دوام العمل لينال عظيم ثوابها ، ولأجل أن يعطى نفســه الحظ الوافر من المواظبـة على الطـاعة ، والامتثال لأمر الله سبحانه ، دون علة ينتظرها ، حتى لا يفوته نيل ما أعده الله عليها من ثواب ، أو نعيم مقيم فى الدار الآخرة .

ونقلا عما رواه شيخنا العارف بالله تعالى ، الدكتور عبد الحليم محمود ، عن أسلافنا رضى الله عنهم قالوا :

« أخفى الرب أمورا فى أمور لحكم أ

ليلة القدر فى الليالى ، لتحيى جميعها ؛

وساعة الاجابة فى الجمعة ، ليدعو فى جميعها ؛

والصلاة الوسطى فى الصلوات ، ليحافظ على الكل ؛

والاسم الأعظم فى أسمائه ، ليدعى بالجميع ؛

ورضاه فى طاعته ، ليحرص العبد على جميع الطاعات ؛

وغضبه فى معاصيه ، لينزجر عن الكل ؛

والولى فى المؤمنين ، ليحسن الظن بكل منهم ؛

ومجىء الساعة فى الأوقات ، للخوف منها دائما ؛

وأجل الانسان عنه ، ليكون دائما على أهبة » (١) .

وبعد : فان الاسلام منذ أن جاء ليحرر الشعوب ، هدم ما كان

---

(١) انظر كتاب « شــهر رمضـــان » لفضيلة الدكتور عبـد الحليم محمود رضى الله عنه .

قبله من عادات سيئة ، وقضى على ما قضى من عقائد فاسدة ، حتى استطاع أن يبنى مجتمعا جديدا ، ملؤه العدل ، والاحسان ، وثماره الفضيلة والسعادة ، وتجارته انتشار الأمن والخير ، وربحه الاستقرار ، والحب ، والاطمئنان ، والسلام .

ونختم هذا الفصل الذى نحن بصدده بما رواه الامام مسلم رضى الله عنه ، لما فيه من مناسبة طيبة ، وحقيقة عن الاسلام مباركة .

عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ابن شماسة المهرى قال :

حضرنا عمرو بن العاص ، وهو فى سياقة الموت ، فبكى طويلا ، وحول وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول :

يا أبتاه ! أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟

أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بكذا ؟ قال :

فأقبل بوجهه ، فقال :

ان أفضل ما نعد ، شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، انى قد كنت على أطباق ثلاث :

لقد رايتنى وما أحد أشد بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم منى ، ولا أحب الى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته ، فلو مت على تلك الحال ، لكنت من أهل النار ؛

فلما جعل الله الاسلام فى قلبى ، أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت :

أبسط يمينك فلأبايعك ؟ فبسط يمينه ، قال :

فقبضت يدى ، قال : مالك يا عمرو ؟ قال . قلت :

أردت أن أشترط ؟ قال :

تشرط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لى . قال :

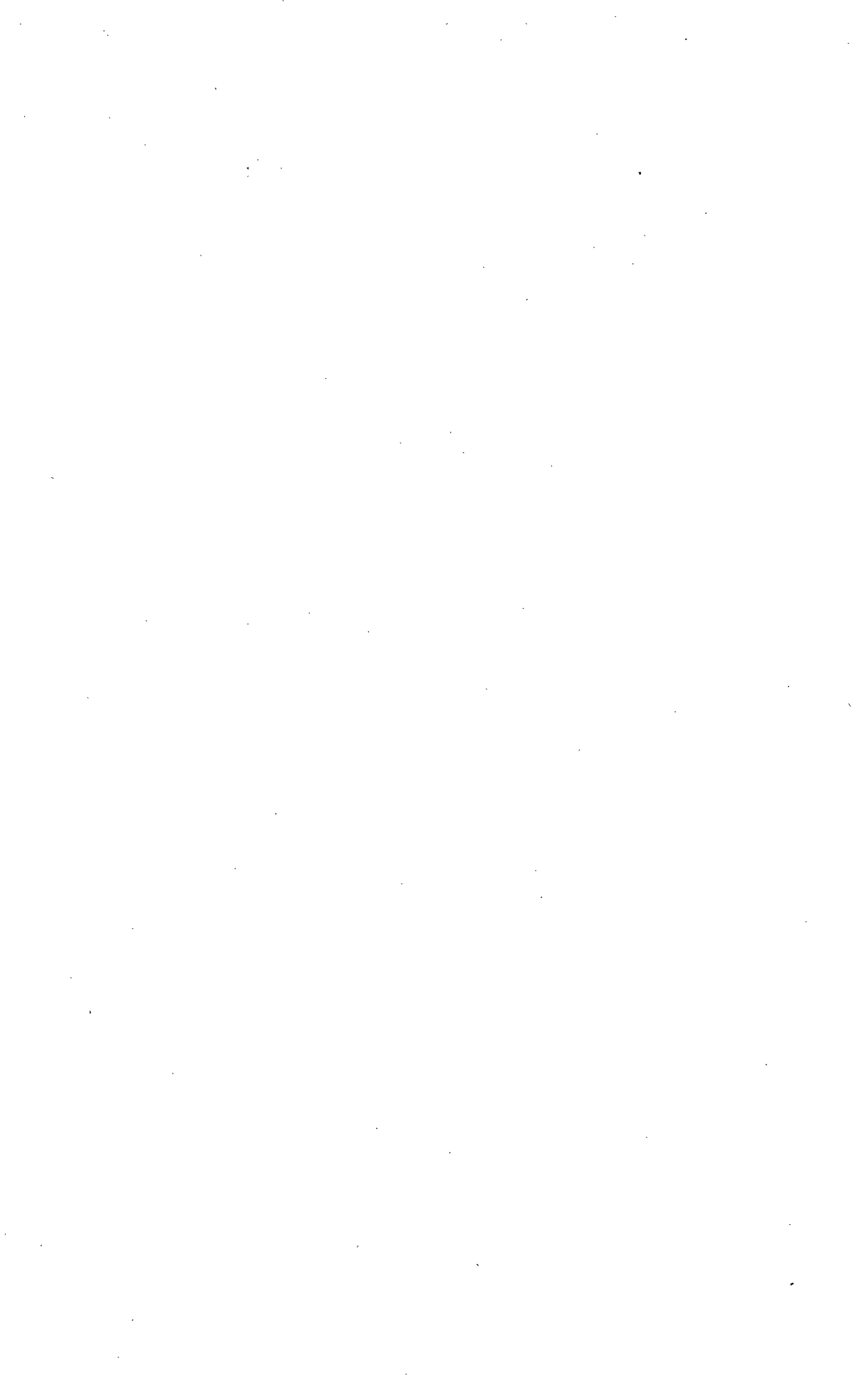
أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟

وما كان أحد أحب الى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجل فى عيني منه ، وما كنت اطيق ان أملأ عينى منه ، اجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ، لأنى لم أكن أملأ عينى منه ، ولو مت على تلك الحال ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم ولينا أشياء ، ما أدرى ما حالى فيها ؟

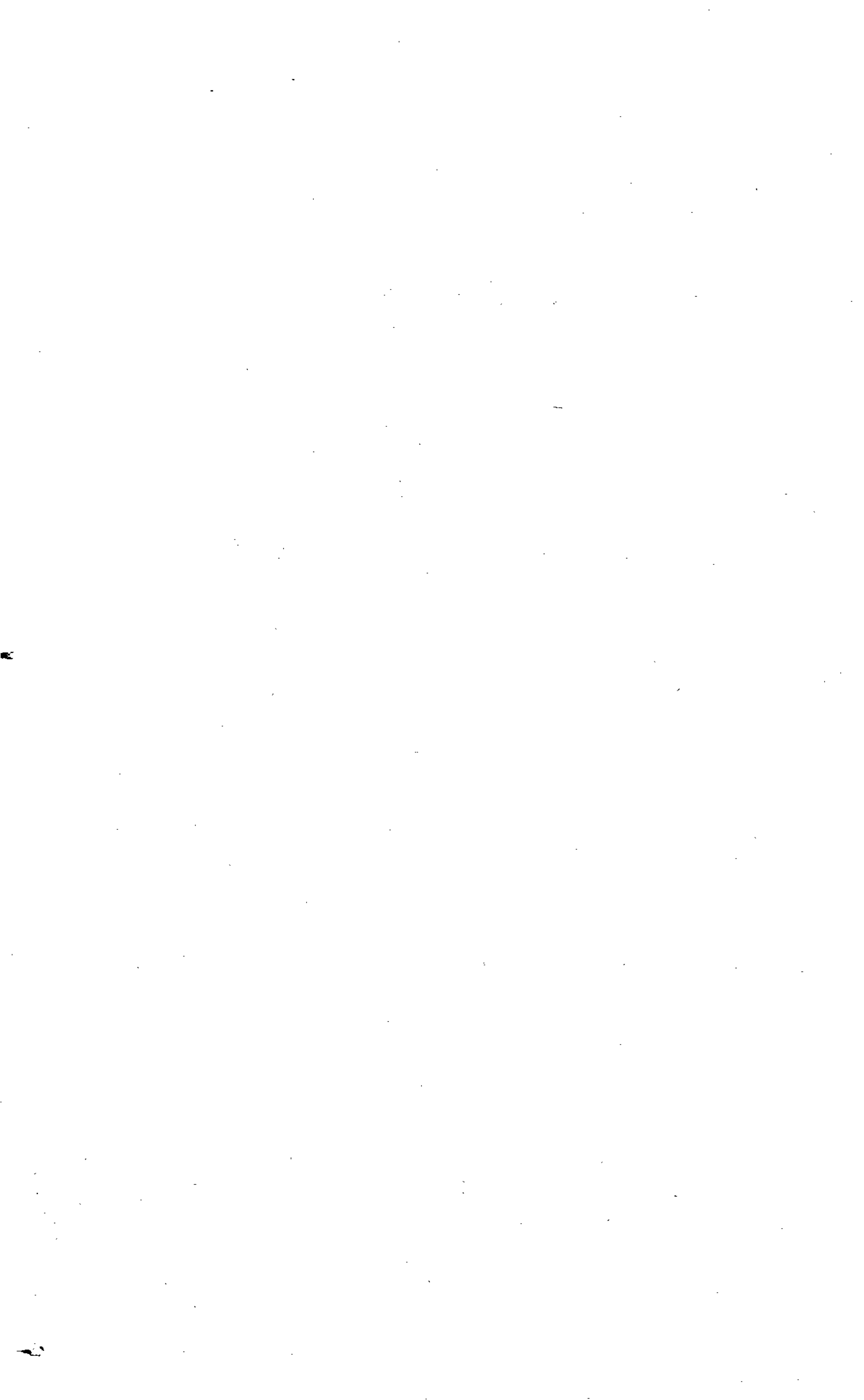
فاذا أنا مت فلا تصحبنى نائحة ، ولا نار ، فاذا دفنتمونى فشنوا على التراب شنا ، ثم اقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربى » (١) ا هـ

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه ، رضى الله عنه .



الباب الثّانى

- الاسلام بين الأمس واليوم
- شبهات مردودة
- الاسلام يساير العقل وينسجم مع واقع الحياة



الفصل الأول

الاسلام بين الأمس واليوم

بيان وتذكير :

يقول الله تعالى :

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم » (١) .

سبق أن ذكرنا أن الاسلام هو دين الله الخالد ، وحجته البالغة ، ورسالته الدائمة ، منذ أن بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأن هذه الرسالة المحمدية ، أيدها الله بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه لن يشقى من عمل به لميعاده ، ولن يضل من بعده من اتبعه .

وأن هذا الكتاب هو الدستور السماوى الذى صلح به حال الأمم ، منذ أن اختار الله الاسلام دينا لخلقه ، وارتضاه لهم شريعة بمحض ارادته ؛

وكان هذا الكتاب : عصمة لمن تمسك ، وهداية لمن اهتدى ، وسببا موصلا لمن قصد ؛ لأنه معصوم عن الضلال ، برىء من النفاق والشقاق ، محفوظ عن الزيغ والانحراف .

ولما كان القرآن الكريم وهو بهذه المثابة ، المرجع الأساسى للدين الاسلامى ، ومصدره القوى ، فان الاسلام كذلك ، دين معصوم ، عصمه الله منذ أن اختاره وارتضاه ، وقدره وكمله ، وقدر له كل ما يليق به من كمال .

---

(١) الانفال آية : ٥٣ .

لا سيما وانه دين قرر وحدة الاله الواحد ، واثبت التوحيد الخالص للخالق القوى الرازق ، وأبطل الشرك ونفى الكفر ، وأبعد الضد والند ، واثبت أن الله هو :

الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

اشتمل الاسلام على ذلك منذ مجيئه ، حتى استقر له الحال ، وتمكن به المقام ، واتسعت مجالات دعوته ، وعم عبيرها الخالد ، وآمن به المؤمنون ، وعلموا أنه الحق فأيدوه واتبعوه .

كان هذا فى الواقع : منذ قرون مضت ، منذ أن اخلص له اتباعه ، وساروا على نهج رسوله ، واتبعوا النور الذى انزل معه .

أما اليوم : فان حب الأمانة ، وصدق الحديث ، ألزمنى أن أقرر باخلاص ، حقيقة لا مناص عنها بحال .

تلكم الحقيقة ، هى :

أن الدين الاسلامى ، الذى ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مرارة الجهاد فى تقويم اسسه ، وأريقت دماء كثير من الصحابة فى سبيل نصرته ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من التضحية حتى كان منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، حتى اشتد أزره ، وقوى سلطانه ، وعز جاهه ، وسادت كلماته .

هذا الدين الذى أسسه الرسول الأعظم ، بكل ما له وما عليه ، وباع الكثير أرواحهم من اجله ، أصبح اليوم وقد خارت قواه ، ووهنت عظامه ، وحارت بين الهدى والضلال رسالته ...

ولا عجب ... فاننا اليوم فى غفلة تامة عن كتاب الله سبحانه ، واعراض كبير عن شريعة السماء ، واستخفاف شرير بمبادىء هذا الدين الاسلامى ، وانحراف منحرف عن طريق الله المستقيم ، وضلال مضل عن هدى الله القويم ، وابتعاد كلى عن نهج من أرسله الله رحمة للعالمين .

ذلك : أننا اليوم وضعنا الدين فى الجوانب ، واستبحنا المنكرات المرذولة فى الأندية والشوارع ، واستخففنا بالقيم ، وضيعنا الكرامة ، ورفعنا بأنامل الفسق أستار الحياء ، حتى عمت الفتن المهلكة ، وانتشر الفساد الذى هو نارها الموقدة ، ووقع الفسق

والعار ، وعم النفاق والضلال ، وانتشر الخبث ، وتلطخت صفحات الحياة بالخزى والعار .

ذلك كله : حاصل بما أحدثناه بأعمالنا الآثمة ، وتتبعنا خطاه بأهوائنا المنحرفة ، وأظهرناه بآرائنا المغرضة الخاطئة .

يقول سيدنا على رضى الله عنه ، مبينا أن وقوع الفتن التى لها اثرها السيىء ، الذى تعم به البـلوى ، نتيجة منبعثة عن تتبـع الأهواء :

« انما بدء وقوع الفتن ، أهواء تتبع ، وأحكام تبتدع ، يخالف فيها كتاب الله ، ويتولى عليها رجال رجالا (١) ، على غير دين الله ؛

فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق ، لم يخف على المرتادين ، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل ، انقطعت عنه ألسن المعاندين ؛ ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث ، فيمزجان ، فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه ، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى » أ هـ .

وحقا ما أخبر به الامام ، فقد وقعت بنا الفتن منذ انحرافنا عن طريق الجادة والصواب ، والناظر فى مجتمعنا اليوم يجد تماما اننا فى حالة ضالة ، وشعور خبيث ، وقلوب مظلمة .

لا نفكر فى ديننـا ، ولا نحاول اصـلاح أنفسنا ، حتى ضللنا الطريق ، وتخلفنا عن ركب السلف الصـالح ، وتركنا كتاب الله تعالى ، وهجرنا سنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفهمناهما فهما معـوجا ، لا يتناسب مع جلال الله وعظمته ، ولا يتفق وقداسة رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى أنك لترى المسلم ، واليهودى ، والقبطى ، يتعاشرون سنين عدة ، فلا تستطيع أن تميز أحدهم عن الآخر .

الغالبية العظمى لا تدخل مسجدا ، ولا تقيم لله فريضـة ، ولا تحترم للاسلام شعيرة .

الكل يلهو ويلعب ، ويرتع ويتمتـع ، ويشرب الخمر ويأكل الربا ، ويهتـك الأعراض ويفعـل الزنا ، ويسب الدين ويتفنن فى الأذى .

---

(١) أى يستعين عليها رجال برجال

فتيات كاسيات عاريات فى الطرقات متبرجات ، مائلات مميلات فى الشوارع مبعثرات ؛ فهن للشيطان حبائل ، وللشهوات أماكن ، فلا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها .

وشباب مخنث متسكع ، للخلاعة منساقا ، وللمجون مسامرا ، وللانحراف مهللا ، وللريبة متذللا ، والى المنكرات منحرفا ، والى الموبقات متسابقا ، وللفجور منسجما ، وللفسق مشجعا ، وللسفاهة والحقارة مستأجرا ، وللأهواء والشياطين مستعبدا .

ويعبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، عن هذين الصنفين فيقول فيما رواه ابو هريرة رضى الله عنه :

« صنفان من اهل النار ، لم ارهما بعد :

نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، على رؤوسهن امثال اسنمة البخت المائلة : لا يرون الجنة ، ولا يجدن ريحها .

ورجال معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس » ا هـ

وغير هذا :

سفك للدماء يحدث ، وزهوق للأرواح من غير حل يحصل ، واختلاس للأموال ينتشر ، وحقوق للضعفاء تغتصب ، ورشوة فى الوظائف تؤخذ ، واستحلال للمحرمات يحصل .

أموال بالباطل تؤكل ، وحقوق لليتيم تهدر ، وعطف على الصغار يعدم ، واحترام للكبار يمنع .

قداسة للعلم اهملت ، وكرامة للعلماء أهينت ، واقتداء بالكتاب ترك ، وحرمة للسنة انتهكت ، وامانة على الأعراض ضيعت ، وصدق فى التجارة والتجار ، رفع ....

هذا وغيره ، من الأوضاع التى انقلبت بأصحاب الأهواء ، وغلبتهم شقوتها ، واضلهم زخرفها ، حاصل منتشر ، سائد فى المجتمع الذى انحرف اليوم بأتباعه ، وانحلت عرى الايمان من شبابه وفتياته .

ويصور الامام على كرم الله وجهه ، انقلاب الأوضاع عند أهل الزيغ والأهواء فيقول :

« ... آثروا عاجلا ، واخروا آجلا ، وتركوا صافيا ، وشربوا آجنا ؛ كأنى أنظر الى فاسقهم وقد صحب المنكر فألفه ، وبسىء به وافقه ، حتى شابت عليه مفارقه ، وصبغت به خلائقه ، ثم أقبل مزبدا كالتيار ، لا يبالى ما غرق ، أو كوقع النار فى الهشيم ، لا يحفل ما حرم .

أين القلوب التى وهبت لله ، وعوقدت على طاعة الله ؟

ازدحموا على الحطام ، وتشاموا على الحرام ، ورفع لهم علم الجنة والنار ، فصرفوا عن الجنة وجوههم ، واقبلوا الى النار بأعمالهم ، ودعاهم ربهم فنفروا وولوا ، ودعاهم الشيطان فاستجابوا واقبلوا » أ هـ

ان اخذه اليم شديد :

لهذه الحقائق المرة ، ولتلكم الصور المنحرفة البشعة ، التى ان دلت فانما تدل على قسوة قلوب أهل الأهواء ، وكلوح انحرافهم المنحرف عن طريق الجادة والصواب ، غضب الله علينا ، وسلط علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا .

فتكالبت علينا دول الغدر والبغى ، وتألبت بلاد الطغيان والظلم ، كل يريد القضاء علينا ، والتخلص منا ، وابتلانا الله ـ والعياذ به وحده ـ بحشرات الأرض ، تنزل من السماء ، وكأنها صواعق محرقة ، فأهلكت مزارعنا ، واتلفت محاصيلنا ، وجعلنا الله فى ضيق وفقر ، وبؤس وهم ، وشقاء وحزن ، وما ظلمنا الله ، ولكن الناس بمعاصيهم ، وسوء انحرافهم ، وفجور ظلمهم ، وضلال أهوائهم ، أنفسهم يظلمون .

فما أصابنا ما أصابنا الا بكثرة ذنوبنا وسوء اعمالنا (١) ؟ وما ابتلينا الا بشدة انحرافنا وضلال قلوبنا ، وما قصمنا بجبرنا الا بعد أن أمهلنا أدهارا طويلة ... ولئن أمهل الله الظالم ، فلن

(١) مصداق ذلك قول الله سبحانه : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » .

يفوت أخذه ، وهو له بالمرصاد ، على مجاز طريقه ، وموضع الشجى من مساغ ريقه ، ومحل القذى من عيونه .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه الامام مسلم ، عن ابى موسى رضى الله عنه :

« ان الله ليملى للظالم ، فاذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ :
« وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد » (١) .

ويقول الله تعالى :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

بهذا البيان الالهى الذى جاء به القرآن الكريم ، والذى جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، تبين : أن بهذا الفسق الفاسق ، وبهذا الانحراف المنحرف : استحل أهل الأهواء بزعمهم ما حرم الله ، وفسقوا بأهوائهم عن أمر ربهم ، حتى انتشر الفسق ، وعم البلاء ، وظهر فى البر والبحر الفساد .

يقول سبحانه :

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس (٢) » .

فلو أن الله تعالى ، اذن للجبال أن تدك ، وللأرض أن تبدل ، وللسماء أن تقع ، وللشمس أن تطمس ، وللجبار أن يأتى بالعذاب على الذين لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم للاستقامة، وتقوى الحق سبحانه ، لو أذن الله بذلك كله ، لكان منه عدلا .

ولو أنه تعالى ، أصاب الناس اليوم بما أصاب الأمم من قبل ، أو أخذهم بما اكتسبوا ، ولم يترك على ظهر البسيطة من دابة يستعين بها الانسان فى مهام حياته ، أو نعمة يسخرها فى قضاء مصالحه ، لكان ذلك كذلك من محض عدله ، ولكن سبقت رحمته فكان من عظيم عفوه :

---

(١) رواه الامام مسلم .
(٢) الروم آية : ٤١ .

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى .. (١) » .

ذلك أن الدنيا ازينت لأهل الأهواء والشهوات ، ففرتهم حتى صاروا يرتعون فى ملذاتها دون تدبر ، ويطيشون فى نعيمها دون تعقل ، وازخرفت لهم الى أن أعمتهم عن النظر فى الدليل ، وصرفتهم عن الاعتبار ، حتى انحطت فيهم الأخلاق ، وانعكست الآيات ، وانقلبت الأوضاع ، وضاعت الحقائق ، وفسدت العقائد ، وآثر الناس الشر على ما فيه من قبح ، على الخير بما فيه من فضائل ، وأصبحت الأديان العظمى اليوم بذلك كله ، فريسة المتمردين ، ولعبة المجرمين ، ولهو الآثمين ، وخدعة الماجنين ، وفتنة المنافقين ، وغرور المرائين الضالين .

بل انها أصبحت مهدا للحضارة المزيفة ، والمدنية المنحرفة ، ومصدرا للثقافة الخادعة ، ومسرحا للفوضى والانحلال ، وقاعدة للجبابرة الكهان ، ومحورا للجدل والخصام ، ووسيلة لترقى المناصب وعظم الجاه .

انهم ضلوا : حتى فقدت الأديان عندهم روحها ، وتغير شكلها ، واختلفت معالمها ، وضلت طرقها ، وتحيرت بين متاهات الجبن والضلال غايتها ، حتى لو بعث رسلها الأولون اليوم لم يعرفوها .

انهم ضلوا : حتى فقد العالم اليوم معالم الدين ، وتحير أمره بين الشك واليقين ، لا يستطيع أن يحمل للعالم رسالة صافية ، ولا للأمم دعوة سامية .

لا يملك من الدين السماوى شرعا صافيا ، ولا من النظام البشرى حكما قويا ، حتى ذهبت بالناس المذاهب ، وتاهت بهم الغياهب ، وخدعتهم الكواذب ، فصاروا كأنهم أشباح بلا أرواح ، وأرواح بلا أشباح ، ونساك بلا صلاح ، وتجار بلا أرباح ، وأيقاظ نوم ، وشهود غيب ، وناظرة عمياء ، وسامعة صماء ، وناطقة بكماء ، أخذ الباطل منهم مآخذه ، وركب الجهل فيهم مراكبه .

---

(١) فاطر آية : ٤٥ .

يقول الامام على كرم الله وجهه :

« أخذ الباطل مأخذه ، وركب الجهل مراكبه ، وعظمت الطاغية، وقلت الداعية ، وصال الدهر صيال السبع العقور ، وهدر فنيق الباطل بعد كظوم ، وتواخى الناس على الفجور ، وتهاجروا على الدين ، وتحابوا على الكذب ، وتباغضوا على الصدق .

فان كان ذلك ، كان الولد غيظا ، والمطر قيظا ، وتفيض اللئام فيضا ، وتغيض الكرام غيضا ، وغار الصدق ، وفاض الكذب ، واستعملت المودة باللسان ، وتشاجرت الناس بالقلوب ، وصار الفسوق نسيانا ، والعفاف عجبا ، ولبس الاسلام لبس الفرو مقلوبا » ا هـ

ورضى الله عن الامام على ، فقد أضحى الناس فى فتن اشتعل أوارها ، خاصة : وأن المسلمين اليوم انصرفوا عن الاسلام ، واتبعوا التقاليد العمياء ، والعادات السيئة .نباعا اقتدوا فيه بشياطين المدنية المزعومة ، ونزغوا فيه بنزغات الحضارة الغربية المدسوسة، حتى انك لتراهم يتشدقون بالأقوال الكاذبة ، ويتقلبون فى فتن انجذم فيها حبل الهدايه والرشاد ، بل أنك لتراهم . يخضعون لتعاليم هذه المدنية فى ذل ذليل ، الى أن اختلفت بهم الأصول ، وتشتتت الأمور ، وضاق المخرج ، وعز النصير ، وعميت المصادر ، وانتشرت المفاسد ، وخمل الهدى ، وشمل العمى : وعصى الرحمن ، ونصر الشيطان ، وخذل الايمان وانها ت دعائمه ، وتنكرت معالمه .

انهم أطاعوا الشيطان ، وسلكوا مسالكه ، ووردوا مناهله ، حتى أصبحوا على حالة لم يدعوا فيها لله محرما الا استحلوه ، ولا عهدا الا نقضوه ، ولا بيتا الا دخله ظلمهم : ولا ناديا الا حل فيه منكرهم .

بذلك كله : قامت فتنة طيشهم الطائش ، التى اجاد وسائلها المنكرة ، قوم أضلتهم الأمانى عن فهم الاسلام ، فهما يليق وقداسته،

والزمتهم طباعهم الخسيسة أن يدنسوا أعراضهم ، وأعراض من حولهم من أفراد المجتمع الذين لم يعيروا لهذا الخبث الخبيث التفاتا فيتجنبوه ، أو يقدروا للاسلام حرمة فيحترموا شعائره ، ففسقوا ، حتى أصبح الفسق اليوم فى الشباب ظاهرة منتشرة : والتخنث فيهم عادة مبتكرة ، وبذلك فتنوا فى أعراضهم وأموالهم وأولادهم ونسائهم ، وأصبحوا يمنون بدينهم على ربهم، ويستحلون الحرام بشبهاتهم .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« ان القوم سيفتنون بعدى بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون رحمته ، ويأمنون سطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة : والأهواء الساهية .

فيستحلون الخمر بالنبيذ ، والسحت بالهدية ، والربا بالبيع (١) » .

وصدق صلى الله عليه وسلم ، فالناس اليوم قتل فيهم حب الشهوات معانى الانسانية الراقية ، حتى جعلهم لا يفكرون الا فيما يغضب الله عز وجل ، ويرضى أهواءهم ، ولذلك غضب الله عليهم ، وحلت بهم نقمته ، « **ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى** » .

زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا ، وابتعدوا عن هدى نبيهم ، دون أن يتدارك أحد منهم : أن من مقدور الله سبحانه ـ فوق ما نزل بهم ـ أن ينزل عليهم من السماء آية ، تخضع أعناقهم ، أو يخسف الأرض بهم ، أو يسقط السماء كسفا عليهم .

« ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية ، فظلت أعناقهم لها خاضعين (٢) » .

---

(١) من حديث طويل رواه الامام على رضى الله عنه . انظر نهج البلاغة .

(٢) الشعراء آية : ٤ .

« أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ ان نشأ نخسف بهم الأرض ، أو نسقط عليهم كسفا من السماء ، ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب (١) » .

وهذا قليل من كثير مما أعده الله لمن أعرض عن آياته الكثيرة ، ولم يتبع هدى الله تعالى ، والايمان بما أمر به .

أنظر لفرعون : وهامان ، وقارون ، بل أنظر لقوم عاد ، وثمود ، وما نزل بهم من هلاك ثمود بالطاغية ، وعاد بريح صرصر عاتية .

يقول سبحانه ، عن هؤلاء ، وأولئك :

« فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟

وجاء فرعون ومن قبله ، والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم : فأخذهم أخذة رابية (٢) » .

وغير ذلك مما هو غاص به القرآن الكريم ، من آيات الزجر والردع ، والعقاب والتعذيب ، كما أنه غاص كذلك بآيات التبشير والرجاء ، والطمع فى الرحمة والغفران ، وفضل الله واسع يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وما من شك : ان القرآن الكريم يحدثنا فى صراحة صريحة ، وفى وضوح واضح ، أن الهلاك والدمار ، بل وضيق الحياة ، وضنك المعيشة : نتيجة منبعثة لا محالة ، عن عدم التدبر والاعتبار ، بما فى الكون من آيات الله سبحانه .

يقول سبحانه وتعالى :

---

(١) سبأ آية : ٩ .

(٢) الحاقة آية : ٥ — ١٠ .

« ومن أعرض عن ذكرى ، فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟

قال :

كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة ، أشد وأبقى .

أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم، ان فى ذلك لآيات لأولى النهى (١) »

بيان قرآنى حكيم . وانذار الهى عميق ، فيه الكفاية للمكتفى ، والرشاد الموصل الى الله لمن اهتدى ، ولكن أصحاب القلوب الميتة ، التى لا ينبثق منها الايمان ، يؤثرون حب الشهوات ارضاء لغرائزهم، ويحبون التشدق بالمفتريات والخزعبلات التى طالما اختلقوها اختلاقا ، لم يراعوا فيه لله حرمة ، ولا للاسلام شعيرة ، ولا للأخلاق الفاضلة قانونا ، حتى كادوا أن يقضوا على الفئة القليلة التى لا زال الايمان متغلغلا فى قلوبها ، ويجرى مع الدم حيث جرى فى عروقها .

بذلك عظم الجرم ، وأصبح مجتمعنا الاسلامى اليوم فى اشكال مشكل . بذر بذرته الخبيثة الاستعمار الغربى ، ودس فى أبنائه يده الصفراء ، التى لوث بها الكثير من الأعراض ، وأفسد بها الأكثر من الأخلاق ، منذ أن صدق الشباب والفتيات زعمه ، ودانوا بمبادئه ، واستجابوا لدعوته ، دون تأمل ، أو بحث فى مبادىء حضارته التى القاها عليهم ، بصورته الابليسية الخادعة ، فأخذتهم الى الانقياد له ، والاعجاب .

العمل الحتمى الجاد لتوجيه الفتيات والشباب :

اننا اليوم وقد استبانت حقائق انحراف أفراد المجتمع : أصبح لزاما علينا أن نعمل بكل ما نملك من جهد وطاقة ، حتى نوقظ هذا

المجتمع من سباته الطويل ، ونأخذ بيده الى التمسك بسياج الدين الاسلامى المنيع .

ونضرع الى الله أولا ، أن يمدنا بعونه ، وأن يرزقنا رشده ، وأن يمنحنا القوة التى نستطيع معها القضاء على تيار هذا الانحراف ، الذى وصل زحفه بالشباب الى مواطن الخسة ، والذى أصبح عندهم ، وكأنه المحور الأساسى الذى يرتكز عليه كل من رغب التطور الارتقائى المزعوم .

ولأجل أن نستطيع العمل ضد هذا الانحراف ، فلا أقل من أن نهب أنفسنا للجهاد الطويل ضده : حتى تتهيأ لنا الفرصة الكاملة ، التى نحب أن نتملكها لاستغلال طاقاتنا ، وبذل جهودنا فى توجيه هذه الأفكار التى أخطأت تماما فى فهم الحضارة ، وان الاسلام يتنافى مع الحضارة والمدنية .

اذا ما فعلنا ذلك : فاننا نستطيع القضاء على هذه الأفكار ، وما أنتجته ضد مبادىء هذا الدين القويم .

والعمل الجاد المتواصل ، الذى نريد أن نقوم به تجاه هذا المجتمع ينحصر فيما يلى :

١ – ان هذه الأفكار الاستعمارية الحولاء ، ليس سبيلنا أن نبحث عن مصدرها فحسب ، وانما يجب علينا تماما ، أن نوجه المجتمع توجيها سليما يتفق وتنفيذ قوانين الشارع الحكيم .

والتوجيه السليم الذى يتفق وتنفيذ قوانين الشارع الحكيم ، انما هو التوجيه الى تقوى الله سبحانه وتعالى .

ذلك : ان تقوى الله سبحانه ، هى التقويم الكافى للعلاج الواقى ، الذى رسم الله طريقه بقوله :

« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون (١) » .

---

(١) الانعام آية : ١٥٣ .

بل أن تقوى الله سبحانه ، رأس الأمر كله ، وذروة سنامه .

وصراط الله المستقيم الذى أمرنا الله باتباعه ، طريق ميسور لكل مسلم ، شاق وعر على كل من عصى الله ، وكفر بأنعمه حتى أذاقه الله لباس الجوع والخوف بما صنع .

انه ميسور لكل مسلم أطاع الله سبحانه ، فيما أمر به ، وانتهى عن كل ما نهى عنه .

شاق وعر على كل من عصى الله فيما أمر به : أو نهى عنه كذلك فما على كل من رضى بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، نبيا ورسولا ، الا أن يجد فى سلوك هذا الطريق ، حتى يتغلغل الايمان فى قلبه ، وتتأسس عوامل التقوى فى فؤاده ، فينجو من كل هلكة ، ويسلم من كل فتنة .

ذلك : ان تقوى الله تعالى ، مفتاح السداد ، وذخيرة المعاد ، بل بتقوى الله سبحانه ، تكثر الأرزاق ، وتفيض الخيرات ، وتنزل الرحمات ، وتأتى البركات من قبل الأرض والسماء .

يقول سبحانه مبينا أن التقوى سبب ذلك كله :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (١) .

ويبين سبحانه ، أن التقوى كفارة للسيئات ، ومغفرة للذنوب فيقول :

« يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ، ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم (٢) » .

ويزيد الله تعالى شأن التقوى سموا ، حتى يؤتى الله صاحبها كفلين من رحمته ، ويجعل له نورا يمشى به ، ويغفر له ما سلف منه ، فيقول سبحانه :

---

(١) الاعراف آية : ٩٦ .

(٢) الانفال آية : ٢٩ .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم (١) » .

ويجعل الله تعالى ، التقوى مخرجا من كل مأزق ، وسعة فى الرزق من حيث لا يحتسب الانسان ولا يدرى ، فيقول تعالى :

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا (٢) »

ولما فى تقوى الله سبحانه من جمل هذه الفوائد ، كان الناس فى حاجة ماسة اليها ، وضرورية لها ، ولهذا كان التوجيه السليم الوحيد ، هو التوجيه الذى يوجه اليها .

٢ ـ ولأجل أن نوجه المجتمع التوجيه السليم المطلوب الذى أشرنا اليه ، يجب علينا أن نتحسس سيره ، ونتابع خطواته ، حتى ندرك على يقين ، علة ما به من مرض ، ثم نقدم له الدواء الذى يتناسب وقطع هذا الداء الخبيث ، دون أن يكون هناك لبس ، أو خفاء .

٣ ـ اذا أردنا أن نحقق ذلك فى سهولة ويسر ـ بعون الله تعالى ـ كان لا بد لنا من شرط ثالث ، وهو أن نكون على ثقة تامة ، ويقين صادق ، فى صحة ما نقدمه من علاج ، فلا يصح أن نطلب من أحد الايمان بهذا الدين قبل أن نؤمن به نحن أولا ، فان الايمان بالشيء فرع عن تصوره ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، كما هو المعروف دائما .

وصدق الله العظيم اذ يقول :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب افلا تعقلون (٢) » .

---

(١) الحديد آية : ٢٨ .

(٢) الطلاق آية : ٢ ، ٣ .

(١) البقرة آية : ٤٤ .

ولن يتحقق الايمـان فى الغير ، الا اذا تحقـق أولا فى الداعى المرشد ، اللهم الا اذا لاحظت الغير عناية الله سبحانه وتعالى .

والله سبحانه ، أطلق اسم المنافقين فى القرآن الكريم ، على الذين يقولون ما لا يفعلون ، وصرح بالمقت الكبير عنده على ذلك فقال:

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله ، ان تقولوا ما لا تفعلون (١) » .

ثم زاد القرآن بيـان سوء حال المنافقين تصويرا ، فبين أنهم استحقوا هذه التسمية بسبب ما انطوت عليه قلوبهم ، من مرض ودهاء ، واعتقاد أنهم يخـادعون الله ورسوله ، والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون .

بين القرآن حالهم ، وهم على ذلك كله فقال :

« ومن النـاس من يقـول آمنا بالله وباليـوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا انما نحن مصلحون ، الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .
واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم : انما نحن مستهزءون .

الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون .

أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين (٢) » .

---

(١) الصف آية : ٢ ، ٣ .
(٢) البقرة : آية ٨ – ١٦ .

ثم يعقب الله سبحانه وتعالى ، بضرب المثل بعد أن ذكر حقيقة حالهم ، زيادة فى التوضيح والتقرير ، وبيانا لاستحقاق عقوبتهم ، وسوء مجازاتهم فى الدنيا فقال :

« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما اضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون أ صم ، بكم ، عمى ، فهم لا يرجعون .

أو كصيب من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرون ، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ، ان الله على كل شىء قدير (١) » .

وحتى لا نقع فيما وقع فيه المنافقون ، شرطنا فى الداعى المسلم : الايمان الصادق بكل ما يقول ، والاخلاص المخلص لكل ما يدعو اليه ، ليكون قدوة صالحة ، كما نحب أن نقدمها ، وعمله عملا يرضى الله ورسوله ، **« انما يتقبل الله من المتقين »** .

فاذا ما تحقق ذلك : كانت كلمته نافذة ، ودعوته مؤثرة ، ورسالته موفقة ، لأخذ مكانها فى توجيه المجتمع ، وقيادة الانسانية .

واذا فعلنا ذلك : أخذ الايمان القوى ، مأخذه الراسخ فى قلوبنا ، وكان نصيبنا من هذا الجهاد ، النجاح فى كل خطوة نقدم عليها ، وعمل نقوم به ، ثم يظهر أثر ذلك واضحا ، فيما نقول ونعمل .

وكما ان شرطنا الايمان فى الداعى على نحو ما ذكرنا ، فان من شرط الداعى كذلك ، أنه لا يخشى فى الحق لومة لائم : فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ويلى ذلك من شروط الداعى أيضا ، معرفة الحياة نفسها ، والتمرن على دروبها ، وفهم أسرارها .

---

(١) البقرة آية : ١٧ – ٢٠ .

فان المؤمن الطيب القلب ، لن يستطيع أن يقوم بوظيفته فى الحياة ، التى يعيش فيها ، الا اذا عرف الحياة نفسها ، واتسعت احاطته بدروبها ومتاهاتها ، وأسرارها .

فاذا كان ساذجا ، أو قاصر النظر ، فسوف يغلب على أمره ، بل وربما يقف مكانه مقهورا .

وهذا أمر خطير ، لا يوصل الى غاية ، وربما يلقى بصاحبه فى مواطن الزلل ، ويطرحه فى مطارح لا يتوقعها .

أما المؤمن القوى ، الذى يعرف الحياة ، ويفهم أسرارها ، فهو وهى ، على طرفى نقيض .

ذلك : أنه لم يخلق لأجل أن ينـدفع مع التيـار فى الضـلال والأوهام ، أو يساير الركب البشرى الزاحف ، حيث اتجه وسار .

وانما خلقه الله سبحانه ، وجعله حر الفكر والعقيدة ، قوى العزم والارادة ، لأجل أن يوجه المجتمع نحـو عبادة الله وحـده ، وينتشله من أوضار الحضارة ، وترهات المدنية ، ثم يفرض على المجتمع ارادته ، بصفته أنه صاحب الرسالة فى الخلق ، والخلافة فى الأرض ، والتوجيه فى المجتمع .

فهو المسئول عن هذا العالم ، حتى يسود اتجاهه ، ويكون مقامه مقام الارشاد والتوجيه ، والمسئولية العظمى ، فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين مجتمع عاش فيه .

فاذا ما تنكر له الزمان ، وعصاه المجتمع ، وضاقت الحياة به ذرعا ، لم يكن له أن يخضع ويستسلم ، ويضع أوزاره ، بل عليه أن يجد فى ارشاده ، ويكثر من وسائل التوجيه له ، وأن يظل فى صراع دائم معـه ، وعراك طويل من أجـل تقـويمه ، حتى يفىء لنصحه ، أو يقضى الله فيه أمره .

أما الخضوع والذل ، فان ذلك للأحوال القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ــ قبل النفاذ ــ من شأن الضعفاء الأذلاء .

أما المؤمن القوى ، فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذى لا يرد .

ولأجل أن نكون أوفياء ، لا بد وأن نكون على أهبة الاستعداد والوقوف بالمرصاد أمام هذا الزحف الجارف ، زحف الشباب المنعكس ، زحف الفتيات المتبرجات ، زحف الحضارة المتملقة ، زحف المدنية الخادعة .

خاصة ، ونحن اليوم فى عهد أخذ الوعى الفكرى فيه ارتقاؤه العلمى الى الأمام الطويل ، خطوات فخطوات .

فمنا المؤمن النابه المتدين ، ومنا المسلم الفطن المتيقظ ، ومنا الدارس الواعى المتثبت ، ومنا العالم العبقرى المنتج ، ومنا المستقيم الاجتماعى المتحضر ؛ ... ومنا الحافظ لكتاب الله الكريم المتفقه ، ومنا المتمكن الأمين على سنة النبى صلى الله عليه وسلم .

ولو أن هذه الفضائل ، أخذت بيد بعضها البعض متماسكة متعاونة ، لاستطاعت لا محالة ؛ النهوض بالأمة الاسلامية ، والسمو بأفرادها الى ذروة الكمال المنشود ، ولاستطاعت أن تخلص الشباب والفتيات كذلك من كل باطل مشوب ، ولكتب الله سبحانه وتعالى ، للأمة الغلبة ، على من سواها ، على ممر السنين والأيام ، ومحق الذل والهوان كل من عاداها من أهل الانحراف والزيغ والأهواء . وكان لها فى النهاية الفوز والنجاة ، والقيادة الرشيدة التى تأخذ بيد أبناء الاسلام الى الفضائل المرجوة ، والمثل العليا الاسلامية ، والا لما كان لشىء من ذلك معنى ، فان قيمة الشىء فيما يصدر عنه من نتائج .

وبعد : فيقول الله تعالى :

« فلولا كان من القرون من قبلكم اولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، الا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ، وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (١)

---

(١) هود آية : ١١٦ .

الفصل الثانى

شـــــبهات مردودة

يقول الله تعالى :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » (١)

نشأ الاسلام فى بلاد مستقلة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ لا سلطان لأحد عليها ، من بنى الانسان .

نشأ فى مجتمع لم يتكامل بعد ، فما كان عليه الا أن يتولى تنظيم هذا المجتمع ويأخذ بيده ـ بالتوجيه ، والنصح ، والارشاد ـ الى عوامل التنمية والتقدم والارتقاء ، أيا كان نوع هذه التنمية ، وأيا كان نوع هذا التقـدم والارتقـاء أيضـا ، ما دام ذلك منوطـا بالشرف ، محصنا بالكرامة ، متسما بالسمو الأخلاقى ، الذى يرقى به الى فضائل المثل ، وذروة الأخلاق الكريمة .

لذلك وضع الاسلام للمجتمع قوانينه ونظمه التى تدير حركته ، وتنظم شئونه ، وتأخذ بيده الى الكمال الذى يصبو اليه ، والأمل الباسم الذى يجب أن يتوكأ عليه .

من اجل ذلك : اخذ الاسلام يتولى سلوك المجتمع ، ويتـابع سيره ، وعمله ، حتى استطاع أن يوحد ـ بما لديه من نظم وقوانين ـ بين عالم الأرض وعالم السماء ، فى مجتمع واحد ، يعيش فيه الفرد ، كما تعيش فيه الجماعة ، لا ينفصل فيـه النشاط العملى ، عن النشاط الدينى .

---

(١) هود آية : ١٨ ، ١٩ .

فلم يكن من صالح الاسلام اذن أو من مصلحة اتباعه ـ وهو على نشأته الجديدة هذه ، ووظيفته الحادثة تلك ـ أن يجعل أتباعه فى عزلة عن الحياة العملية الواقعة ، كما ظن ذلك قوم لا خلاق لهم .

فالاسلام لم يكن مضطرا أن يضيق دائرة عمله ، خشية سلطان عليه ، فهو سيد نفسه ، وميدان عمله هو الحياة البشرية ؛ كما أراد الله له ؛

فلو كان الاسلام فى عزلة عن الحياة بأصحابه وأتباعه ، كما يقولون : لما استقام هذا الدين الاسلامى ، ولا استقر له حال ، ولا نفذت له كلمة ، ولا استجيبت له دعوة ، ولا ارتفعت له راية ؛ وهذا مشاهد البطلان ، واضح الفساد ؛

اذ أنه ثبت يقينا ، استقامة الاسلام ، واستقرار حاله ، ونفاذ كلماته ، واستجابة دعوته ، وارتفاع رايته خفاقة عالية .

فلن يرتاب باحث مفكر اذن ، ولا يتأتى لناقد بصير ، أن يشك فى قداسة هذا الدين ، وأن فكرة المجتمع كانت واضحة فى شعائره ونظمه على السواء .

خاصة : وأن المجتمع كان فى حاجة ماسة ، وضرورة ضرورية ، لهذا الدين ، وأن الفكرة القوية الشائعة فى كيانه : الأخذ بيد أتباعه نحو الكمال المنشود .

هكذا كان الاسلام ، وكذلك يكون أبدا ، دون أن يكون ما نقول اليوم عنه كذبا نفتريه ، لأجل أن نكسبه صفات تسمو به ، وانما هو الاسلام بعينه ، كما فهمه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفهمه الصحابة الأجلاء من بعده ، رضوان الله عليهم .

ولكن على الرغم من صدق هذه الشهادة ، ووضوح أدلتها القوية ، فان من بدء الحياة حتى النهاية ، وهناك معركة قائمة بين الحق والباطل .

هذه المعركة : أوقد نار فتنتها قوم غرتهم الأمانى ، وأعماهم الضلال ، فاشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فخسروا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

زعم باطل وافتراء مختلق :

هناك أقوام يرون ـ وقد طبع على قلوبهم ، وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ـ أن الدين الاسلامى ، لا يصلح للحياة ، مادام حافلا بهذه المبادىء التى تعكر صفو حياتهم ، وتحرم عليهم الخبائث التى يأتونها ، والمنكر الذى يزاولونه دون أن يشرعه لهم .

لهذا زعموا ، وافتروا ، واختلقوا ، وظلموا ، واتهموا الاسلام ، دون أن يكون لهم حجة صادقة تساندهم ، أو اثبات شرعى يقوى كلامهم .

انهم يقولون عنه مثلا :

« ان الدين مجرد صلة ما بين العبد وربه » .

قالوا ذلك عن الاسلام : وهم على حالة لا بأس عليهم فيها أن يستروحوا نسماته ، وأن يواجهوا صراع الحياة فى المجتمع ؛ ونسبوا اليه هذا الافتراء ، ظنا منهم أن الاسلام فى عزلته الوجدانية ، وفى تأخره الرجعى ... على أن الحقيقة لم تكن كذلك .

بل ان الحقيقة التى تنطق بها طبائع الأشياء : أن جفوتهم الجافة ، وعنادهم الشاق ، وخروجهم عن طاعة الحق ، ومروقهم من الدين ، وانحرافهم المنحرف عن مبادىء الاسلام كل ذلك ، جعلهم لا يفكرون فيعبدوا ، ولا ينظرون فيتدبروا ، حتى ذهبت بهم المذاهب ، وتاهوا بأفكارهم فى الغياهب ، وحملوا على الاسلام ماليس منه ، ورفعوا أسلحتهم فى وجه دعوته ، وسلطوا السنتهم الحداد ليحطوا من شأنه ، وينالوا من اتباعه .

لهذا نرى كل يوم من المتهمين لهذا الدين أصنافا عدة :

نرى شيوعية حمراء ، ووجودية حمقاء ، والحادية عمياء ، بل اننا نرى : فرقا متنازعة ، وأحزابا متباينة .

نرى ذلك كله : يكيد للاسلام كيدا ، حتى أنهم يودون أن لو كان الاسلام على شفا حفرة من النار ، لذهبوا اليه مسرعين ، لا لينقذوه منها ، بل ليقذفوا به فيها .

انظر لقول من قال عن الاسلام منهم ؟

« ان تخلف المسلمين اليوم : انما هو ثمرة من ثمار هذا الدين الذى يأمر اتباعه ومعتنقيه ، بالتواكل والكسل ، والاعتقادات فى الاختراعات والبدع ، والكرامات وعدم الاعتراضات » اهـ .

وغير هذا من اتهاماتهم المرة الكثيرة ، حتى أصبح اليوم أمر مجتمعنا الاسلامى جد خطير ، خاصة وأن هذا الاختلاق المغرض ، تسرب الى مفاهيم الكثير من الناس ، الذين لا يجيدون النقد ، أو البحث ، حتى استطاع — من طرف خفى — مس دعامة عقيدتنا الاسلامية ، التى هى فى أصل حقيقتها صافية نقية .

لهذا وجب على من له مسكة من العقل ، أن يهب للزود عن هذه العقيدة ، ضد هذا الغزو الفكرى المدسوس ، وأن يقف أمام طغيانه، ويظل فى صراع طويل معه ، حتى يجعل الله تعالى كيد هؤلاء الطغاة فى نحورهم ، ونرد أسلحتهم فى صدورهم .

ان الغرب جند قادته ومفكريه ، لغزو الاسلام ، قاصدا من وراء ذلك : ان يشكك على الأقل أبناء الاسلام فى عقيدتهم ، أو يوقظ نار الفتنة بينهم ؛

قصد الغرب ذلك ، لما وجد أن اتباع الاسلام يزدادون حرصا عليه ، ويتعاونون على التمسك به ؛

لما رأى الغرب ذلك ، ضاق بالاسلام ذرعا ، وسلك طرقه الابليسية الملتوية ، ظنا منه أن يصل بذلك الى مبلغ علمه ، ومنتهى امله ، فأخذ يتقول على الاسلام والمسلمين تارة ، ويلقى بأثوابه الخبيثة ، ليزين للناس القبائح والشرور أخرى .

وعلى سبيل البيان ، نذكر نصا آخر ، لأعوان الغرب ، وأنصار الاستعمار ، الذى قال عن الاسلام فيه :

« ان الاسلام فى حقيقته ، دين يبعث على الخمول ، ويؤيد الكسل » اهـ .

قال عن الاسلام هذا القول ، ارضاء لأهواء الاستعمار ، فوجد هذا القول مكانه من قلوب للشيطان عليها سبيل وسلطان .

أما الذين أحسنوا الظن بالاسلام ، وأخلصوا النية له ، فانهم لم يدعوا لهـذا الافتراء مجالا فى قلوبهم بل ولا فى نفوسهم ، وانمـا جندوا أنفسهم للدفاع عن الاسلام ، والجهاد فى سبيله ، حتى كتب الله لهم الغلبـة على أعدائهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، وألبسهم حلل السعادة ، وحلاهم بتاج العزة والكرامة .

ونص آخر لمستشرق فرنسى يقول :

« ان الديانة المحمدية ،جذام وبرص ، فشوا بين الناس ، وأخذا يفتكان بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظـه منهما ، الا ليسـفك الدماء ، ويدمن على معاقـرة الخمـر ، ويجمـع فى القبائح (١) » اهـ .

وكذب المستشرق ، بل وكذب عدو الاسلام والمسلمين الذى ان دل كلامه ، فانما يدل على ما تكنه أفئدة الذين أضلتهم السبل ، واستحوذتهم الشياطين ، حتى لم يكن فى قلوبهم للاسلام مجال .

وما من شك : أن هذا الافتراء ، لن يتأتى لمن وهب الغيرة على دينه ، أن يقف جامدا أمام من تولى زعمه ، حتى يصل الى أغراضه ، ويحقق أهدافه ، وانما يجب ، ويجب ، على كل مؤمن ، أن يهب للذود عن هذه العقيدة ، ضد أنصار الاستشراق ، وأن يشنها حربا شعواء ، تصلى نارها ذات هذا الملحد ، وأمثاله ، من الذين أوقعهم الشيطان فى أراذل العصيان .

ان هذا المستشرق ، هو فى الحقيقة : لا يسمى انسانا ، ولا يصح أن يطلق عليه أنه مفكر ، لأنه منذ أن زعم هذا الزعم ، انحط الى سفاسف الأمور ، بل انه انحط الى دركة الأقل من البهائم .

يقـــول سبحانه :

« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » (٢) .

---

(١) أنظر كتاب « مرض الاسلام » للمستشرق « كيمون » الفرنسى .

(٢) الأنفال آية : ٥٥ .

ولقد كان من كرامات الاسلام الباهرة ، أن هذا المستشرق ، أراد أن يعبر عن الاسلام معترضا ، فجاء تعبيره رغم أنفه شاهد للاسلام بالصدق وعليه بالكذب .

انه نطق فى صراحة تامة ، أن ما جاء به محمد « ديانة محمدية » . ثم جره خبثه الحاقد ، وسولت له نفسه السوء ، فقال عن هذه الديانة المحمدية : انها جذام وبرص .

ولا شك أن هذا تناقض عجيب ، وخلط مريب ؛

اذ كيف يصح أن يكون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ديانة ، وكيف يكون جذاما وبرصا ؟

انه يدل على ما أصيب به هذا المستشرق ، منذ أن عدل بانحرافه عن طريق الجادة ، حتى كان حظه من الدنيا ، خيبة الأمل ، والخزى المخزى فى الدار الآخرة .

الاســلام يرد مطاعن المستشرقين :

ان القرآن الكريم ، المصدر الالهى الأول للاسلام ، والقائد الموجه الملهم ، والدليل الواضح الموصل لكل من سلك هديه ، واتبع طريقه ، يبطل زعم كل مستشرق تقول على الاسلام ، وينقض ادلة كل ما جاء به من مطاعن او مفاسد .

انظر لقول الله سبحانه ، اذ يحث على العمل الدائب ويوجه الى الجهاد المتواصل فى سبيله ، فيقول :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون (١) » .

ويقول عز وجل ، موجها الى السعى على الرزق ، ومرغبا فى البحث عنه :

---

(١) التوبة آية : ١٠٥ .

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فأمشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور » (١) .

ويزداد حث القرآن الكريم توجيها ، الى الانتشار فى الأرض بعد أداء الصلاة ، سعيا للرزق وطلبا للكسب فيقول :

« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله » (٢) .

وغير هذا الكثير من الآيات فى القرآن الكريم .

أما الأحاديث الشريفة ، فان ما ورد فى هذا الشأن ، فهو أكثر من أن يحصى ، وأعظم من أن يعد .

خاصة : وأن الاسلام بلغ أمر عنايته بالعمل والحث عليه ، أن اعتبر ، أن العمل مع العبادة أفضل من التخلى لها وحدها .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم قوم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

ان فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال :

أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟

فقالوا : كلنا يارسول الله !

فقال : كلكم خير منه » اهـ .

ولم يترك الاسلام العذر ، لقوم يتكففون الناس ، ولم يرض لهم ذلك ، وهم على استطاعة من العمل الجاد ، والكسب الحلال ، والسعى فى أرض الله الواسعة الفضاء .

وقد ذلل الله الأرض لبنى الانسان ، ليمشوا فى مناكبها ، ويأكلوا من رزقه ، وينتشروا فى رحبها الرحيب الواسع ، سعيا على الرزق ، وتعففا عن المسألة التى تأتى نكتة سوداء فى وجه صاحبها يوم القيامة ؛

---

(١) الملك آية : ١٥ .

(٢) الجمعة آية : ١٠ .

واننا لنرى كيف دفع الرسول صلى الله عليه وسلم ، بفطنته الفطنة ، وعمق ذكائه ، أحد هؤلاء الصحابة ، الى الكسب الحلال ، والجد فى سبيله ، وكيف حذره أيضا من السؤال ، ووجهه الى العمل المثمر الذى يحفظ كرامته ، ويصون عرضـــه ، ويحمى عزته ، ويكف يده عن المسألة .

عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل من الأنصار ، يســأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

أما فى بيتك شىء ؟ قال : بلى .

حلس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء ؛ فقال :

أئتنى بهما ؛

فأتاه بهما ، فأخذهما صلى الله عليه وسلم ، بيده ، وقال :

من يشترى هذين ؟ قال رجل

أنا آخذهما بدرهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

من يزيد على درهم مرتين ، أو ثلاثة ؟ قال رجل :

أنا آخـذهما بدرهمين ، فأعاطاهما اياه ، فأخذ الدرهمين ؛ واعطاهما الأنصارى وقال :

اشتر بأحـدهما طعـاما ، فانبذه الى اهلك ، واشتر بالآخر قدوما ، فائتنى به .

فأتاه به ، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عودا بيده، ثم قال له :

اذهب واحتطب وبع ، ولا ارينك خمسة عشر يوما ، ففعل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبا ، وببعضها طعاما ، فقال له صلى الله عليه وسلم :

هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة .

ان المسألة لا تصلح : الا لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع » أ هـ .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه كان جالسا مع أصحابه ذات يوم ، فنظروا الى شاب ذى جلد وقوة ، قد بكر يسعى ، فقالوا :

ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا تقولوا هذا : فانه ان كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله .

وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله .

وان كان خرج يسعى على نفسه ليعفها ، فهو فى سبيل الله .

وان كان خرج رياء ومفاخرة ، فهو فى سبيل الشيطان (١) » .

وعن أبى عبد الله الزبير بن العوام ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتى الجبل بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (٢) » .

ولقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عمل اليد ، وأكثر من الثناء الحسن عليه ، حتى عبر عنه ، أنه من أحب أنواع العبادة الى الله عز وجل ، وأفضلها ، فقال صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه المقداد بن معد يكرب ، رضى الله عنه :

« ما أكل أحد طعاما قط ، خير من أن يأكل من عمل يديه ، وان نبى الله داود ، صلى الله عليه وسلم ، كان يأكل من عمل يده (٣) » .

---

(١) رواه الطبرانى .
(٢) رواه الامام البخارى .
(٣) رواه الامام البخارى .

واشتد حرص الاسلام على العمل ، وكثر حثه على الجهد المتواصل فى السعى على الرزق ، هنا وهناك ، حتى أنه لن يقبل من الأعمال الا ما كان طيبا ، خالصا لوجه الله سبحانه ، لا سيما وانه دين عمل متواصل ، وكفاح دائب ، وجهاد وافر ، وسعى جاد ، ونضال مستمر ، لا مجرد شريعة من السماء ، تهمل الأرض ، وما فيها من خيرات دفينة لا ينتفع بها الناس ، وتدع أتباعها هملا لا يصلحون .

فالاسلام شريعة الله القوية ، التى توجه البشر الى العمل ، طلبا للرزق ، واحتسابا للأجر ، واحتفاظا بكرامة الانسانية ، وصونا للأيدى عن المسألة التى يأتى صاحبها يوم القيامة ، وهى نكتة سوداء فى وجهه .

بل ان الاسلام شريعة الله التى تأمر الانسان ، وتفتح له المجال للهجرة فى سبيل الله تعالى .

يقـــول ســـبحانه :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجـد فى الأرض مراغمـا كثيرا وسعة(١) » .

والناظر فى سيرة من اختاره الله للعالمين رحمة ، يجد أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ، منذ نشأته ـ أسوة حسنة للعمل الصالح الذى يرضى الله سبحانه .

فقد كان صلى الله عليه وسلم ، نموذجا حيا ، ومثلا كريما ، فى مزاولة الكثير من أنواع العمل :

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يخيط نعله ، ويرقع ثوبه ، .. وكان يتاجر فى مال السيدة خديجة رضى الله عنها ، ويمشى فى الأسواق ، وسار الصحابة الأعلام على نهجه ، رضوان الله عليهم .

انه مارس الكثير من أنواع العمل ، حتى ضرب أروع النماذج الكريمة ، التى تبنى عليها الأمة الاسلامية حياتها الانسانية الكريمة :

---

(١) النساء آية : ١٠٠ .

فقد روى انه اجتمع يوما وبعض أصحابه ، وارادوا الغذاء ، فقال بعضهم :

على ذبح الشاة ؛ وقال الثاني : على سلخها ، وقال الآخر:أنا على طبخها ، ويفيض خلق الرسول العظيم ، تواضعا ، فيقول :

« وأنا على جمع الحطب » .

موقف نبيل ، وشعور كريم ، امتاز الرسول به وحده ، وسمت نفسه ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن أن يكون عالة على أصحابه ، أو أن يكون عظيما فى نفسه عنهم ، رغم أن الصحابة يودون احترامه وتعظيمه ، عن طيب خاطر ، وانشراح صدر ، وهـــذا من كريم سجاياه ، وعظيم أخلاقه ، التى ضرب بها أروع المثل ، تطبيقا للحياة العملية ، على نفسه وعلى أصحابه ، حتى كان قدوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

احترف صلوات الله وسلامه عليه ، العمل الذى كان يقوم به معظم الناس على عهده ، فضلا عما زاوله من الأعمال الأخرى ، التى زاولها اخوانه الأنبياء من قبله .

فقد كانوا صلوات الله وسلامه عليهم ، على نشاط جاد ، وجهاد موفق ، وجد ملحوظ فى مختلف ميادين الحياة ، والكسب المشروع .

فمنهم من كان نجارا ؛ ومنهم من كان حدادا ؛ ومنهم من كان بناء ، ومنهم من كان راعيا ، بل ما بعث نبى ، الا وكان للغنم راعيا . الى غير ذلك من شريف الحرف والمهن الكثيرة التى زاولوها صلوات الله عليهم .

ها هو دور النبى صلى الله عليه وسلم ، ودور الأنبياء والرسل فى الحياة العملية ، وكان كذلك دور الصحابة الأعلام الذين ساروا عليه ، وسار الأتباع الأتقياء عليه من بعدهم ، حتى بلغ الجميع رسالة الاسلام ، وحافظوا على العهود والمواثيق ، وأدوا الأمانة التى أسندت اليهم فى سبيل الحياة الانسانية الشريفة .

يقول سيدنا عمر رضى الله عنه :

« اني لأرى الرجل فيعجبني ، فأسأل ؛ اله حرفة ؟ فان قيل : لا . سقط من عيني » ا هـ .

ومر رضى الله عنه ، برجل يجلس على قارعة الطريق ، ويقول : اللهم ارزقني ، فضربه بدرته ، وقال :

لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول :

« اللهم ارزقني ، وقد علم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وانما يرزق الله الناس بعضهم من بعض » ا هـ .

اذن فالاسلام فى عمومه الشامل ، وفى خصوصه الخاص ، أشاد بالعمل فى دعوته ، ونهى عن التواكل : وسفه أحلام الذين ينتسبون الى الاسلام ، وهم على ضعفهم المخزى ، وخمولهم المؤذى ، وتوانيهم المذل المفقر .

يقول سبحانه وتعالى :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا :

كنا مستضعفين فى الأرض ! قالوا :

الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »(١) .

نص القرآن الكريم على حال المستضعفين فى الأرض ، وخوفهم سوء المصير ، وتوعدهم بالعذاب الأليم ، ثم أنكر عليهم استضعافهم ولم يسمع لقولهم :

« كنا مستضعفين فى الأرض » .

وعاتبهم على ظهور توانيهم ، واتخاذهم المعاذير ، التى لم تغن منهم من الله شيئا ، فقال لهم على لسان ملائكته :

---

(١) النساء آية : ٩٧ .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

وشاء الله سبحانه ، أن يحملنا صنوفا كثيرة ، من تكاليف الخدمة الاجتماعية فى سبيل الحياة السعيدة ، التى نقدمها الى العالم البشرى ، لكى نتمثل بحق عقيدة التوحيد الخالص ، حينما نعرض للناس مبدأ الايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله، واليوم الآخر .

ولعل من البدهى بعد هذا البيان ، أن الاسلام لا يمكن له بحال أن يقبل فارغ النفس من العمل ، دون معذرة ، ولا يرضى أن تدين به أمة مغلوبة على أمرها ، وهو صاحب الرسالة الضخمة التى لا يطيقها الا الأقوياء ، ولا يحملها الا العالمون .

هذا ولم يكن ذلك فحسب ، بل انه لا يقبل كذلك أن تأتى الدنيا لانسان من غير طريقها الالهى المشروع ، أو تأتى له عن طريقها المشروع ثم يسخرها فيما لا يرضى الله ورسوله .

ذلك هو الاسلام كما جاء لنا به معلم الانسانية صلى الله عليه وسلم ، وتلك هى رسالته الخالدة ، وتوجيهه العام ازاء العمل المثمر ، والكفاح الدائب فى خدمة الانسانية التى يود لها أن تعيش حياة كريمة عزيزة .

فكيف يتصور أن يكون الاسلام ، وهو بهذه المثابة ، دينا يبعث على الخمول والكسل كما زعم المستشرق المأجور ؟

أم كيف يتصور أن يبقى افك لمؤتفك بعد هذا البيان الواضح ؟

ان من قذف الله الايمان فى قلبه ، وسار على هدى من كتاب ربه ، واقتدى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، لن يسعه الا الاتيان لهذه النصوص الاسلامية ، خاشعا متصدعا من خشية الله تعالى ، مسلما لأول وهلة بصحتها .

أما الذين لم يأن لهم أن تخشع قلوبهم لشيء من الحق ، ولم تطمئن أفئدتهم لهذه العقيدة الاسلامية ، فانهم يمرقون من الدين الاسلامى كما يمرق السهم من الرمية .

من هؤلاء الأشقياء مستشرق يقول عن الاسلام :

« ان الاسلام يسفك الدماء ، ويقتل الأبناء ، ويهدم البنيان الانسانى » .

والقرآن الكريم يرد هذا الزعم ويبطله فيقول :

« ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما »(١) .

توعد الله سبحانه فى هذه الآية بأن من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ، فضلا عما يحل عليه من غضب الله ، وما ينزل به من لعنة .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« الآدمى بنيان الرب ملعون من هدمه » .

والنصوص الواردة فى هذا الشأن ، والتى ترد هذا الزعم وأمثاله كثيرة ، فكيف يتصور أن الاسلام يسفك الدماء ، ويقتل الأبناء ويهدم البنيان الانسانى ؟

أم كيف يتصور أن الاسلام : دين يدمن على الخمر ، كما قال المستشرق الذى لم يراقب الله فى قوله ؟

ان الله سبحانه وتعالى يقول :

« انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »(١) .

---

(١) النساء آية : ٩٣ .

(٢) المائدة آية : ٩٠ .

بين الله فى هذه الآية ، أن الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام من عمل الشيطان ، الذى نهانا الله سبحانه عن اتباع سبيله ، وعمل الشيطان ، لا سبيل للعاقل الى اتباعه ، بل لا سبيل لمؤمن الا البعد عن سبل الشيطان المتفرقة .

وكما بين الله تعالى أن الخمر من عمل الشيطان : فقد بين كذلك ، أن علة تحريمها ، ما فيها من ذهاب العقل الذى هو من أهم النعم التى أسبغها الله على عباده ، والذى فضل الله به الانسان على كثير من خلقه ، فضلا عن أن الخمر تثير الفتن ، وتوقع العداوة والبغضاء ، وتصد عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فتحقق أملا للشيطان يجرى من أجله فى ابن آدم مجري الدم فى العروق .

((انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون)) (١) .

يقول ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوى(٢) ، رضى الله عنه ، عن هذه الآية :

« اعلم أنه سبحانه وتعالى ، اكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية ، بأن صدر الجملة بأنما ، وقرنهما بالأصنام والأزلام ، وسماهما رجسا ، وجعلهما من عمل الشيطان : تنبيها على أن الاشتغال بهما شر بحت ، أو غالب ، وأمر بالاجتناب عن عينيهما وجعله سببا يرجى منه الفلاح .

ثم قرر ذلك بأن بين ما فيهما من المفاسد الدينية والدنيوية المقتضية للتحريم فقال :

((انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ..)) .

وخصهما باعادة الذكر ، وشرح ما فيهما من الوبال ، تنبيها على أنهما المقصود بالبيان .

---

(١) المائدة آية : ٩١ .

(٢) هو صاحب التفسير المشهور بالبيضاوى .

وذكر الأنصاب ، والأزلام ، للدلالة على أنهما مثلهما فى الحرمة والشرارة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« شارب الخمر كعابد الوثن »(١) اهـ

وبعد : فيقول المستشرق « كيمون » عن الاسلام :

« ان الاسلام يجمع فى القبائح » .

ويرد القرآن الكريم على ذلك : بما يتضمن للاسلام سلامته وحفظه ، ويحقق براءته وتقديسه فيقول :

« واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون »(٢) .

ثم يؤكد الله تعالى تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فى نفس السورة فيقول :

« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا : وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٣) .

وجميع الشرور والقبائح ، وكل ما ظهر من الفواحش وما بطن منها ، نهى الله سبحانه وتعالى عنه ، وأنزل فيه من الآيات ما لا يعد قليلا .

فمن أراد الهداية ، وجد فى طلبها ، وجد ما يكفيه ويزيد ، ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليرجع لكتاب الله سبحانه ، فانه حين يتلوه صادقا ، ويتدبره متفهما : يصدق بما جاء به ، ويعتقد اعتقادا جازما أنه المصدر الالهى الوحيد ، والبلسم الشافى لكل من حز به أمر ، أو شغله شاغل .

وعلى طريق البيان نذكر من النماذج القرآنية ، ما وجه الله به

---

(١) أنظر تفسير البيضاوى جـ ١ ص ٢٤٥ .
(٢) الأعراف آية : ٢٨ .
(٣) الأعراف آية : ٣٣ .

عباده الى الطيب من القول والعمل ، وما نهاهم عنه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

يقول الله تعالى ، ناهيا عن أكل الربا وعن التعامل به .

« الذين يأكلون الربا ، لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا : فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم » (١) .

ثم عقب الله سبحانه بالحث على ترك الربا وما بقى منه ، وجعل ذلك من التقوى ، واعلان الحرب على من لم يستجب لأمره سبحانه وتعالى فقال :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين .

فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون (٢) » .

ومن المعلوم عادة : أن الحرب لا تعلن الا على معتد آثم أو لعداء مستحكم ، وآكل الربا من غير شك كذلك .

انه بخروجه عن طاعة الله ، وجشعه المادى : عدو لله ولرسوله صلى الله عليه ووسلم .

ولهذا أعلن الله الحرب عليه ، وشتان بين حرب قائمة بين جماعتين من الناس ، وبين حرب قائمة بين الله ورسوله ، وبين المعادى لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

اذ أن الأولى يتصور فيها الظفر والفوز لجماعة على الأخـرى وبالعكس ، ولا كذلك فى الثانية .

---

(١) البقرة آية : ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) البقرة آية : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وكما نهى الله عن الربا وأعلن الحرب على فاعله ، فانه سبحانه نهى كذلك عن أكل أموال الناس بالباطل فقال :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (١) .

اما عن أكل أموال اليتامى ظلما ، فيقول سبحانه وتعالى :

« ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (٢) .

والشارع الحكيم : لم يجعل وسائل التقويم الاجتماعى السليم وقفا على توجيه الأوامر والنواهى فحسب ، وانما أعد لذلك حدودا لا بد أن تنفذ على كل من خالف أوامر الله ونواهيه ، صونا لكرامة الانسانية ، واحتفاظا بحقوقها ، وتحقيقا لسلامتها ، لكى يسود النظام فى المجتمع ، ويأمن الفرد فى حياته ، كما تأمن الجماعة .

من أجل ذلك : أوجب الله سبحانه مثلا ، القتل ، أو الصلب : أو النفى ، لمن يسعون فى الأرض فسادا ، كما أوجب سبحانه ، قطع يد السارق ، وجلد الزانى (٣) أو الشارب ..

يقول سبحانه مبينا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويفسدون فى الأرض :

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض : ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٤) .

أما عن السارق والسارقة فانه تعالى يقول :

---

(١) البقرة آية : ١٨٨ .
(٢) النساء آية : ١٠ .
(٣) الرجم للزانى المحصن ، والجلد للزانى غير المحصن .
(٤) المائدة آية : ٣٣ .

« والسارق والسارقة ، فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (١) .

ولقد كتب الله القصاص على من قتل نفسا بغير ذنب ، أو أتلف عضوا كذلك ، لتكون لنا فى القصاص حياة فقال :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » (٢) .

وقال سبحانه فى السورة نفسها :

« ولكم فى القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تفلحون » (٣) .

ويقول عز وجل :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن : والسن بالسن ، والجروح قصاص » (٤) .

أما عن جريمة الزنا ، والجزاء الواجب فيها ، فان الله تعالى يقول :

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (٥) .

وغير ذلك كثير من الآيات القرآنية التى لم تدع مجالا ، لانتهاك حرمة أو ضياع شعيرة من شعائر الاسلام ، حتى كانت الغاية من هذا الاطار الالهى التربوى ، قوله سبحانه :

« تلك حدود الله : ومن يطع الله ورسوله ، يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم .

---

(١) المائدة آية : ٣٨ .

(٢) البقرة آية : ١٧٨ .

(٣) البقرة آية : ١٧٩ .

(٤) المائدة آية : ٤٥ .

(٥) النور آية : ٢ .

ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين » (١) .

ها هو دور الاسلام العملى ، وتوجيهه الموجه الى البحث الدائب والعمل المستمر ، ولكن على الرغم من وضوح الحق ، فان عجلة الاستشراق لم تقف برجالها عند هذا الحد من الطعن فى السلام ، فها هو : « جولد تسهير » الذى يقول عن الاسلام كذبا وافتراء :

« ان هذا الدين ، يذل تابعيه : ويغريهم بالتواكل والخمول ، لأنه يرجع الى معنى من الطاعة والخضوع ، غير الارادى .

وهذه الكلمة « اسلام » أوفى من كلمة غيرها فى تعبير المنزلة التى جمعها محمد للمؤمنين فى علاقته لمعبوده ، عليها طابع ظاهر من الشعور بالتبعية والقدرة ، لا تحيط بها حدوده ، ويجب على الانسان الاستسلام المطلق متبرئا من كل حول وقوة » أ هـ

وكذب هذا المستشرق الذى سقمت عقيدته حتى أصبحت لا يتأتى منها الخير ، ولا تنبت الا ما خبث ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا .

كذلك كان هذا المستشرق ، وكذلك أراد أصحاب هذه الآراء الفاسدة : الذين تراكمت على أفئدتهم ظلمات بعضها فوق بعض ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

ولا عجب : بل ان العجب كل العجب ، أن يترك هذا المستشرق وأمثاله ، يروحون ويسرحون ، دون تصد لهم ، فيعم خطرهم ، ويتحقق لهم المقصد .

ولقد كان من آلاء الله تعالى على الاسلام والمسلمين ، أن كان فى كل عصر زعماء اصلاح ، وعلماء أمناء : وقادة أتقياء ، جندوا أنفسهم للدفاع عن شريعة السماء ، والذود عن هذا الدين ابتغاء لوجه الحق سبحانه ، فكلل مسعاهم ، وطيب المرب ثراهم .

من بين هؤلاء : ابن القيم ، الذى ضرب بسهم وافر فى الرد على الطاعنين فى الاسلام ، ورد شبههم وابطال أدلتهم .

---

(١) النساء آية : ١٣ ، ١٤ .

انظر اليه يقول عن الاسلام .

« ليس فى استعمال كلمة « اسلام » لغة أو شرعا ، ما يدل على معنى الانقياد والخمول والخضوع : المتضمن لمعنى الجبر ، كما يفرضه عادة اكثر الباحثين ، من الغربيين ، ولكن المعنى الصحيح لكلمة الاسلام ، كما يظهر واضحا من الآيات ، هو الكد فى تحرى الرشد ، والتماس الفلاح ، بتزكية النفس ، ويدل على ذلك : مايؤخذ من الآيات الآتية ، فقد قال تعالى :

« وأنا منا المسلمون : ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » (١) .

وقال تعالى :

« ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » (٢) .

وذلك يستلزم معنى الطاعة الارادية ، ظاهرا وباطنا .

والرشد هو الهدى والفلاح ، وهو الذى يهدى اليه القرآن من تصديق خبر الله ، وامتثال أمره » أ هـ .

وصدق ابن القيم : فان تحرى الرشد ، والتماس الفلاح ، وتزكية النفوس ، من الأمور التى يهدف الاسلام الى تحقيقها فى قلب كل مسلم : وصدق الله العظيم اذ يقول :

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » .

وكما جند ابن القيم نفسه فى هذا الميدان الفسيح الرحب للدفاع عن الاسلام ، والذود عنه ، فهناك من العلماء من صدع فى الناس — حفاظا على الدعوة الاسلامية ، وصونا لها من خوض الخائضين — باذلا ما فى وسعه من جهد وطاقة ، حتى قاد حركة الاصلاح الدينى ، وبعث فى الناس روح التحاب لهذا الدين .

---

(١) الجن آية : ١٤

(٢) الشمس آية : ٧ — ١٠

من هؤلاء الزعماء : السيد جمال الدين الأفغــانى ، الذى دافع مستبسلا عن الديانة الاسلامية ، والذى أشاد بذكرها فى كثير من أحاديثه ، ووضح بجلاء ما بنيت عليه من أسس قوية : ودعائم متينة، وما سيكون لها من الغلبة على غيرها ان شاء الله تعالى .

انظر اليه يقول :

« ان الديانة الاســـلامية ، وضع أساســها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها » .

فالناظر فى أصول هــذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكما لا ريب فيه ، بأن المعتقدين بها ، لا بد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميـــع الملل : الى اختراع الآلات القاتلة ، واتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون ، كالطبيعة والكمياء ، وجر الأثقال ، والهندسة وغيرها .

ومن تأمل فى آية :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » (١) .

أيقن أن من صبغ بهذا الدين ، فقد صبغ بحب الغلبة : وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها ، والسعى اليها ، بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمتعة والاقتناع من تغلب غيره عليه .

ومن لاحظ ان الشرع الاسلامى ، حرم المراهنة ، الا فى السباق والرماية ، انكشف له مقدار رغبـــة الشارع فى معرفة العـــلوم العسكرية : والتمرن عليها » (٢) ا هـ .

ولا شك ان هذا حق واضح ، تفردت به الديانة الاسلامية ، منذ أن وجه رسولها صلى الله عليه وسلم الناس الى العمل الجاد ، والجهاد المتواصل ، الذى يؤدى بأبناء الأمة الى الـ ياة الكريمة ،

---

(١) الانفال آية : ٦٠

(٢) انظر : الاسلام دين العلم والمدنية للامام محمد عبده .

واعتبار الخمول والكسل ، شر أنواع البطالة الذى يؤدى الى ضعف الأمة ، وتأخر انتاجها ، وتقليل ثرواتها ، وتفكك أواصراها .

انه لحق واضح تفردت به الديانة الاسلامية : منذ أن أعلم الرسول صلى الله عليه وسلم الناس ، أن أ

« أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفى الفارغ »(١) .

بل انه لحق واضح تفردت به الديانة الاسلامية ، منذ أن حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من المسألة قائلا :

« من سأل الناس أموالهم تكثرا ، يسأل جمرا ، فليستقل أو ليستكثر » .

واذا كان هذا حق واضح تفردت به الديانة الاسلامية على نحو ما ذكرنا ، فقد ثبت بالتالى ، كذب رجال الاستشراق فى كل ما قالوا .

وبعد : فيقول الامام على كرم الله وجهه :

« ان من احب عباد الله اليه ، عبدا أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزن ، وتجلبب الخوف : فزهر مصباح الهدى فى قلبه وأعد القرى ليومه النازل به ، فقرب على نفسه البعيد ، وهون الشديد .

نظر فأبصر ، وذكر فاستكثر ، وارتوى من عذب فرات سهلت له موارده ، فشرب نهلا ، وسلك سبيلا جددا ، قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى عن الهموم الا هما واحدا ، انفرد به فخرج من صفة العمى : ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهدى ، ومغاليق أبواب الردى .

قد أبصر طريقه ، وسلك سبيله ، وعرف مناره ، وقطع غماره واستمسك من العرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها .

فهو من اليقين على مثل ضوء الشمس ، قد نصب نفسه لله

---

(١) هذا حديث رواه الديلمى ؟

سبحانه ، في أرفع الأمور ، من اصدار كل وارد عليه : وتصبير كل فرع الى أصله .

مصباح ظلمات ، كشاف عشوات ، مفتاح مبهمات ، دفاع معضلات ، دليل فلوات ، يقول فيفهم ، ويسكت فيسلم : قد أخلص لله فاستخلصه ، فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه ، قد الزم نفسه العدل ، فكان أول عدله ، نفى الهوى من نفسه : يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية الا أمها ، ولا مظنة الا قصدها ، قد أمكن الكتاب من زمامه ، فهو قائده وامامه ، يحل حيث حل ثقله وينزل حيث كان منزله .

وآخر قد تسمى عالما وليس به : فاقتبس جهائل من جهال ، واضاليل من ضلال ، ونصب للناس شركا من حبائل غرور ، وقول زور . قد حمل الكتاب على آرائه ، وعطف الحق على أهوائه ، يؤمن من العظائم ويهون من الجرائم ، يقول أقف عند الشبهات وفيها واقع ، واعتزل البدع وبينها اضطجع ، فالصورة : صورة انسان : والقلب قلب حيوان ..

لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيصد عنه ، فذلك ميت الأحياء .

فأين تذهبون ؟ وأين تؤفكون ؟ والأعلام قائمة ، والآيات واضحة والمنازل منصوبة ، فأين يتاه بكم ؟ وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق ، وأعلام الدين ، والسنة الصدق .

فأنزلوهم بأحسن منـــازل القرآن ، وردوهم ورود الهيم العطاشى ..

انه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلى وليس ببال فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فإن أكثر الحق فيما تنكرون » اهـ

الفصل الثالث

الاسلام يساير العقل وينسجم مع واقع الحياة

توجيــه قــرآني :

يقول الله تعــالى :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليــل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١) » .

هذه آية من آيات الله الكريمة ، تشعرنا تماما ، بالعظة والاعتبار ، وتوجهنا دائما الى محراب الهداية ، وتقودنا كافة المؤمنين بالله ورسوله ، الى اليقين الصادق والتسليم المطلق ، أن كل من ينعم النظر ، ويجيل الفكر ، فى كتاب الله تعالى ، راغبا التدبر به ، والأخذ منه ، لا شك : أنه يصل حتما الى بر السلامة ، والطمأنينة ، ويفوز بالايمان الدائم الذى يحبه الله تعالى ، ويوجه اليه رسوله صلى الله عليه وسلم .

أما الذين شقوا باعراضهم عن التدبر ، وشغلهم تغافلهم عن آيات الله الكثيرة ، فان الله سبحانه ، يحشرهم عميا يوم القيامة ، فضلا عن أن معيشتهم ضنكا فى الحياة الدنيا .

وشتان بين من عرف الحق فالتزم بابه وسلك طريقه ، وأقبل فأقبل الله عليه ورضى فرضى الله عنه ؛

وبين من شقى باعراضه عن آيات الله ، وأعرض الله عنه ، وغضب عليه ولعنه .

---

(١) البقرة آية : ١٦٤ .

ولكن على الرغم من وضوح الفرق القائم بين الاثنين ، والذى اخبر الله عنه بقوله :

« ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين احسنوا بالحسنى » (١) .

على الرغم من ذلك : فهناك أقوام آثروا الاعراض عن آيات الله ، بما فيه من قبح ، على التدبر بما فيه من جمال وخير ، فخسروا وهم مساكين لايدرون أنهم يوم أن زرعهم الشيطان فى الاعراض ، كانت لعنة الله عليهم فى طور السنابل .

حول مطاعن الاستشراق :

يقول « رينان » عن الاسلام :

« ان الاسلام لا يشجع على الجهود العلمية ، بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد للغيبيات ، وخوارق العادات ، وايمان تام بالقضاء والقدر » ا هـ .

ويقول أيضا عن العقل العربى :

« ان العقل العربى ، لا يصلح للدراسة والبحث ، لأن العقلية السامية مجدبة ، كالصحراء التى نبتت فيها ، وهى لا تقوى على التحليل والتعمق ، كما هى الحال بالنسبة الى العقلية الآرية » ا هـ

ولم يشف غليل « رينان » ما قال ، وانما جره غيظه من الاسلام أن قال مختلقا :

« ان الدين الاسلامى لا يناهض العقل ، ولا يشجع على البحث النظرى فى الأقل ، لأن عقائده تحتوى على أمور غيبية » ا هـ .

ولم يكن « رينان » هو وحده الذى افترى على الاسلام الكذب ، بل هناك من هو على شاكلته ، وعلى الأخص المستشرق الفرنسى الذى كان من الد خصوم الاسلام ، والذى يقول عن القرآن :

---

(١) النجم آية : ٣١ .

« القارئون للقرآن من الأوربيين ، لا تعوذهم الدهشة من اضطرابه ، وعدم تماسكه فى معالجة الكبار المعضلات ، على أن هذه لم تكن حجر عثرة فى سبيل الصحابة ، الذين تقبل ايمانهم ، لساذج هذا القرآن ، على أنه من عند الله ، ولكن الصدع من هنا وجد ، وسرعان ما أظهر نتائج بعيدة الآثار » اهـ .

وكذب أعداء الله ، وجعل الله بأسهم بينهم شديداً .

انهم سجلوا ذلك افتراء على الاسلام ، حينما غلبتهم شقوتهم ، وأذلتهم مطامعهم ، واستهوتهم أغراضهم ، وأعقبهم النفاق فى قلوبهم ، حتى باءوا بغضب على غضب ، ولهم عذاب أليم .

وما من شك : أن قصة هؤلاء الذين ضل سعيهم ، لايخلو الحكم فيها من أمرين :

١ ـ ان هؤلاء وصلوا بزعمهم الفاسد ، واعتقادهم الباطل ، الى درجة الدواب التى لا تفكر ولا تعقل ، بل انهم بكفرهم وعنادهم انحطوا الى درجة الأضل من البهائم .

والقرآن الكريم يشهد عليهم بذلك ، فيقول :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون .

ومثل الذين كفروا ، كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء ، صم ، بكم ، عمى ، فهم لايعقلون (١) » .

ويقول سبحانه :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (٢) .

---

(١) البقرة آية : ١٧٠ ، ١٧١

(٢) الأعراف آية : ١٧٩ .

ويقــول جل ذكره :

((ان شر الدواب عند الله الصم ، البكم ، الذين لا يعقلون (١))) .

ويقول فى نفس السورة أيضا :

((ان شر الدواب عند الله ، الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون))(٢) .

واذا كان القرآن الكريم ، أبان لنا عن خسة ادراكهم ، وســوء تصرفهم ، فان الأمر يستلزم ضرورة ما جرى عليه العرف ؛ وهو أن الحكم عادة لا يكون الا على من سما بعقله عن سائر الحيوانات .

٢ ـ ان هؤلاء الأقوام ، نظرا لما أصيبوا به من عمى ، وما جبلوا عليه من قسوة وغلظة ، فانهم لم يكونوا على استعداد عقلى ، يتأتى معه الادراك الذى يتفق والتدبر الذى يتأتى معه الخشوع عنــد تلاوة القرآن وسماعه ، والتفهم لمعانيه ، والتصدع من خشــية الله تعالى .

وأقوام شأنهم كذلك ، فماذا نقول لهم ؟ وماذا نفعل بهم اذن ؟

ان الشىء الوحيد الذى نأخذ به تجاه هؤلاء الأقوام هو أن : نقول لهم ، وللعالم أجمع ، وخاصة من كان على شاكلتهم :

ان الاسلام ليس بحاجة ـ بعد توجيهه وارشاده ـ الى من أقفلت قلوبهم ، وصمت آذانهم ، واستغشــوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، بل انه ليس بحاجة كذلك الا أن نقول لهم :

لم يبق لكم بعد الحق الا الضلال .

أما من حيث الارشاد والتوجيه : فان الاسلام ـ بما وهبه الله من سماحة ويسر ، ورهبة وعزة ـ لم يقف عثرة فى طريق ارتقاء البشرية ، خاصة : وأنه الدين الذى اختاره الله لاخراج الناس من الظلمات الى النور .

---

(١) الأنفال آية : ٢٢ .

(٢) الأنفال آية : ٥٥ .

ذلك : انه حينما وضع القوانين ، وأصدر الأحكام ، فانه قصد من وراء ذلك ، فرض النظام الاجتماعى ، الذى يهدف الى المحافظة التامة ، على حياة البشرية ، والحرص الحريص على ضمان بقائها ، والذود عن حياضها ، والنضال المستمر من أجل كرامتها ، وتحقق سلامتها ، والتمتع بكل حق من حقوقها .

وحينما نشر دعوته ، ووحد العقيدة ، وفرض الفرائض ، ونظم المعاملات ، فانه كذلك قصد سعادة الانسانية ، بالتقرب الى خالقها ، بأنواع الطاعات ، والتمتع بالنعيم المقيم فى دار البقاء .

بهذا أو بذاك ! فتح الاسلام المجال ، ووسع الرحاب ، وأفسح الدائرة ، لعل الكافر يسلم ، والمذنب يستغفر ، والبعيد يدنو ، والتقى يزداد تقوى وقربى .

ودين شأنه كذلك : فلا جدال أنه يساير العقل ، وينسجم مع واقع الحياة ، رغم أنف كل معاند .

بيد أننا لو فرضنا جدلا ، أن رجال الاستشراق ، أصحاب ادراك وعقيدة ، فان القرآن ينقض كلامهم الذى يدل على قصر فهمهم وسوء ادراكهم لحقيقة الاسلام .

ينقض القرآن كلامهم ، بما هو غاص به من آيات معجزة ، نزلت موجهة للعقل ، وقائدة للفكر ، وحاثة للنظر ، فى آيات الله الكونية ، التى تشهد بوحدانية الله تعالى .

يقول سبحانه :

« ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب (١) » .

ويقول جل ذكره :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من

---

(١) آل عمران آية : ١٩٠ .

شيء ، وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعــده يؤمنون » (١) .

ويقــول تعــالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (٢) .

أليس هذا هو التوجيه الالهى للعقل ، والارشاد له ، والحث التام للنظر ، الى آيات الكون ؟

أم ليس من التوجيه القرآنى للعقــل الانســانى قول الحق سبحانه :

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ...؟ » (٣) .

أو ليس من القرآن قوله تعالى :

« وهو الذى يحيى ويميت ، وله اختــلاف الليل والنهــار ، أفلا يعقلون ؟ » (٤) .

أم لم يكن من التوجيه القرآنى للعقل البشرى قوله سبحانه :
« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ؟ » (٥) .

أوليس من القرآن قوله تعالى :

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف السنتكم والوانكم ، ان

---

(١) الأعراف آية : ١٨٥ .
(٢) يونس آية : ١٠١ .
(٣) الحج آية : ٤٦ .
(٤) المؤمنون آية : ٨٠ .
(٥) العنكبوت آية : ٤٣ .

فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتغاؤكم من فضله ، ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينزل من السماء ماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (١) .

ام لم يكن من التوجيه القرآنى للعقل الانسانى قول الله سبحانه :

« أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، انه كان عليما قديرا ؟ » (٢) .

أو ليس من القرآن الكريم قول الله تعالى :

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة ، وءاثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ؟ » (٣) .

أم لم يكن من التوجيه القرآنى للعقل الانسانى قول الله سبحانه :

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها والقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ؟ » (٤) .

أو ليس من القرآن الكريم قوله سبحانه :

« أفلا ينظروا الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت ؟ » (٥)

هذه جملة من آيات قرآنية كريمة ، تتضمن فى عمومها الأمر الالهى لخلقه ، بالتدبر ، والاعتبار .

وعلى الرغم من هذه الآيات الكثيرة ، ووضوح ارشادها ، فان

---

(١) الروم آية : ٢١ - ٢٤ .

(٢) فاطر آية : ٤٤ .

(٢) غافر آية : ٨٢ .

(٤) ق آية : ٥ ـ ٨ .

(٥) الغاشية آية : ١٧ - ٢٠ .

القرآن غاص بآيات كثيرة اخرى ، تحث على النظر فى الآفاق ، وتثبت أن الله سبحانه :

هو الذى ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده .

وانه الذى خلق السموات والأرض بالحق .

وانه الذى خلق الانسان من نطفة .

وانه الذى خلق الأنعام لنا فيها دفء ومنافع .

وانه الذى انزل لنا من السماء ماء ، منه شراب ، ومنه شجر .

وانه الذى انبت الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ، ومن كل الثمرات .

وانه الذى سخر لنا الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره .

وانه الذى سخر لنا البحر لنأكل منه لحما طريا ، ونستخرج منه حلية نلبسها ، ونرى الفلك مواخر فيه ، ولنبتغى من فضله ، ونقدم له الحمد والشكر ، والثناء الحسن الجميل .

وانه الذى القى فى الأرض رواسى حتى لا تميد بنا ، وجعل لنا فيها أنهارا ، وسبلا نهتدى بها .

وانه الذى خلق الموت والحياة ، لكل ما هو سابح فى متاهات الكون ، وضارب فى دورب الحياة ، ليبلونا اينا احسن عملا .

وانه سبحانه وتعالى خلق كلّ شيء مما نعلمه ، ومما لا نعلمه .

وانه سبحانه وتعالى ، احسن كل شيء خلقه ، فتبارك الله احسن الخالقين .

كل ذلك جاء به القرآن ، ودلنا عليه الاسلام ، ووجهنا اليه الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فكيف يتصور اذن ، بعد هذا البيان ، ان يكون الاسلام فى تخلف بأتباعه ، عن مسايرة العقل ، والانسجام مع واقع الحياة ؟

يقول الامام محمد عبده ، مصورا تماما ، مسايرة الاسلام للعقل ، والانسجام مع واقع الحياة :

« صاح الاسلام بالعقل صيحة أزعجته من سباته ، وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه ، فطر على أن يهتدي بالعلم ، وأعلام الكون ، ودلائل الحوادث ، فأطلق بهذا سلطان العقل ، من كل ما قيده ، وخاصة من كل تقييد كان قد استعبد ، ورده الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته » ا هـ

وصدق : فان الاسلام حينما أمر الناس بأحكام الشريعة أصولها وفروعها ، قرن هذا الأمر ، بوجود العقل المميز ، فاذا ما وجد العقل المميز فى شخص ، خوطب بأحكام الشريعة ، على قدر الطاقة البشرية ، التى أوجدها الله فيه ، ومصداق ذلك ، قول الله تعالى :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت (١) »

وقوله سبحانه :

« لا يكلف الله نفسا الا ما اتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا (٢) »

فالأمر بالتكليف منوط بوجود العقل ، والا لكان فى هذا الأمر اجحاف ، وتكليف بما لا يطاق ، وهذا واضح البطلان ، اذ انه يتنافى وما جاء به القرآن .

ويشهد لهذا ، ما حدثنا به روح بن القاسم ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« لما انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه ، يحاسبكم به الله** .. الآية » اشتد ذلك

---

(١) البقرة آية : ٢٨٦

(٢) الطلاق آية : ٧

على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

« كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد انزلت عليك هذه الآية ، ولا نطيقها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم ؟
قالوا : سمعنا وعصينا ، قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » .

فلما اقترأها القوم ، وجرت بها ألسنتهم ، انزل الله تعالى في أثرها :

« **آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون** .. الآية ، ونسخها الله تعالى ، فأنزل الله :

« **لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت** الآية .. الى آخرها (١) » ا هـ

وكما أن الاسلام قرر ذلك كله ، وأثبت يقينا انه لا عمل على المجنون حتى يصح ، وكذلك السكران حتى يفيق ، والصبي حتى يميز ، فانه اهتم كذلك بالعقل ، حتى أثبت بالدليل ، أن ليس للانسان الا ما عقل .

فكيف يتصور اذن أن يكون في عزلة بأصحابه عن مسايرة العقل ، وواقع الحياة ؟

فهل يصح أن يوجه الخطاب لقوم حرموا نعمة العقل ؟ أم هل يصح أن الاسلام يأمر بالشيء ، وينهى عنه في آن واحد ؟
تناقض عجيب ، وانعكاس مريب .

ان الأمر بالنظر ، والحث على التأمل ، فيما في الكون من آيات ، فيها دلالة قاطعة ، بأن العبد في حاجة ماسة لاستمطار الخير من ربه ، والزيادة من فضله ، فكيف يحول الاسلام بين المرء ، وبين ما هو في حاجة اليه ، وهو الذي يقول في كتابه :

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ؟ »

هذا تناقض أعجب ، اذ أن النقيضين لا يجتمعان .

اذن لم يبق أمام المعاندين الا التسليم بأن الاسلام حق وماعداه باطل .

وبعد : فحسب القرآن الكريم ارشادا للعقل ، وتوجيها له ، قول الله سبحانه :

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون »(١) .

القرآن يرشد العقل ويوجهه الى الخير :

كرم الله بنى آدم ، وحملهم فى البر والبحر ، ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على كثير ممن خلق .

وازداد شأن الاسلام حرصا وتكريما لبنى آدم ، حتى منح الانسان حرية تفكيره ، واستعمال عقله ، كيفما شاء ما دام فى حدود الشريعة التى أتى بها الله ورسوله .

ثم قوى حرص الاسلام على العقل البشرى فأخذ بيده الى ذروة المثل ، يرشده ويوجهه ، ويقوده الى النظر والبحث ، ومنحه الحرية المطلقة فى ذلك كله .

منحه حريته فى النظر ليعتبر ، ومنحه حريته فى البحث ليهتدى الى أن لهذه الآيات الها ؛ بل انه أوجب عليه ذلك وجوبا لا انصراف عنه ، حتى لا يكون الانسان بعقله سابحا فى بحار من الجهل والغرور ، غارقا فى ظلام الجحد والتقليد لما كانت عليه الآباء من الحاد وكفر ، وشرك وفساد .

وما وهب الله تعالى الانسان عقله ليكون شاردا ضالا ؛ لا يعرف قدر نفسه ، ولا أهمية وجوده ، ولا خطورة رسالته ؛

---

(١) البقرة آية : ١٦٤ .

وانما وهبه العقل ليكون له بمثابة الميزان المحكم لتصرفاته ، حتى لا يطغى على حق الله لمرضـاة النـاس ، ولا يطغى على صنف من الناس لمرضاة الآخرين .

ولم يترك الله تعالى الانسان سدى فى هذه الحياة ، يرتع بعقله كما ترتع البهائم ، أو يلعب كما تلعب الصبية ، بل انه سبحانه ، رسم له الطريق الشرعى الواضح ، ومهد له السـبل على لسـان رسوله ، وأعطى كل انسان من التكليف ما يتناسب وطاقته البشرية المحدودة .

وحتى لا يضل الانسان بعقله ، لابد وأن يكون فى كافة تصرفاته ، خاضعا للدين الاسلامى ، مسلما لأحكامه التى شرعها الله تعالى ، وسنها رسوله صلى الله عليه وسلم .

فاذا ما حدث هذا الخضوع ، وتحقق ذلك التسليم ، كان الدين للعقل هاديا وموجها ، وقائدا ومرشدا ؛ وفى ذلك سلامة للأوضاع ، وتحقيق للحقائق ، التى ترضى الله ورسوله .

وكما أن من شرط العـدالة العقليـة واستقامتها ، أن يكون العقل للدين خاضعا ومسلما ، فان من شرط العدالة العقلية أيضا : أن يستقل الانسان بنفسه فى اتجاهه الاعتقادى والبحث فيمـا يوصله الى الهداية والرشاد ، من آيات ؛ مستحفظا حق الله عنده .

فلا يجوز له بأى حال التقليد ، ولا يجوز له كذلك الاقتداء بما كانت عليه الآباء والأجداد من كفر وفساد .

ذلك : أن التقليد والاقتداء على هذا النحو ، أنكره القـرآن الكريم ، ونعى على حال من كانت هذه أوصافهم فقال :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله ، قالوا : بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون (١) »

---

(١) البقرة آية : ١٧٠

وقال سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

« واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، او لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون (١) »

وفى سورة أخرى من سور القرآن الكريم يقول سبحانه :

« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، او لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير (٢) »

ويصور القرآن الكريم ، انكار الله سبحانه وتعالى على المشركين، عبادتهم لغير الله بلا دليل ولا برهان ، وتقليدهم لما كانت عليه الآباء فيقول :

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ » .

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالي ، لم يأت لهم بكتاب قبل شركهم ، يتمسكون به فى شركهم ، أو يجوز لهم عبادتهم لغير الله ؟ كلا .

بل ان منطقهم الباطل ، ودليلهم الكاذب :

« انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون » .

والله تعالى ، تنزه عن أن يقبل زعمهم ، أو يصدق دليلهم ؟ ولذلك أفحمهم ، وأبطل قولهم ، وجعلهم مثلا لغيرهم ، بالانتقام منهم فقال :

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ »

بل قالوا : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون.

وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون .

---

(١) المائدة آية ١٠٤

(٢) لقمان آية : ٢١

قال : او لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم ، قالوا : انا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين (١) »

ذلك هو شأن الذين انساهم الشيطان حظهم من الاستبصار ، ومنعهم تقليدهم الأعمى من التمسك بأسباب الهداية ،

وها هو موقف الاسلام ودوره الفعال فى توجيه الانسان لكل ما يصبو اليه : من فضيلة منشودة ، وسعادة مرجوة .

فهل بقى بعد هذا البيان ، زعم لزاعم ؟ أم ان هذا هو الافتراء الكاذب ، الذى صنعه قوم وأعانهم عليه آخرون ؟

وهل كان حقا أن الاسلام هو العامل الأساسى فى تخلف المسلمين عن ركب الحضارة ، حتى قعد بأتباعه عن مسايرة التقدم والنهوض؟ أم أن هذا قول سفهاء قوم مرقوا عن الدين ، وانتظموا فى سلك الشيطان فكانوا من الأخسرين ؟

وهل كان حقا : أن الاسلام هو الذى حطم مجموعة من الناس، وجعلهم يعيشون خلف أسوار الحياة ؟ أم أن هذا كلام قوم سئلوا الفتنة فأتوها ، وما تلبثوا بها الا يسيرا ؟

ان القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والسيرة العطرة ، كل هذا يدل :

أن الاسلام حقيقة مباركة ، لا يشوبها باطل ، ولا يعوقها عن التقديس افك مختلق .

ولكن أعداء الاسلام فى كل عصر وزمان ، يرون ـ ولم يروا حقا ـ أن ازدهار الاسلام وانتشار دعوته ، يعكر صفوهم ، ويزلزل أركان عقائدهم .

لذلك قامت دولة باطلهم ، وارتفعت شوكة حقدهم ، ثم أعلنوا نتائج خبثهم : الطعن فى الاسلام والتقول عليه بما ليس فيه .

ولست أدرى ، ماذا عليهم لو انصفوا الحق ، وأحسنوا الظن ، وآمنوا بالله وما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ؟

---

(١) الزخرف آية : ٢١ ـ ٢٥

ماذا عليهم لو حدث ذلك منهم ؟؟

انهم لو فعلوا ذلك : لغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ولكن كذبوا ، فأخذهم الله بما كانوا يكذبون .

هذه سنة الله فى الذين أظلمت قلوبهم ، وضعفت نفوسهم ، ويمموا وجوههم شطر الافك المختلق ، فلا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر اليهم ، ولهم عذاب اليم .

أما الذين راقبوا الله لله ، واتبعوا سبيله ، وآمنوا بما نزل على رسوله ، فليس هناك أجمل مما أثنى به القرآن عليهم !

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ، ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون .

نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ما تدعون .

نزلا من غفور رحيم .

ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله ، وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين .

ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى احسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم .

وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم (١) »

ويعقد القرآن الكريم المقارنة بين الذين كذبوا بالاسلام وكفروا به ، وبين الذين آمنوا واتقوا ربهم فيقول :

« وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا ، حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين .

---

(١) فصلت آية : ٣٠ ــ ٣٥

قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيهـا ، فبئس مثـوى المتكبرين .

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين .

وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين » (١)

فشتان بين من كذب بالاسلام وكفر به ، وبين من خاف الله واتقاه وعمل حسابه .

فالمكذب أذل نفسه وركب الشـيطان راسـه ، وباع آخرته بدنياه ، واتبع هواه وكان أمره فرطا .

وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هى المأوى .

ومهما يكن من شيء : فان الاسـلام لا بد من بقاء طهـارته ، واستمرار قداسته ، مهما اشتدت وطأة الحاقدين ، أو اعتركت ضغائن المعاندين .

خاصة : وانه دين واف بحاجات الناس على الرغم من تباين أوصافهم ، واختلاف أوطانهم .

ماذا على المسلم تجاه مزاعم رجال الاستشراق ؟ :

ان كل من يؤمن بالله ربا ، ويرضى بالاسلام دينا ، وبمحمد نبيا ورسولا ، مدين لدينه الاسلامى شرعا ؛

ودين المسلم ، أو المؤمن ، لهذا الدين ، انما يظهر اثره واضحا ؟

---

(١) الزمر آية : ٧١ ـ ٧٥

فى فهم قواعد هذا الدين وأحكامه ، والسير المستقيم على منواله ، والتبصر فى سيره وسلوكه .

انه مدين له بالذود عنه ، والدفاع ضد كل قضية باطلة ، تتوجه اليه للطعن فيه ، والتشهير المزيف بمبادئه .

ولكى يكون المسلم على طاقة لا تقهر ، وقوة لا تغلب ـ حينما يقوم بالذود عن دينه ـ يجب عليه :

١ ـ أن يدرك أولا ، الفكرة الاسلامية الكلية ، عن الكون ، والحياة ، والانسان .

فاذا ما كان على يقين من ادراك هذه الفكرة الشاملة ، استطاع أن يسوق من الأدلة ما يتمشى وواقع هذا الادراك .

واذا ما استطاع أن يسوق من الأدلة ما يتمشى وواقع هذا الادراك لهذه الفكرة الشاملة ، فانه يستطيع بالتالى أن يقنع خصم هذا الدين ، أو يرده عن موقفه ان لم يقدر له الاقناع .

ذلك : أن الانسان فى عجز عن أن يملك ما يقدمه لاقناع خصمه دفعة واحدة الا بادراك الفكرة الاسلامية الكلية ؛ وليس أدل على ذلك من أن الاسلام حينما تولى تنظيم الحياة الانسانية ، فانه لم يعالج نواحى الحياة الانسانية المختلفة جزافا ، وانما عالج هذه النواحى حسبما كان له من فكرة كلية متكاملة ، عن هذا الكون ، وعن هذه الحياة ، وعن هذا الانسان .

كان يرد الى فكرته الكلية جميع الفروع ، ثم يربط اليها نظرياته ، وتشريعاته ، وحدوده ، وعباداته : ومعاملاته ، ثم يصدر حكمه فيها بناء على ما اشتملت عليه فكرته المتكاملة ، دون ارتجال لحالة من الحالات .

فادراك الفكرة الاسلامية الكلية ، من اهم الأمور التى تيسر للباحث فهم الاسلام ، أصوله وفروعه ، كما أنها تيسر للمسلم قوة الحجة التى يقدمها لخصمه .

اذا فهمنا هذا : فاننا نستطيع أن نبين قيمة ما عندنا مما نحب أن نقدمه ونعطيه لهؤلاء الذين دفعتهم حضارتهم المادية ،

أن يعبروا عن الاسلام إنه في انفصال دائم عن الحيـاة ، وفى تأخر بأتباعه عن ركب الحضارة ، والحقيقة أنه لم يكن كذلك .

بل انه ينظر دائما الى الانسان على أنه وحدة لا تنفصل أشواقه الروحية من نزعاته الجسـدية ، ولا تنفك حاجاته المعنوية ، عن حاجاته المادية ، والحياة كلها فى نظره بالنسبة للانسان ، حيـاة تراحم ، وتعاطف ، وتعاون :

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ولا يخذله » .

و « مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

٢ ــ التمسك بالقرآن الكريم ، وسنة النبى صلى الله عليـه وسلم ، والأخذ منهما ، والاستدلال بهما :

« تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى » .

التمسك بالقرآن ، والسنة ، لا ضلال معه ، والأخذ بالقرآن والاستدلال به ، الدواء النـافع لزوال هذه العلل المستعصية ، والمقوم القوى للأهواء الشاردة الملتوية .

ذلك أن القرآن هو : المعين الصافى ، الذى ينهل منه كل وارد ، والبلسم الشافى الذى يقصد اليه كل قاصد ؛ كذلك كان القرآن وكذلك يكون أبدا .

فمن أخذته العـزة بالاثم ، وأعرض صفحا عنـه ، اكتفاء بالاستدلال بالعقل ، فهو لا شك ضال مضل ، مغير نعمة أنعمها الله على خلقه ، موقظ فتنة لعن الله من أيقظها .

أسند عن الحارث عن على رضى الله عنه ، فيما أخرجه الترمذى ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« ستكون فتن كقطع الليل المظلم » . قلت : يا رسول الله ! وما المخرج منها ؟ قال :

« كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم .

هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا :

« انا سمعنا قرآنا عجبا » .

من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » (١) اهـ

ويقول ابن عوف ، فيما رواه البخارى ، رضى الله عنه :

« ثلاث أحبهن لنفسى واخوانى ؛

هذه السنة أن يتعلموها ، ويسألوا عنها .

والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه .

ويدعو الناس الا من خير » (٢)

ويقول سيدنا على رضوان الله تعالى عليه فى كلام طويل له :

« اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغش ، والهادى الذى لا يضل ، والمحدث الذى لا يكذب ، وما جالس هذا القرآن أحد الا قام عنه بزيادة او نقصان ؛ زيادة فى هدى ، ونقصان من عمى ؛

واعلموا : انه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ، ولا لأحد قبل القرآن من غنى .

فاستشفوه من أدوائكم ، واستعينوا به على لأوائكم ، فان فيه الشفاء من أكبر الداء ... » ا هـ

وعن مرة الهمداني يقول : قال عبد الله أ

« ان أحسن الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وان ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » (١)

وكما أن الله سبحانه ، خص القرآن بذلك ، فانه تعالى ، وعد بحفظه ، وكان وعده حقا ، لم تمتد يد عابثة اليه ، ولم تغير آية من آياته ، آراء تريد تحريفه أو تبديله ؛

يقول الامام محمد عبده عن هذا القرآن :

« هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعــه فى حنادس الظلم ، لأفراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ، ويحمدون سراهم بما عرفوا من نجاح مســعاهم ؛ ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البــدع ، وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشــيع ، وطمست بصائرهم ، وفسدت عقولهم بما حشوها من الأباطيل ، وبما عطلوها عن النظر فى الدليل .

هؤلاء فى عمى عن نوره ، وقلوبهم فى أكنة لا يفقهوه ، وفى آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمى صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه ، وطيش الحلم ، وهم يعلمون .

هذه حال الجمهور الأعظم ، ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه فى حربه ، بزعمهم الاجتماعى تحت لوائه ، وما هم منــه فى شيء .

---

(١) رواه الامام البخارى

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم فى حجر الضب الذى دخلوه .

ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله فى عذابهم ؛

فقد قص عليهم سير الأولين ، وبين لهم ما أنزل بهم عندما انحرفوا عن سنته ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهريا ، أحل بهم الذل ، وضربت عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سنتهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذى صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ، ولن تجد لسنة الله تبديل » (١) أ هـ

بهذه الخواطر المليئة بالايمان والحكمة ، عبر الامام عن عظمة القرآن الكريم ، وموقفه من الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة .

ثم بين كذلك : أن الاسلام لن يقف عثرة فى سبيل الحضارة والمدنية ، بل على العكس من ذلك : اذ أن هدفه الأسمي — بعد تحرير العقيدة — أنه يعمل جاهدا ليهذب الحضارة ، وينقى المدنية ، من أوضارها ، حتى تكون هذه أو تلك من أقوى أنصاره ، وأعز أعوانه متى عرفته ، والا فان أجل الحضارة ، عن قريب ينتهى ويزول .

وقد أشار الامام الى ما يطمئن النفوس ، وهو : أن الجمود العقلى الذى نشأ عليه أعداء الاسلام ، لا بد وأنه سيزول . وأقوى الأدلة على ذلك ، بقاء هذا الكتاب الكريم ، بين أيدى المسلمين يقودهم ويرشدهم ويحثهم ويوجههم .

بل ان من أقوى الأدلة على زوال هذا الجمهود : لطف العليم الخبير سبحانه ، واصطفاء الكثير من الرجال الذين يتعاونون فى نصرته ، ويجندون أنفسهم للقيام بخدمته ، وأن هذه الحوادث

---

(١) انظر : الاسلام دين العلم والمدنية .

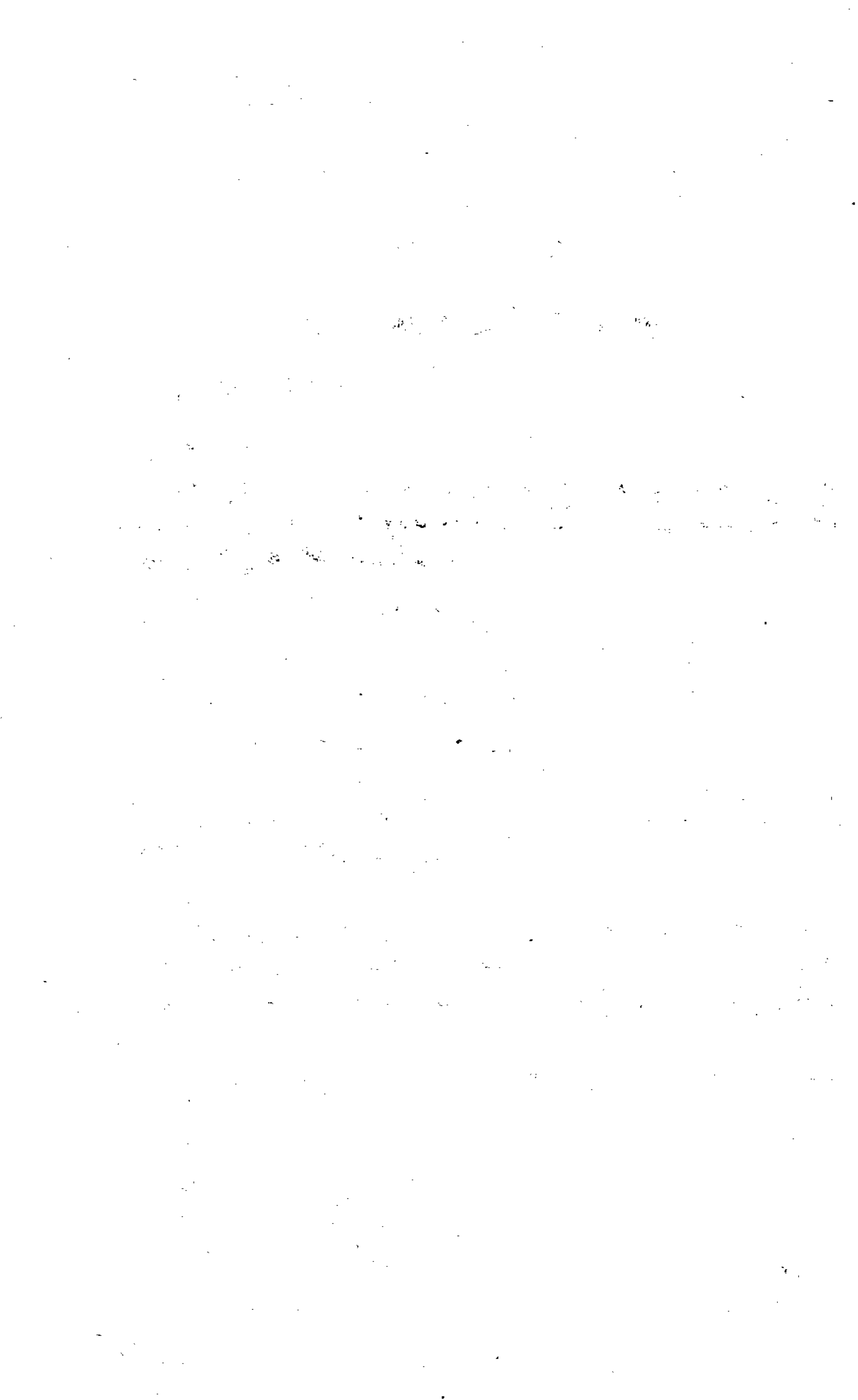
المتوالية ، تسعدهم ، وسوط العذاب النازل من الله بالجامدين ينصرهم .

وما قصده الامام حق ، فالقرآن لا بد وأن يعــود نوره الى الظهور ، وسيمزق بقوته وجبروته حجب هذه الضلالات ، ويرجع ان شاء الله الى موطنه الأول من قلوب المسلمين . لأن الله وعد أن يتم نوره ، ويظهره على الدين كله ؛ فلن ينقضى هذا العالم حتى يتم وعد الله سبحانه ، ويأخذ الاسلام بيد ابنائه واتباعه .

الباب الثالث

من المثل الاسلامية العليا

- مثل الرسول صلى الله عليه وسلم
- في رحاب الجليس والصحبة
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ضوء القرآن والسنة



الفصل الأول

مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

فى رحاب النور الالهى :

يقول الله تعالى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » (١)

ويقول سبحانه واصفا نبيه :

« وانك لعلى خلق عظيم » (٢)

ويقول صلوات الله وسلامه عليه :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وبعد : فان أجل ما يذكر ، وأعظم ما ينبغى أن يتبع ـ لكى يسمو الانسان الى ذروة ما ينبغى الوصول اليه من مثل اسلامية عليا ـ انما هو الاقتداء الحسن بصاحب الخلق الحسن صلى الله عليه وسلم .

والاقتداء الحسن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، انما يكون : بالتأسى بأفعاله ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، واستغراق القلب فى حبه ، وايثار حبه صلى الله عليه وسلم ، عما سوى الحق سبحانه .

عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) المائدة آية : ١٥

(٢) القلم آية : ٤

« لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين »(١) .

ويحدد القرآن الكريم ، المعنى الجليل للاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى سهولة ويسر فيقول :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »(٢) .

والجملة الجليلة الأولى من هـذه الآية الكريمة : **« وما آتاكم الرسول فخذوه »** تشعرنا فى وضوح واضح ، بوجوب التزام طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى كل ما اتى وامر به ، حتى يصل الانسان بطاعتـه صلوات الله وسلامه عليـه ، الى محبة الله له سبحانه : ومغفرة ذنوبه أيضا .

ذلك : أن محبة الله سبحانه وتعالى للانسان ، ومغفرة ذنوبه ، انما يكون ذلك : بالتزام ما اتى به ، الرسول ، صلى الله عليـه وسلم ، من أمر ، والانتهاء التام عن كل ما نهى عنه أيضا .

وفى التزام ما أتى به الرسول امتثالا لأمر الحق سبحانه ، وفى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تعالى أ السعادة التامة ، والفضـيلة الكاملة ، والأس الجامع لخيرى الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى :

« قل ان كنتم تحبون الله ، فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم »(٣) .

ويقول سبحانه :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله »(٤) .

---

(١) رواه الامام مسلم .
(٢) الحشر آية : ٧
(٣) آل عمران آية : ٣١ .
(٤) النساء آية : ٨٠ .

فطاعة الله هى رأس الأمر كله ، ومحبته سبحانه التى هى بلسم الصالحين من عباده ، لن يتحققا الا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما أمر به ، أو نهى عنه .

أما الجملة الباقية من الآية الكريمة وهي : « **وما نهاكم عنه فانتهوا** » فهى توجب كذلك أن يبتعد الانسان عن كل ما يخالف أمر الله سبحانه ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

« لعن الله الواشمات ، والمستوشمات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله عز وجل .

قال : فبلغ امرأة من بنى الأسد فى البيت ، يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت اليه فقالت :

بلغنى أنك قلت : كيت ، وكيت ؟ قال :

مالى لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى كتاب الله تعالى ؟ فقالت :

انى لأقرأ ما بين لوحيه ، فما وجدته . فقال :

ان كنت قرأتيه ، فقد وجدتيه ، أما قرأت :

« **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ؟** »

فقالت : بلى . قال :

فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهى عنه . قالت :

انى لأظن أهلك يفعلونه ؟ قال :

اذهبى فانظرى ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت :

ما رأيت شيئا . قال :

لو كان كذا لم تجامعنا (١) »

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان الثورى .

ويرسم القرآن الكريم طريقى الامتثال لما أمر الله به ، والاجتناب لما نهى عنه ، رسما واضحا صريحا فيقول :

« تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله ، يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم .

ومن يعصى الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين (١) » .

وحدود الله سبحانه ، انما يتحقق القيام عليها ، بطاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فاذا ما حصلت طاعة المولى سبحانه ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، حصل لا محالة الفوز العظيم ، بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، والخلد الدائم ، والنعيم المقيم فى الدار الآخرة .

أما الوقوع فى حدود الله ــ والعياذ بالله ــ فانما يكون بمعصية الله ، ومعصية رسوله ، صلى الله عليه وسلم .

فاذا ما عصى الانسان ربه ، ولم يستجب لدعوة الحق على لسان نبيه ، استحق بلا شك ، ما أعده الله له ، من العقاب الشديد الأليم ، والمكث الطويل فى نار جهنم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يضرب المثل للقائم فى حدود الله ، والواقع فيها ، فى حديث رائع جميل ، فيقول فيما رواه النعمان بن بشير ، رضى الله عنه :

« مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها ، اذا استقوا من الماء ، مروا على من فوقهم ، فقالوا :

لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » (*)

---

(١) النساء آية : ١٣ ، ١٤

فتقوى الله سبحانه اذن أمر لا بد منه ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومتابعته ، لا ينبغى لمسلم ، الانفكاك عنها ، فان تقوى الله هى رأس الأمر كله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومتابعته ، هى ذروة سنام التقوى .

وتقوى الله سبحانه ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لن يتأتى للانسان أن يتحقق بهما الا اذا أذعن الله ولرسوله مسلما ، دون حرج فى النفس ، أو قلق فى القلب ، أو اشمئزاز فى الادراك والفكر .

انه يسلم لله ولرسوله تسليما حتى فيما شجر بينه وبين غيره من خلاف ، بل انه يسلم لله ولرسوله فى كل ما حزبه من أمر ، أو أتاه من قدر ، خيره وشره ، حلوه ومره .

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

يقول العارف بالله تعالى ، ابن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه ، فى قوله :

« فلا وربك لا يؤمنون .. الآية » .

فيه دلالة على أن الايمان الحقيقى ، لا يحصل الا لمن حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، على نفسه ، قولا وفعلا ، وأخذا وتركا ، وحبا وبغضا ، ويشمل ذلك حكم التكليف وحكم التصريف ، والتسليم والانقياد واجب على كل مؤمن فى كليهما .

فأحكام التكليف : الأوامر والنواهى ، المتعلقة باكتساب العباد .

وأحكام التصريف : هو ما أورده عليك ، من قهر المراد .

فتبين من هذا أنه لا يحصل لك حقيقة الايمان الا بأمرين :

بالامتثال لأمره : والاستسلام لقهره .

ثم انه سبحانه وتعالى ، لم يكتف بنفى الايمان ، عمن لم يحكم ، أو حكم ووجد الحرج فى نفسه على ما قضى ، حتى أقسم

على ذلك بالربوبية الخاصة ، برسوله صلى الله عليه وسلم ، رأفة وعناية ، وتخصيصا ورعاية ،

لأنه لم يقل : « فلا والرب » وانما قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » .

ففى ذلك : تأكيد بالقسم ، وتأكيد فى المقسم عليه ، علما منه سبحانه : بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ، ووجود النصرة ، سواء كان الحق عليها ، أو لها ، وفى ذلك اظهار لعنايته برسوله صلى الله عليه وسلم ، اذ جعـــل حكمه حكمة ، وقضاءه قضاءه ، فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه ، والانقياد لأمره ، ولم يقبل منهم الايمان بالاهيته ، حتى يذعنوا لأحكام رسوله ، صلى الله عليه وسلم : لأنه كما وصفه ربه :

« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى »

فحكمه : حكم الله ، وقضاؤه قضاء الله ، كما قال :

« أن الذين يبايعونك ، انما يبايعون الله » . وأكد ذلك بقوله : **« يد الله فوق أيديهم »** .

وفى الآية اشارة أخرى لعظم قدره ، وتفخيم امره ، صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله تعالى :

« فلا وربك »

فاضاف نفسه تعالى اليه ، كما قال فى الآية الأخرى :

« كهعيص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا »

فأضاف الحق سبحانه ، اسمه الى محمـــد صلى الله عليه وسلم : وأضاف زكريا اليه ليعلم العباد ، فرق مابين المنزلتين ، وتفاوت ما بين الرتبتين .

ثم انه تعالى : لم يكتف بالتحكيم الظاهر ، فيكونوا به مؤمنين ، بل اشترط فقدان الحرج ، وهو الضيق من نفوسهم ، فى أحكامه صلى الله عليه وسلم ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها ،

وانما تضيق النفوس ، لفقدان الأنوار ، ووجود الأغيار ، فعنة يكون الحرج : وهو الضيق ، والمؤمنون ليسوا كذلك .

اذ نور الايمان ملأ قلوبهم ، فاتسعت وانشرحت فكانت واسعة بنور الواسع العليم ، ممدودة بوجود فضله العظيم ، مهيأة لواردات أحكامه ، مفوضة اليه فى نقضه وابرامه (١) » اهـ

والقرآن الكريم الذى أوجب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفى الايمان عن الذين لم يحكموا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما شجر بينهم من خلاف .

فان من شرط الايمان الصادق ، تحكيم الله ورسوله ، لا مجرد التحكيم فحسب ، بل انه يصحب التحكيم التفويض التام ، والتسليم المطلق : والاذعان لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

(وجه الحاجة لتقديم مثل الرسول صلى الله عليه وسلم)

رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، لما كان شأنه كذلك ، وكذلك يكون أبدا ، كان من الضرورة الضرورية ، أن يكون الحديث عن مثله العليا ، فى مقدمة حديثنا عن المثل الاسلامية ، اذ أن مثله : هى الأصيل الأصيل : والركن الركين ، الذى تسند اليه المثل الاسلامية العليا : وتنبع منه .

ومثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، من حيث الاحاطة بها ، فان العقل البشرى ، مهما أوتى من فصاحة لسان ، وبلاغة حنان ، وحسن تبيان ، فهو عاجز ، بل انه بالعجز عن الاحاطة بها موصوف ، وبعدم الادراك الشامل لكنه حقيقتها معروف .

وحسب الباحث اقناعا ، ما مدح الله به نبيه ، وأثنى عليه بقوله سبحانه :

---

(١) انظر كتاب : « التنوير » لابن عطا الله السكندرى ص ٣ ، ٤

« وانك لعلى خلق عظيم »

والناظر فى هذه الآية الكريمة ، التى مدح الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، يجد أن الله تعالى قال له :

« وانك لعلى خلق » . ولم يقل له : « وان لك خلق » . أو لم يقل له : « وانك لذو خلق » .

وانما قال له : « وانك لعلى خلق عظيم » .

وفى هذا التعبير الالهى ، اشارة الى أن الأخلاق الكريمة كأنها أتت مجتمعة واستقرت ثابتة ، ثم أجلس الله تعالى : رسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، وهذا من عظيم كرم الله تعالى على نبيه ، وجليل أدبه الذى أدبه به ، فأحسن تأديبه .

وهذا حق يؤيده ، قوله صلى الله عليه وسلم :

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

بل انه حق يعضده قول الحق سبحانه :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، أسوة حسنة ، لكل مؤمن ، بنص القرآن .

بل لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، بأقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، بل انه صلوات الله وسلامه عليه ، الأسوة الحسنة ، بتوجيهاته الحكيمة ، وارشاداته النيرة .

انه الأسوة الحسنة ، والقدوة المباركة ، فى الأعمال الصالحة فى مختلف ميادين الحياة .

ولا شك : أن مثله صلى الله عليه وسلم ، نبراس وضاء ، ومشعل ساطع ، وقبس مضىء ومرشد سليم ، لمن رغب الهداية ، وطلب السعادة ، وابتغى الله تعالى ، والدار الآخر .

لهذا اردت والارادة لله وحده ، وقصدت ميمما وجهى شطر مثل الرسول صلى الله عليه وسلم ، لكى يكون حديثى عنها فى مقدمة الحديث عن المثل الاسلامية العليا ، التى دعا الاسلام اليها .

فنحن أحوج ما نكون الى التزام الأدب مع حضرته صلى الله عليه وسلم ، بل ونحن أحوج ما نكون كذلك ، الى معرفة أخلاقه ، وأفعاله ، اذ الايمان بالشيء فرع عن تصوره .

ونحن نؤمن ايمانا كاملا ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا أقل من أن نكون فى حاجة ماسة ، الى معرفة أخلاقه : وأفعاله، حتى نقتدى به فى أعمالنا ، ونتأسى بأخلاقه فى حياتنا ، ونسعد بنفحة طيبه التى نحب دائما أن نستنشق أريجها ، ونتمتع بعبيرها الخالد ، التى تحف مجالسه الملائكة .

من أجل ذلك : أردت أن أسرد بعض ما نعرفه عن خلق هذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم ، لا كل ما نعرفه ، اذ الحديث عن تمام ما نعرفه عن أخلاقه ، ومكارم صفاته ، يحتاج الى فصول وأبواب ، يتعدد ذلك ، بتعدد مكارم الصفات ، وجليل الخصال ، حسبما كان ، أو يكون فى مقدور البشر ، لا كما هو كائن فى علم الله سبحانه ، مما أدبه به وجمله ، وزينه وحسنه .

أما ما هو كائن فى علم الله تعالى ، مما خلقه به وأدبه ، من عظيم السجايا ، ومحاسن الشيم ، فانه لا يحيط علما بوصف ذلك الا الله سبحانه ، اذ أنه لا يعرف الرسول كما هو الرسول ، الا من اصطفاه للرسالة ، واختاره للعالمين رحمة .

مثاله صلوات الله عليه ، على ضوء القرآن والسنة :

أدب الله تعالى ، نبيه صلى الله عليه وسلم ، بالقرآن : فأحسن تأديبه ، حتى كان يسبح مستغرقا فى عبادته له سبحانه، ثم يخفى ذلك على أصحابه ، لأنه بهم رؤف رحيم .

ثم خلقه بالقرآن أيضا حتى كان خلقه القرآن كما وصفته السيدة عائشة بذلك حينما سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت :

« كان خلقه القرآن »

وازداد خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى كان صلى الله عليه وسلم ، كثير التضرع والابتهال الى الله عز وجل ، دائم السؤال منه سبحانه ، أن يجمله ويزينه ، بمحاسن الأدب ، وعظيم الشمائل ، حتى أصبح ديدنه ، وغذاء روحه ، وتضرعه الدائب فى الابتهال الى ربه :

« اللهم حسن خلقى وخلقى »

روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقول :

« اللهم جنبنى منكرات الأخلاق (١) »

واستجاب الله تعالى دعاءه ، وأنزل عليه القرآن وأدبه به ، حتى كان خلقه القرآن نفسه .

روى الامام مسلم رضى الله عنه قال : قال سعد بن هشام :

« دخلت عائشة رضى الله عنها وعن أبيها ، فسألتها عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت :

أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قلت :

كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، القرآن (٢) » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلقه القرآن بكل ما فى القرآن من بلاغة حنان وحسن بيان ، وقيادة رشيدة ، وتوجيه موفق .

لقد كان خلقه القرآن بكل ما اشتمل عليه القرآن من معانى روحية سامية ، ومبادىء انسانية فائقة ، وقوانين اسلامية عادلة .

---

(١) رواه الترمذى وحسنه .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه رضى الله عنه .

لقد كان القرآن خلقه صلوات الله وسلامه عليه ، بما فى القرآن من عصمة معصومة ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لقد كان القرآن الكريم خلقه حسبما اختاره الله ، وانزله عليه، ليتخلق به ، حتى كان مما تخلق به منه قوله :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (١) » .

وكان منه قوله سبحانه :

« خذ العفو وأمر بالعرف ، واعرض عن الجاهلين (٢) .

وكان منه قوله تعالى :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، انه بما تعملون بصير ، ولا تركنوا الى الذين ظلموا ، فتمسكم النـــار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون .

وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين .

واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين (٣) » .

وكان منه قوله سبحانه :

« فاصفح الصفح الجميل ، ان ربك هو الخلاق العليم ، ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ، لا تمدن عينيك الى ما متعنابه أزواجا منهم ، ولا تحـــزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ، وقل : انى انا النذير المبين ، كما انزلنا على المقتسمين ،

---

(١) آل عمران آية : ١٥٩]

(٢) الأعراف آية : ١٩٩

(٣) هود آية : ١١١ - ١١٥]

الذين جعلوا القرآن عضين ، فوربك لنسئلنهم اجمعين ، عما كانوا يعملون ، فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين (١) »

وكان منه قوله تعالى :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ، وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم ، لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون (٢) »

وكان منه قوله سبحانه :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل ، وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ، ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمود ، وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصير ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا (٣) »

وكان منه قوله تعالى :

« قل ادعوا الله ، أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا ، فانه الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا ، وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيره (٤) ».

---

(١) الحجرات آية : ٨٥ ــ ٩٩

(٢) النحل آية : ١٢٥ ــ ١٢٨

(٣) الاسراء آية : ٧٨ ــ ٨١

(٤) الاسراء آية : ١١٠ ، ١١١

وكان منه قوله سبحانه :

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا (١) » .

وكان منه قوله تعالى :

« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى ، انما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (٢) » .

وكان منه قوله سبحانه :

« فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليه وحيه ، وقل رب زدنى علما (٣) » .

وكان منه قوله تعالى :

« فاصبر على ما يقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل ، فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ، ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ، زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى (٤) » .

وكان منه قوله سبحانه :

« ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون (٥) » .

---

(١) الكهف آية : : ٢٨ .

(٢) الكهف آية : ١١٠ .

(٣) طه آية : ١١٤ .

(٤) طه آية : ١٣٠ ـ ١٣٢ .

(٥) المؤمنون آية : ٩٦ .

وكان منه قوله تعالى :

« وتوكل على الحي الذى لا يموت ، وسبح بحمده ، وكفى به بذنوب عباده خبيرا » (١) .

وكان منه قوله سبحانه :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم ؛ الذى يراك حين تقوم ؛ وتقلبك فى الساجدين ، انه هو السميع العليم » (٢) .

وكان منه قوله تعالى :

« فتوكل على الله ، انك على الحق المبين ، انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ، اذا ولوا مدبرين ، وما انت بهادى العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٣) .

وكان منه قوله سبحانه :

« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » (٤)

وكان منه قوله تعالى :

« اتل ما اوحى اليك من الكتاب واقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ، والله يعلم ما تصنعون » (٥) .

وكان منه قوله سبحانه :

---

(١) الفرقان آية : ٥٨

(٢) الشعراء آية : ٢١٤ ــ ٢٢٠

(٣) النمل آية : ٧٩ ــ ٨١

(٤) القصص آية : ٥٦

(٥) العنكبوت آية : ٤٥

((فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرت الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)) (١) .

وكان منه قوله تعالى :

((يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، ان الله كان عليما حكيما ؛ واتبع ما يوحى اليك من ربك ، ان الله كان بما تعملون خبيرا ؛ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)) (٢) .

وكان منه قوله سبحانه :

((ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)) (٣) .

وكان منه قوله تعالى :

((فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير)) (٤) .

وكان منه قوله سبحانه :

((فاستمسك بالذى أوحى اليك ، انك على صراط مستقيم ، وانه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسئلون)) (٥) .

وكان منه قوله تعالى :

((فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون)) (٦) .

---

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) الاحزاب آية : ١ ــ ٣

(٣) فصلت آية : ٣٤

(٤) الشورى آية : ١٥

(٥) الزخرف آية : ٤٣ ، ٤٤

(٦) الزخرف آية : ٨٩

وكان منه قوله سبحانه :

« فاصبر كما صبر اولوا العـزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا سـاعة من نهـار بلاغ ، فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (١) .

وكان منه قوله تعالى :

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ، واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ، ذلك يوم الخروج ، انا نحن نحيي ونميت والينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ، ذلك حشر علينـا يسير ، نحن أعلم بما يقـولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٢) .

وكان منه قوله سبحانه :

« واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ، وسبح بحمد ربك حين نقوم ، ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » (٣) .

وكان منه قوله تعالى :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد الا الحياة الدنيـا ، ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى » (٤) .

وكان منه قوله سبحانه :

« يا أيهـا النبى لم تحـرم ما احل الله لك ، تبتغى مرضات

---

(١) الاحقاف آية : ٣٥

(٢) ق آية : ٣٩ ـ ٤٥

(٣) الطور آية : ٤٩ ، ٤٩

(٤) النجم آية : ٢٩ ، ٣٠

ازواجك والله غفور رحيم ، قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم » (١) .

وكان منه قوله تعالى :

« فاصبر صبرا جميلا » (٢) .

وكان منه قوله سبحانه :

« يا أيها المزمل ، قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، ان ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا ، ان لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا » (٣) .

وكان منه قوله تعالى :

« يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » (٤) .

وكان منه قوله تعالى :

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ، ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيانه » (٥) .

---

(١) التحريم آية : ١ ، ٢
(٢) المعارج آية : ٥
(٣) المزمل آية : ١ - ١١
(٣) المدثر آية : ١ - ٧
(٥) القيامة آية : ١٦ - ١٩

وكان منه قوله تعالى :

((انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم ءاثما أو كفورا ، واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا)) (١) .

وكان منه قوله سبحانه :

((عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى فأنت عنه تلهى)) (٢) .

وكان منه قوله تعالى :

((فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر)) (٣) .

وكان منه قوله سبحانه :

((ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى انقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا ، فاذا فرغت فانصب ، والى ربك فارغب)) (٤) .

والآيات الواردة لهذا المعنى ، فى القرآن الكريم كثيرة مستفيضة ، وكلها تبين تماما ، أن الله تعالى ، أدب نبيه بالقرآن وحلاه به ، حتى كان القرآن خلقه صلى الله عليه وسلم ، وحسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، شرفا بذلك ، بل وحسب الأمة الاسلامية ، شرفا برسولها ، أن عبر القرآن الكريم عنه بقوله :

((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين)) .

---

(١) الانسان آية : ٢٣ ــ ٢٦.

(٢) عبس آية : ١ ــ ١٠

(٣) الغاشية آية : ٢١ ، ٢٢.

(٤) سورة الانشراح بأكملها

فالنور هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والكتاب المبين ، هو القرآن الذى أنزله الله عليه ، ليخرج الناس من الظلمات الى النــور .

فالرسول نور ، ورسالته نور ، وخلقه نور ، وفى الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، نور ، وفى التخلق بأخلاقه نور ، وفى اتبــاع طريقه نور ، فهو ، وبه ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء .

من جوامع أخلاقه وآدابه صلى الله عليه وسلم :

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله .

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو صاحب الخلق العظيم الحسن ، ذلك : أنه أحلم الناس وأشجعهم ، وأعدل الخلق وأكملهم ، وأكثرهم عطفا وأرحمهم ، وأحسنهم سخاء وأطيبهم ، وأعرفهم بربه وأوصلهم ، وأكرمهم وأعظمهم .

انه الرســول الكريم ، والنبى السخى الحليم ، الذى فاض كرمه وأغدق سخاؤه ، وعظم حلمه وعم ايثاره ، حتى كان لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، ولو فضل شيء عنده ، ولم يجد من يعطيه له ، تبرأ منه ، أو وهبه لمن يحتاج اليه ،

وما ســئل عن شيء صلوات الله وسلامه عليــه ، الا أعطاه لسائله .

ورد فى الصحيحين من حديث جابر رضى الله عنه :

« ما سئل رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، شــيئا قط ، فقال : لا » ا هـ

أما حياؤه وتواضعه : فقد كان صلى الله عليه وسلم ، أشــد الناس حياء ، حتى أنه كان لا يثبت بصره فى وجه أحد ؛

وبلغ شأن تواضعه ، الى أنه لا يعرف للكبر طريقا ، ولا للتكبر سبيلا ، بل انه صلوات الله وسلامه عليه ، كان ســهلا سمحا ، ضاحكا مداعبا ، يمزح ولا يقول الا حقا .

يجيب دعوة الداعى ، عبدا كان أو حرا ،

يوقر الكبير ، ويعطف على الصغير ، يرق على الحيوان ترحما ، ويلبى حاجة المسكين والفقير تواضعا .

يغضب لله وفى الله ، لا لنفسه ولا لهواه ، ينفذ الحقّ مهما كان فيه عليه أو على أصحابه من ضرر ، دون آن يهوله شيء من آمور الدنيا ، ولا يخاف من شيء سوى المولى ؛

لا يهتم لشيء الا وكان لله ، ولا يخشى الخلق دون ان يخشى الله ؛

يحب الطيب من الفعل والقول ، ويكره الخبيث منهما وينهى عنه أيضا .

يرغب فى الطيب من الرائحة ويحبه ، ويكره الردىء منها ويمقته ،

يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم الضيف ويؤثره ، ويحب أهل الفضل فى أخلاقهم ، ويتألف اهل الشرف بالبر لهم .

لا يجفو أحدا ، ولا يرضى بالجفوة على أحد .

يقبل المعذرة ، ويأمر بقبولها من المعتذرين .

لا تمر له آونة فى غير الله ، ولا ينقضى منه يوم الا وفيه صلاح نفسه وهواه .

وكان من جميل صفاته صلى الله عليه وسلم ، أنه عاف غير آخذ ، كاظم غيظه غير فظ ، بل انه كان رحيما لا سبابا ولا لعانا ، صفوح عن الزلات والهفوات ، ما لم يكن فى ذلك معصية الله سبحانه .

لم يلعن أحدا حتى ولو كان مشركا :

روى أبو هريرة رضى الله عنه ، انه قيل له يوما ما ، وهو فى القتال ضد المشركين :

لو لعنتهم (١) يا رسول الله ؟ فقال :

« انما بعثت رحمة ، ولم أبعث لعانا » .

هكذا كان طابع الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى سما به وارتقى الى قمة المجد وذروة سنام الأدب ، حتى كانت المثل العليا ، قطرة من بحره ، أو كوكبا من كواكبه التى أضاء الكون بنورها وعم الأصقاع شعاعها .

وها هو ذا وقد بلغت الرحمة فى قلبه مبلغ العموم الشامل لخلق الله سبحانه ، حتى أنه لو سئل الدعاء على قوم عدل عن ذلك شفقة بهم الى الدعاء لهم :

« اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

طلب الهداية لقومه ، ونفى العلم عنهم ، ولم يقل كما قال نبى الله نوح :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا (٢) » .

بلغت به الرحمة مبلغها حتى كان بنفسه رحمة :

« انما أنا رحمة مهداة » .

وأرسله الله للعالمين رحمة :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (٣) »

فهو للعالمين رحمه ، وبالمؤمنين رءوف رحيم .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم (٤) »

---

(١) يعنى لو لعنت المشركين ودعوت عليهم .
(٢) نوح آية : ٢٦
(٣) الأنبياء آية : ١٠٧
(٤) التوبة آية : ١٢٨

ولما كان صلوات الله وسلامه عليه رحمة مهداة ، وكان رحمة للعالمين ، وكان بالمؤمنين رءوفا رحيما ، كان من تمام طابعه المحمدى، لين الجانب ، ورقة القلب فى المعاملة ، لا مع المؤمنين فحسب ، بل ومع غير المؤمنين أيضا :

روى أبو هريرة رضى الله عنه ، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، يتقاضاه فأغلظ له ، فهم به أصحابه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

دعوه ، فان لصاحب الحق مقالا ، ثم قال :

اعطوه سنا مثل سنه ، قالوا يا رسول الله ! لا نجد الا امثل من سنه ؟ قال :

اعطوه ، فان خيركم أحسنكم قضاء (١) »

خلق كريم ، وقلب رحيم ، ونفس تقية ، وعاطفة كريمة ، ومروءة نادرة فائقة ، تجلت فى شخص نبى الرحمة ، ورسول السلام ، صلى الله عليه وسلم ، حتى ازداد بذلك سموا روحيا على سموه ، وعطفا ربانيا على عطفه ، وارتقى وعلا ، حتى وصل الى ما وصل اليه من التسامح فى بيعه وشرائه ، واخذه وعطائه ، بل وفى حركاته وسكناته .

روى جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« رحم الله رجلا سمحا اذا باع ، واذا اشترى ، واذا اقتضى(٢) »

وازدادشأن سمو التسامح عنده ، حتى انه ترفع ترحما فلم يضرب بيده أحدا قط ، اللهم الا للجهاد فى سبيل الله ،

وما انتقم من شىء ، الا أن تنتهك حرمة لله تعالى ،

وما خير بين أمرين الا واختار الأيسر منهما الا أن يكون فيه اثم أو قطيعة رحم ، فيكون أبعد الناس من ذلك تركا ؛

---

(١) متفق عليه . —

(٢) رواه الامام البخارى

يقول انس رضى الله عنه ، واصفا اخلاق النبى صلى الله عليه وسلم :

« والذى بعثه بالحق ، ما قال فى شىء قط ، كرهه لم فعلته ، ولا ، لامنى من أهله ، الا قال :

دعوه ، انما كان هذا بكتاب وقدر (١) »

وعلا قدر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعظم تواضُعه ، حتى وصل الى أن يبدأ صلوات الله وسلامه عليه ، من لقيه بالسلام أولا ، ويصبر على من يجادله حتى ينصرف ؛ وما أخذ أحد بيده للمصافحة فيرسل يده ، حتى يرسلها الآخر ؛

وازداد تواضعه صلى الله عليه وسلم ، تواضعا ، حتى كان مجلسه لا يعرف من بين مجالس أصحابه ، اذ أنه كان صلوات الله وسلامه عليه ، يجلس حيث ينتهى المجلس ، ولا يجلس ولا يقوم الا على ذكر الله دائما ، وكان يكرم من يدخل عليه ، وربما يؤثره بالوسادة التى من تحته على نفسه .

وما استضافة أحد الا وظن انه أكرم الناس عليه ، اذ أنه كان يعطى كل من كان حوله من الجالسين نصيبه من وجهه ؛ فضلا عن أن مجلسه كان مجلس حياء تام ، وتواضع كامل ، ومروءة كريمة ، وشعور فياض بالكرم والوفاء ، والتوقير والاحترام .

وفوق هذا كان صلى الله عليه وسلم ، أرأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس ، بل انه صلى الله عليه وسلم ، كان أحلاهم كلاما ، وأفصحهم لسانا ، وأقواهم حجة وبرهانا ، لا يقول المنكر ، ولا ينطلق فى الرضا والغضب الا حقا ؛

يمزح ويداعب ، ويهش ويبش ، ولا يقول الا ما يرضى الله سبحانه وتعالى .

أمين عادل ، راغب فى العفو مع القدرة ، منصف للحق وان كان مرا .

عن جابر رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقبض للناس يوم خيبر ، من فضة فى ثوب بلال ، فقال له رجل :

---

(١) رواه الامام الشيخان .

يارسول الله ! أعدل ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ويحك فمن يعـدل اذا لم أعدل ؟ فقـد خبت اذن وخسرت ، ان كنت لا أعدل » .

فقام عمر فقـال :

الا أضرب عنقه ، فانه منافق ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

معاذ الله ، أن يتحدث الناس ، أنى أقتل أصحابى (١) » .

ومثل أعلى يضربه لنا رسول الرأفة والحكمة صلى الله عليـه وسلم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان فى حرب ، فراوا من المسلمين غرة ، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالسيف ، فقال :

من يمنعك منى ؟

فقـال : الله .

قال : فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السيف وقال :

من يمنعك منى ؟ فقال :

كن خير آخذ . قال :

قل : أشهد أن لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ! فقال :

لا غير ، أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معـك ، ولا أكون مع قـوم يقاتلونك .

فخلى سبيله ، فجاء أصحابه ، فقال :

« جئتكم من عند خير الناس (١) » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قسمة ، فقال رجل من الأنصار :

---

(١) رواه الامام مسلم .

(١) متفق عليه من حديث جابر

« هذه قسمة ما أريد بها وجه الله » .

فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فاحمر وجهه ، وقال : رحم الله أخى موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر (١) .

ويصف الامام على كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

« كان أجود الناس كفا ، وأوسع الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة .
من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته :
« لم أر قبله ولا بعده مثله » أ هـ .

ورضى الله عن سيدنا على ، وصلى الله وسلم على هذا النبى ، الذى جمله الله تعالى بما يعجز الوصف عنه ، وتقف الألباب دونه .

وحسبنا مما جمله الله تعالى به ، أن جعله صاحب السبق بالأخبار الصادقة فى الأولين والآخرين ، ومنحه الحظ الوافر من السيرة الفاضلة ، والسياسة الرشيدة والحكم البالغة ، والقيادة السليمة :

« وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وما أجمل ما ترنم به البوصيرى فى مدح هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، فى بردة المديح ، الذى يقول فيها :

فهو الذى تم معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيبا بارىء النسم
منزه عن شريك فى محاسنه
فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب الى ذاته ما شئت من شرف
وانسب الى قدره ما شئت من عظم
فان فضل رسول الله ليس له
حد فيعرب عنه ناطق بفم

---

(١) متفق عليه

لونا سبت قـــدره آياته عظمـــــا
احيا اسمه حـــين يدعى دارس الرمم

لم يمتحنـــا بما تعيـــا العقـــول به
حرصـــا علينـــا فلم نرتب ولـــم نهـــم

أعيا الورى فهـــم معنـــاه فليس يرى
للقـــرب والبعـــد فيـــه غـــير منفحم

كالشمس تظهـــر العينين من بعـــــد
صغـــيرة وتكـــل الطـــرف من أمم

وكيف يدرك فى الدنيـــا حقيقتـــــه
قـــوم نيـــام تسلـــوا عنـــه بالحلم

فمبلـــغ العـــلم فيـــه أنـــه بشر
وانـــه خـــير خلـــق الله كلهـــم

وكل آى أتى الرســـل الكرام بهـــا
فانمـــا اتصـــلت من نـــوره بهـــم

فانه شمس فضـــل هم كواكبهـــا
يظهـــرن أنوارها للنـــاس فى الظلم

اكـــرم بخلـــق نبى زانه خلـــق
بالحسن مشـــتمل بالبشر متســـم

كالزهـــر فى ترف والبـــدر فى شرف
والبحـــر فى كـــرم والـــدهر فى همم

كأنه وهـــو فـــرد من جلالتـــــه
فى عسكر حين تلقـــاه وفى حشـــم

كأنمـــا اللؤلؤ المكنـــون فى صـــدف
من معـــدنى منطق منـــه ومبتســـم

لاطيب يعـــدل تربا ضـــم اعظمـــه
طـــوبى لمنتشـــق منـــه وملتثم

الى آخر هذه القصيدة المشهورة ، التى استفاض فيها البوصيرى فى مدحه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو على شـــوق مشوق ، واخلاص مخلص ، وحب عميق للنبى صلى الله عليه وسلم .

وهكذا وضحت فضائل النبى صلى الله عليه وسلم ، للقاصى والدانى ، وظهرت مكارم أخلاقه التى تفرد بها وحده ، من سماع الأخبار ، وفطنة السياسة ، وسلامة التوجيه ، لأصناف الخلق ، وضبطه للأشخاص ، وائتلافه للقلوب ، وقيادته الموفقة ، وأخذه للأمم والجماعات الى طاعة الحق وحدد سبحانه .

الاقتداء به صلى الله عليه وسلم ، ولزوم طاعته ، والتأدب معه :

يقول الله تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

ان الذى ينعم النظر ، ويحسن التفكير ، فيما تحاكت به السير ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجد ما يثير العجب ، ويثبت الاعجاز .

ذلك : انه صلوات الله وسلامه عليه ، على الرغم من أنه أمى ، لم يمارس التعلم ، ولم يطالع الكتب ، ولم يسافر لطلب العلم ، على الرغم من ذلك :

نجد اجوبته فى مضايق الأسئلة ، ومختلفها ، ونشاهد بدائع تدبيراته فى مصالح الخلق ومهامهم ، واشاراته فى تفصيل ظواهر الشرع وبواطنه ، مما عجزت العرب ، وتقاعدت العجم عن تفهم معانيه ، وادراك أوائله .

ولا عجب فى ذلك لمن اختاره الله لرسالته ، واجتباه لخلقه ، واصطفاه لنفسه ، وصنعه على عينه ، وعلمه مما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيما .

ورسول هذا شأنه ، خليق بالتأدب معه ، والاقتداء به ، ولزوم طاعته :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

والاقتداء به ، ولزوم طاعته ، والتأدب معه ، لا يكون ذلك كله بفهم نماذج تتبع ، أو أحاديث تروى فحسب ، بل لابد وان يكون مع ذلك كله ، حبه صلوات الله وسلامه عليه ، بل وايثار حبه عن كل ماسوى الله سبحانه :

روى البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، والنسائى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده ، وولده ، والناس أجمعين (١) » .

ولا عجب أن كان حب النبى صلى الله عليه وسلم ، بهذه المثابة اذ أن من آثار تعظيم الله تعالى له ، اقتران اسمه ، باسمه سبحانه ، فى الشهادة ، وجعل ذلك مناط الاسلام ، وصدق الشهادة ، ومن لا يقر ممن رغب الاسلام دينا برسالته صلى الله عليه وسلم ، لن يقبل اسلامه ، ومن لا يصدق بذلك قلبه لا يتحقق ايمانه كذلك .

ولا شك : أن هذا شأن عظيم ، أكرم الله به رسوله ، وخصه به وحده ، دون من سبقه من الأنبياء والرسل .

وليس أدل على ذلك من رعاية الله له ، وتقديره اياه ، أن جعل دعاءه صلى الله عليه وسلم بين أهله وأصحابه ، غير دعاء بعضهم بعضا ؛ وعظم الله شأنه صلوات الله عليه ، حتى حرم رفع الصوت عنده .

يقول سبحانه :

« لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ، كدعاء بعضكم بعضا ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم (٢) .

ويقول تعالى آمرا عباده بالأدب مع نبيه ، والاحترام التام لرسوله :

« يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، ان الله سميع عليم ؛ يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون ؛

---

(١) اخرجه البخارى ومسلم ، والنسائى

(٢) النور آية : ٦٣

ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم (١))) .

بين الله تعالى ما يجب من المعاملة الحسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أرشد عباده المؤمنين الى الطريق القويم ، والأدب العالى الرفيع فى معاملة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما يتفق مع مكارمه الكريمة ، من الاجلال له ، والتوقير لحضرته ، والمواظبة على حسن معاشرته وصحبته صلى الله عليه وسلم .

والمعنى الجليل التى قصدت اليه الآيات السابقة ، وعنت به المؤمنين من عباد الله سبحانه :

لاتقيسوا دعاءه اياكم على دعاء بعضكم بعضا ، فى جواز الاعراض عنه ، والمساهلة فى اجابته ، والرجوع بغير اذنه ؛ فان المبادرة الى اجابته ، واجبة ، والمراجعة بدون اذنه محرمة .

ولا تجعلوا نداءه وتسميته ، كنداء بعضكم بعضا ، باسمه ورفع الصوت به ، والنداء وراء الحجرات ، ولكن بلقبه المعظم ، مثل يانبى الله ، ويارسول الله (٢) مع التوقير والاحترام ، وخفض الصوت عنده .

وانكم أيها المؤمنون ، لاتتقدموا بين يدى أمر الله ورسوله ، ولا بين يدى نهيهما ، ولا تقطعوا أمرا قبل حكمهما ، بل كونوا تابعين لأمرهما .

ولهذا نفت الآية ، وابطلت الاسراع ؛ فى الأشياء بين يدى الله ورسوله ، وعدم التحدث قبله ، ليكون الجميع تبعا له ،

---

(١) الحجرات آية ١ - ٣

(٢) يؤيد ذلك : أن الله سبحانه وتعالى ، لم يذكر اسمه صلى الله عليه وسلم الا مقرونا بالرسالة ، تعظيما له يقول سبحانه : « وما محمد الا رسول » . ويقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم » ويقول : « محمد رسول الله والذين معه » ويقول على لسان نبيه عيسى : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »

فى مهام الأمور ، وحتى يدخل ذلك فى الأدب الشرعى ، والتخلق بأخلاق أعظم نبى صلى الله عليه وسلم .

والناظر فى حادثة سيدنا معاذ بن جبل ، حينما بعثه الرسول الى اليمن ، يلمح صورة طيبة عن أدب الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا عليه من الأدب المثالى بين يدى الله ، ورسوله ، وعدم التقدم بالقول والفعل ، على حكم الله تعالى ، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين بعث معاذا الى اليمن قال له : بم تحكم ؟ قال :

بكتاب الله تعالى .
قال صلى الله عليه وسلم :
فان لم تجد ؟ قال :
بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قال صلى الله عليه وسلم :
فأن لم تجد ؟ قال رضى الله عنه :
أجتهد رأى .
فضربه فى صدره وقال :

الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ، لما يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهكذا ضرب الصحابى الجليل رضى الله عنه ، أروع ما سجله التاريخ ، لما كان عليه الصحابة ، من الاجلال والتعظيم لقول الله تعالى أولا .

والأدب الكامل والتوقير الفائق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثانيا .

وتأخير الاجتهاد بالرأى انكارا لحب الذات ثالثا .

وفى ذلك : نبل الغاية ، وسلامة القصد ، وايثار حب الله ورسوله ، وعدم التقديم ــ المنهى عنه ــ بين يدى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

ولقد بلغ شأن استجابة الصحابة للأمر الالهى فى قول الحق سبحانه :

« لاتقدموا بين يدى الله ورسوله .... » أن تعدد مفهوم ما ترشد اليه الآية بتعدد ما يتفق ومفهوم كل منهم .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى هذه الآية :

« لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة » اهـ .

وقال مجاهد فى معنى هذه الآية أيضا :

« لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشىء حتى يقضى الله تعالى على لسانه » اهـ .

ويقول الضحاك أيضا فى معناها :

« لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله ، من شرائع دينكم » اهـ .

والمعنى الجامع الذى ترشد اليه الآية حسبما نرى :

لا تعجلوا أيها المؤمنون بقول ولا فعل ، قبل أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يفعل .

فان الأمة بأسرها مأمورة ، بل وجميع الأمم كذلك ، بعدم الخروج عن طاعة الرسول ، وعدم رفع الصوت عنده ، أو فوق صوته ، فان رفع الصوت سبب لاحباط الأعمال وبطلانها ؛ فلا أقل من أن يكون تقديم الآراء ، والعقول ، والأذواق ، باعثا لاحباط العمل ، ومبطلا له أيضا .

وكما اقتضت سنة العلى القدير ، عدم التقديم بين يدى الله ورسوله ، فقد شاءت ارادته سبحانه ، أن يكون النهى عن رفع الصوت عنده صلى الله عليه وسلم ، من الآداب الكريمة ، التى أمر الله المؤمنين وأدبهم بها .

يقول سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض ، ان تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » .

ولم يجعل الله تعالى ، النهى عن رفع الأصوات فوق صوت النبى مجرد أدب فحسب ، وانما جعل ذلك امتحانا للقلوب ، لتظفر بالتقوى ، وتفوز بالمغفرة والجزاء العظيم الأوفى .

يقـول سبحانه وتعالى :

« ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » .

لهذا كان هم الصحابة رضوان الله عليهم وشغلهم الشاغل : الحرص الدائم ، على توقير مرتبة النبوة ، وتعظيم النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى أخذ هذا الأمر اهتمامه البالغ فى قلوبهم ، والعناية به ، بل ان هذا الأمر أخذ مأخذه المثالى من قلوب الصحابة حتى كان أحدهم يتوقع الهلاك لمن ارتفع صوته عند النبى صلى الله عليه وسلم .

فعن نافع بن عمر ، عن ابن أبى مليكة قال :

« كاد الخيران أن يهلكا ، أبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما :

رفعا أصواتهما عند النبى صلى الله عليه وسلم ، حين قدم عليه ركب بنى تميم ، فأشار أحدهما :

بالأقرع بن حابس ، رضى الله عنه ، أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر ، برجل آخر .

قال نافع : لا أحفظ اسمه .

فقال أبو بكر لعمر ، رضى الله عنهما :

ما أردت الا خلافى ؟ قال : ما أردت خلافكَ .

فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله تعالى ؟

---

(١) ليس المقصود هو النهى عن الجهر مطلقا حتى لا يسوغ لهم خطابه الا بالهمس والمخافتة فيشق ذلك عليهم ، وانما المقصود : النهى عن الجهر بصفة مقيدة منعوتة بمماثلة ما اعتاده الناس فيما بينهم مما هو خالى من مراعاة الادب والتعظيم لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم .

« يا ايها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » .

قال ابن الزبير ، رضى الله عنهما :
فما كان عمر رضى الله عنه ، يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد هذه الآية ، حتى يستفهمه (١) » .
وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » .

جلس ثابت(٢) رضى الله عنه ، فى بيته فقال :
أنا من أهل النار ، واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لسعد بن معاذ :

يا أبا عمرو ، ما شأن ثابت اشتكى ؟ فقال سعد رضى الله عنه : أنه لجارى ، وما علمت له بشكوى ، قال :

فأتاه سعد رضى الله عنه ، فذكر له ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ثابت رضى الله عنه :

أنزلت هذه الآية ، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنا من أهل النار .

فذكر ذلك سعد رضى الله عنه ، للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« بل هو من أهل الجنة (٣) » .

وفى رواية أخرى عن محمد بن ثابت بن قيس ، بن شماس ، عن أبيه ، رضى الله عنه قال :

---

(١) رواه الامام البخارى فى صحيحه .
(٢) هو ثابت بن قيس رضى الله عنه
(٣) رواه الامام مسلم

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« أما ترضى أن تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، وتدخل الجنة ؟ فقـال :

رضيت ببشرى الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا أرفع صوتى أبدا على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأنزل الله تعالى :

« ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم » ا هـ .

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه سمع صـوت رجلين فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال :

أتدريان اين انتما ؟ ثم قال : من أين انتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، فقال :

« لو كنتما من اهل المدينة ، لأوجعتكما ضربا » ا هـ .

وهكذا خلع الله سبحانه على قلوب أصحاب رسـوله ، خـلع انعامه ، واختصهم بمحبته ، واقامهم فى خدمته ، ورفع عن قلوبهم حجاب بعده ، فهم بذلك بين يديه ويدى رسوله متأدبون .

وطهر قلوبهم بمعرفته ، وجعلهـا اوعية طاهرة لتـكون أهلا لمغفرته ، ومحلا لنيل مثوبته ، فرضوان الله عليهم أجمعين .

أما الذين اساءوا الأدب فى معـاملة الرسول صلى الله عليـه وسلم ، ولم يراعوا احترامه وتقديره كأجلاف الأعراب الذين تطاولوا فى الطلب من وراء الحجرات وقت شدة الهاجرة وقسوة القيلولة ، فقد نعى القرآن الكريم عليهم حالهم ، وذمهم على سـوء صنيعهم فقـال :

« ان الذين ينـادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم ، لكان خيرا لهم ، والله غفـور رحـيم » .

عاب القرآن سوء تصرف هؤلاء الأجلاف ، وأنكر عليهم اساءة

ادبهم ، ثم عاتبهم على معاملتهم الجافة ، التى لا تتناسب ومقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فبين لهم أنهم لو صبروا ، ولم يتجرؤا بندائهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم على هذه الصورة المستهجنة ، من وراء بيوت نسائه ؛ لكان خيرا لهم ؛ ولكن بندائهم الذى لم يتفق ومكارم الأخلاق ، والذى لا يتناسب وما ينبغى للرسول صلى الله عليه وسلم ، من حسن المعاملة ، وأدب الصحبة ، كان عليهم من الاثم والمعصية ، ما صرفهم عن الصواب ، وأنزل الله فيه قرآنا يتلى .

عن أبى مسلم البجلى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال :

اجتمع اناس من العرب ، فقالوا : انطلقوا بنا الى هذا الرجل ، فان يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وان يك ملكا نعش بجناحه ، قال :

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا الى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته ، يا محمد ، يا محمد ، فأنزل الله تعالى :

« ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » .

قال :

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأذنى فمدها ، فجعل يقول :

« لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد ، لقد صدق الله قولك يا زيد » .

وذات يوم أراد البعض أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفق آرائهم فى اتباع الحوادث ، دون أن يراعوا أن من رأفة الله سبحانه وتعالى بهم ، وحنانه عليهم ، أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيهم وهو منهم ، يبصرهم ويرشدهم ، ويوجههم ويأخذ بأيديهم نحو السعادة التامة والفضائل الكاملة . فقال الله تعالى فيهم :

« واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم

الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمه والله عليم حكيم)) .

بين الله سبحانه فى هذه الآية ، لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله بين اظهركم ، فعظموه ، ووقروه ، وتأدبوا معه ، وانقادوا لرأيه ، وسلموا لحكمه ، وأسلموا قيادكم لأمره ، واستجيبوا له فيما أمركم به ، واجتنبوا كل ما نهاكم عنه ، فانه أعلم بمصالحكم ، وأشفق بكم عنكم ، ورأيه فيكم أتم وأكمل من **رأيكم أنتم لأنفسكم ، لأن رأيكم سخيف بالنسبة الى مراعاة** مصالحكم ، وتقدير ذاتكم ، وحب منفعتكم الدنيويه ؛ ولهذا قال سبحانه :

((لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم)) .

يقول البيضاوى فى هذه الآية :

« المعنى : ان فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها وهى : انكم تريدون أن يتبع رأيكم فى الحوادث ، ولو فعل ذلك لعنتم ، أى لوقعتم فى العنت وهو الجهر والهلاك » أ هـ .

فلو أطاعهم صلوات الله عليه ، فى كل ما يرون ، لأدى ذلك لا محالة الى عنتهم الشديد ، وفساد كثير من أحوالهم ، واضطراب الاكثر من شئون حياتهم .

ولكن شاءت ارادة الله سبحانه ، رعاية هذا الوجود ، وحفظ أناسه ، وانقاذهم من التخبط والضرب فى الأرض بالفساد ، فأوجب عليهم طاعة رسوله ، والانقياد لأوامره ، حتى حبب الله على لسانه صلوات الله وسلامه عليه ، الايمان فى نفوسهم ، وزينه فى قلوبهم ، وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، توطئة لاسباغ نعمه عليهم ، واستحقاقا لاتيان الرشد لهم من مانحه ، واستعدادا للثناء الجميل على مؤتى هذه الآلاء العظيمة ، فكانوا هم الراشدون ، الذين آتاهم الله رشدهم ، وألهمهم صوابهم ، وأصدقهم وعده ، فضلا منه ونعمة .

((ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم)) .

وبعد : فهذه لمحات سريعة ، استعجلنا سردها شوقا لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ، ومراعاة للأدب المثالى معه ، وتعظيما لحقه ، واستدلالا على حميد سيرته ، ومكارم أخلاقه ، وعظيم سجاياه ، ونبل غاياته صلى الله عليه وسلم .

ونختم فصلنا الذى نحن بصدده ، بهذا الحديث الرائع الذى استفاض فيه النبى صلى الله عليه وسلم بالثناء الجميل على ربه عز وجل .

عن أبى رفاعة الزرقى ، عن أبيه قال :

لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« استووا حتى أثنى على ربى عز وجل » .

فصاروا خلفه صفوفا ، فقال صلى الله عليه وسلم :

« اللهم لك الحمد كله » .

اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت .

اللهم ابسط علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، ورزقك .

اللهم انى أسألك النعيم المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول .

اللهم انى أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف .

اللهم انى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، ومن شر ما منعتنا .

اللهم حبب الينا الايمان ، وزينه فى قلوبنا ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين .

اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ، ولا مفتونين .

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ؛

« اللهم قاتل الكفرة ، الذين أوتوا الكتاب اله الحق » (١) اهـ .

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يارسول الله .

---

(١) رواه النسائى .

الفصل الثانى

فى رحاب الجليس والصحبة

من مشكاة الجليس والصحبة :

يقول الله تعالى :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون » (١) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك : اما أن يهديك ، واما أن تبتاع منه ، واما أن تجد منه ريحا طيبة ؛

ونافخ الكير : اما أن تحرق ثيـابك ، واما أن تجـد منه ريحـا خبيثة » .

وفى رواية :

« مثل الجليس السوء ، كمثل صاحب الكير ، ان لم يصبك من سواده ، أصابك من دخانه » ا هـ .

وقال علقمة العطاردى فى وصيته لابنه حين حضرته الوفاة :

« يا بنى اذا عرضت لك الى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من اذا خدمته صانك ، وان صحبته زانك ، وان قعدت بك مؤونة مانك ؛

اصحب من اذا مددت يدك بخير مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وان رأى سيئة سدها ؛

---

(١) هود آية : ١١٣

اصحب من اذا سألته أعطاك ، وان سكت ابتداك ، وان نزلت بك نازلة واساك ،

اصحب من اذا قلت صدق قولك ، وان حاولتما أمرا أمرك ، وان تنازعتما آثرك » اهـ .

بهذه الوصايا الحكيمة : جمع علقمة من محاسن الشيم أعمها وأجملها ، ومن كرائم الأخلاق ، أكرمها وأفضلها ، وفى هذه الوصايا الرشيدة ، الاشارة المغنية الى حقوق الصحبة المطلوبة .

انه وجه لما ينبغى أن تقوم عليه الصحبة المخلصة ، والأخوة الحانية من الصفاء والتقدير ، والمودة والاخلاص .

ولم يكن علقمة هو الذى انفرد بذلك وحده ؛ فقد ذكر بعض الأدباء طرائف جميلة من حسن الخلق ، وما ينبغى أن يتحلى به الصديق ، فقال :

« لا تصحب من الناس الا من يكتم سرك ، ويستر عيبك ، فيكون معك فى النوائب ، ويؤثرك بالرغائب ، وينشر حسنتك ، ويطوى سيئتك ، فان لم تجده ، فلا تصحب الا نفسك » اهـ .

ولهذه الطرائف ، وتلكم الوصايا ، نظائر فى القرآن الكريم ، وفى السنة النبوية ؛

أما نظيره فى القرآن الكريم ، فمنه قول الله تعالى :

« وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن ، وان هم الا يخرصون » (١) .

ومنه قوله سبحانه :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (٢) .

وقوله تعالى :

« ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » (٣) .

---

(١) الانعام آية : ١١٦

(٢) هود آية : ١١٣

(٣) الكهف آية : ٢٨.

وقوله سبحانه :
« فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى » (١) .
وقوله تعالى :

« واتبع سبيل من اناب الى ، ثم الى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون » (٢) .
وقوله سبحانه :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا » (٣) .
وقوله تعالى :
« ولا تتبع سبيل المفسدين » .

وأما نظيره في السنة ، فمنه قوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه :ـ
« المرء على دين خليله فلينظر من يخالل » (٤) .

وجاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ! متى الساعة ؟ قال :

وما أعددت لها ؟ قال :
لا شيء الا أني أحب الله ورسوله ، قال :
أنت مع من أحببت ، ولك ما اكتسبت .
قال أنس :
فما فرحنا بشيء فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : « أنت مع من أحببت » (٥) .

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) طه آية : ١٦

(٢) لقمان آية : ١٥

(٣) النجم آية : ٢٩

(٤) اخرجه ابو داود والترمذي وحسنه الحاكم من حديث ابى هريرة ، وقال صحيح ان شاءالله .

(٥) انظر كشف الغمة للامام الشعراني جـ ١ ص ٢٠٦

« انما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك : اما أن يهديك ، واما أن تبتاع منه ، واما أن تجد منه ريحا طيبة .

ونافخ الكير : اما أن يحرق ثيابك ، واما أن تجد منه ريحا خبيثة » أ هـ

وفى ذلك : زجر ، وتحذير ، ونهى ، عن مصاحبة الفاسق ، ومن على شاكلته ، لما فى صحبة هؤلاء من خطر جسيم ، وبدع سارية وشؤم يتعدى .

فالفاسق ان لم تؤثر فيه النصيحة ، أو لم تجد منه نفعا ، لا تصح صحبته ، فهو لا يستحق الا الهجر والقطيعة ، وعدم اتباع سبيله ، ما دام على حالة فسقه وفجوره ، اذ لا فائدة فى متابعته ، فضلا عما يتوقع منه من ضرر بالغ ، وفحش فاحش ، نهى الله تعالى عنه ، وحذر منه رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهو من غير شك : مصر على فسقه لا يخاف الله فى عصيانه ، ومن لا يخاف الله سبحانه ، لا تؤمن غائلته ، ولا يوثق بصداقته .

يقول سفيان الثورى ، رضى الله عنه ، فى وصية له ، لعلى بن الحسن السليمى :

« اياك وما يفسد عليك عملك وقلبك ، فانما يفسد عليك قلبك مجالسة أهل الدنيا ، وأهل الحرص ، وأخوان الشياطين ، الذين ينفقون أموالهم فى غير طاعة الله .

واياك وما يفسد عليك دينك ، فانما يفسد عليك دينك ، مجالسة ذوى الألسن المكثرين للكلام .

واياك وما يفسد عليك معيشتك ، فانما يفسد عليك معيشتك أهل الحرص وأهل الشهوات .

واياك ومجالسة أهل الجفاء ، ولا تصحب الا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك الا تقى ، ولا تصحب الفاجر ولا تجالسه ، ولا تجالس من يجالسه ، ولا تؤاكله ، ولا تؤاكل من يؤاكله ، ولا تحب من يحبه ، ولا تفش اليه سرك ، ولا تبتسم فى وجهه ، ولا توسع له فى مجلسه فان فعلت شيئا من ذلك فقد قطعت عرى الاسلام » أ هـ

فعلى الانسان أن يتفقد نفسه ، عند شعوره بالميل الى صحبة من يريد ، ثم ينظر الى من يميل الى صحبته ، ويزن أحوال من يميل اليه ، بميزان الشرع الذى لا يطفى على حق فرد لارضاء الآخرين .

فان بدت محاسن أخلاقه ، ووضحت مكارم أحواله مسددة ، فما عليه الا أن يستبشر بحسن الحال ، ويطمئن على دوام الاستقامة والاستقرار ، ويشكر الله سبحانه الذى ينبغى له الشكر فى كل حال .

يشكره سبحانه ، أن جعل مرآته مجلوة ، يلوح له فى مرآة أخيه جمال الخلق ، وحسن الحال ، وعظيم الاستقامة ، ووافر الاستقرار .

وان راى افعال من يريد صحبته على عكس ذلك ، فليأخذ حذره ، ويبتعد عن معاشرته ، ثم يرجع الى نفسه بالاتهام ، لأنه لاح له فى مرآة أخيه ، سوء حاله ، وفساد أخلاقه ، وليس له من الأمر الا الاجتناب عنه ، والا ازداد بصحبته ظلمة ووحشة ، واعوجاجا وانحرافا .

يقول سيدنا عمر رضى الله عنه ، فيما رواه سعيد بن المسيب :

« عليك باخوان الصدق تعش فى أكنافهم ، فانهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء ، وضع أمر أخيك على أحسنه ، حتى يجيئك ما يغلبك منه ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، الا الامين من القوم ، ولا أمين الا من خشى الله .

فلا تصحب الفاجر ، فتتعلم من فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تعالى » أ هـ

ويقول سيدنا جعفر الصادق رضى الله عنه :
لا تصحب خمسة :

الكذاب : فانك منه على غرور ، وهو مثل السراب ، يقرب منك البعيد ، ويبعد منك القريب .

والأحمق : فانك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك .
والبخيل : فانه يقطع بك أحوج ما تكون اليه .

والجبان : فانه يسلمك ويفر عند الشدة .
والفاسق : فانه يبيعك بأكلة أو اقل منها .
فقيل وما أقل منها ؟ قال :
الطمع فيها ، ثم لا ينالها » ا هـ

وغير ذلك من الأخبار التي توضح المعنى ، وتقوى الدليل ، بالارشاد والتوجيه .

معاشرة الفاسق جهالة ، وصحبته ندامة :

على الرغم من خطوره الخمسة الذى حذر من صحبتهم سيدنا جعفر ، الا أن خطر الفاسق اشد ، وشره أسوأ . لهذا نهى عن صحبته ، وأمر بالتثبت من أخباره .

وحسبنا من الادلة التى تصدق هذا ، أن الله تعالى ، أعلم رسوله خطورته ، فقال :

« يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »(١) .

وعلى الرغم من ان الذى جاء بهذا النبأ صحابى من أصحاب رسول الله فان صحبته لم تغن عنه من الحق شيئا ، فأطلق الله سبحانه عليه ، اسم الفاسق ، كما أعربت عن ذلك الآية ، وحثت على التثبت من أخباره حتى لا يكون وراء ذلك :

« أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

واذا كان القرآن الكريم ، صنع هذا الصنيع مع الفاسق ، فلا ضير اذن فى البعد عن متابعة الفاسق بل انه ليجب : البعد عنه والتخلى عن صحبته ، حتى لا يكتسب الانسان اثما ومعصية باتباعه ، فان الله تعالى نهى عن اتباع سبيل المفسدين .

ولكى نوضح بالدليل مدى خطر الفاسق ، نذكر ما حدث ذات يوم للصحابة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم .

فقد أوقد خبر الفاسق نار الفتنة بين الصحابة ، حتى وقع الحرج الشديد بينهم ، ولولا أن من الله عليهم : لحصلت محنة

شديدة ، ونشبت فيهم المعارك الطاحنة ، ولكن الله شاء أن يدافع عن الذين آمنوا ، وينجى المؤمنين من عباده « كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين » .

وفيما يلى بيان ما حدث :

روى الامام أحمد فى مسنده ، أنه سمع الحارث بن أبى ضرار الخزاعى ، رضى الله عنه يقول :

قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعانى الى الاسلام ، فدخلت فيه ، وأقررت به ، ودعانى الى الزكاة فأقررت بها ، وقلت :

يا رسول الله ! أرجع اليهم فأدعوهم الى الاسلام ، وأداء الزكاة فمن استجاب لى جمعت زكاته ، وترسل الى يا رسول الله أبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له ، وبلغ الأبان الذى اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبعث اليه ، احتبس عليه الرسول ، ولم يأته ، وظن الحارث انه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ، ورسوله ، فدعا بسرات قومه ، فقال لهم :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان قد وقت وقتا ، يرسل الى رسوله ، ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الخلف ، ولا أرى حبس رسوله الا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة الى الحارث ، ليقبض ما كان عنده ، مما جمع من الزكاة .

فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطرق فرق ـ أى خاف ـ فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ، يا رسول الله :

ان الحارث قد منعنى الزكاة ، واراد قتلى ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث البعث الى الحارث ، رضى الله عنه ، واقبل الحارث باصحابه ، حتى اذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث .

فلما غشيهم ، قال لهم : الى من بعثتم ؟
قالوا : اليك . قال : ولم ؟ قالوا :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ؟ قال رضى الله عنه :

لا والذى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ، بالحق ، ما رأيته بتة ، ولا أتانى .

فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ قال :

لا والذى بعثك بالحق ، ما رأيته ولا أتانى ، وما أقبلت الا حين احتبس على رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خشيت أن يكون كانت سخطه من الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم .

قال : فنزلت الآية :

((يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)) .

وهكذا كشف الله تعالى مكنون الفاسق ، وأبان كذب خبره ، ونجى الله عباده الأطهار ، وأصحاب رسوله المختار ، وأنزل فى ذلك قرآنا يتلى .

فلابد اذن وأن يتحرى الانسان الرشد فى سماع الأخبار ، ويحرص على فهم طباع الرجال ، ففى ذلك الوقاية من خبث الفاسق ، والسلامة من خطره المفاجىء ، والاطمئنان المطمئن الذى تدوم به الصداقة ، وتستمر العشرة ، باستمرار بقائه .

ولكى تكون الصحبة فى ضمان الاستقرار والبراءة ، ينبغى فيمن تؤثر صحبته ، أن يكون عاقلا ، كريم الخلق حميد السيرة ، حسن الصلة بربه ، غير فاسق ولا مبتدع .

فمن تحلى بذلك ، فهو حرى بالصحبة ، خليق بالمعاشرة ، والا فالترك له أولى .

لأن الطباع مجبولة على التشبه والأخذ ، بل أن الطبع يعدى الطبع كما يقولون .

ومن لم يجد رفيقا يؤاخيه ويؤانسه ويفيده فى هذه المقاصد ، فالوحدة له خير من جليس السوء ، الذى نهى الله ورسوله عنه .
يقول الصحابى الجليل أبو ذر رضى الله عنه :

« الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة » .

وصدق رضى الله عنه ، فان مشاهدة الفساق ، تهون أمر المعصية على القلب ، وتبطل نفرة القلب منها .
يقول سعيد بن المسيب رضى الله عنه :
« تنظروا الى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة ، بل هؤلاء لا سلامة فى مخالطتهم ، وانما السلامة فى الانقطاع عنهم . قال الله تعالى :

« واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(1) .

ركائز الصحبة ودعائم الأخوة :

ان لدوام الصحبة ، وضمان استقرارها ركائز لابد من وجودها ودعائم لابد من تحققها .

من هذه الركائز ومن تلكم الدعائم :

1 – أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك ، فان المسلم لا يكون مسلما الا اذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه ؛ والله تعالى مدح عباده المخلصين فى مودة بعضهم لبعض ، وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم فقال سبحانه :

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون(1) » .

ولأجل أن يتصف الانسان بهذا الوصف الذى أحبه الله سبحانه ، ومدح به أصحابه ، لا بد وأن يكون متفقدا لأحوال أخيه التى ينبغى أن تتفقد ، خاصة أوقات حاجته ، غير غافل عنها ، كما لا يغفل عن أحوال نفسه ، ويغنيه عن السؤال ، واظهار الاستعانة بمعاونته ،

---

(1) الفرقان آية : ٦٣

(1) الحشر آية : ٩

بل ويقوم بحاجته ، وكأنه لا يدرى أنه قام بها ، ولا يرى لنفسه حقا بسبب قيامه بها ، فان من السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة تحت ظل عرشه :

« رجل تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وسلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، كان منهم من يتفقد عيال أخيه بعد موته ، ويقوم لهم بحاجتهم ، ويتردد اليهم كل يوم ، ويمونهم من ماله ، كأنهم لا يفقدون من أبيهم الا عينه ، بل انهم كانوا يرون منه ، ما لم يروا من أبيهم فى حياته .

كان يفعل ذلك الكثير منهم سرا دون أن يشعر به أحد ، ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى .

ولنا فى هؤلاء الصحابة أسوة حسنة ، نسير على منوالهم ، ونقتدى بفعالهم ، حتى يتحقق التعاون الذى يحبه الله ورسوله ، والا فلا خير فى الصحبة ، ولا أمل فى دوام العشرة .

يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الطبرانى :
« الا وأن لله أوانى فى أرضه ، وهى القلوب .
فأحب الأوانى الى الله تعالى أصفاها وألينها .

وأرقها أصفاها من الذنوب ، وأصلبها فى الدين ، وأرقها على الاخوان »(1) .

فرقة قلب الأخ على أخيه من أهم العوامل التى تكسب الانسان محبة الله وطاعته ، عز وجل .

ومن البدهى : أن من حق الأخوة الكريمة ، مشاركة الانسان لأخيه فى السراء والضراء ، والسؤال عن عارض عرض له ، وسبب استبطاء العافية عنه ، والدعاء له بأحب أسمائه اليه ، وخير ما تمناه لنفسه فى غيبته ، فان الدعاء بظهر الغيب مستجاب .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه مسلم من حديث أبى الدرداء :

---

(1) رواه الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى باسناد جيد .

« اذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب ، قال الملك : ولك مثل ذلك » .

وقال صلوات الله وسلامه عليه !

« دعوة الرجل لأخيه فى ظهر الغيب لا ترد » .

واذا كان الدعاء بظهر الغيب لا يرد ، فان ثناء الانسان على أخيه بما يعرف من محاسن أحواله من أعظم الأسباب التى تجلب المحبة ، وتقوى عناصر الألفة .

٢ ـ التشمير لحمايته والذود لنصرته :

من حق المسلم على المسلم ، الدفاع عنه ، والذود عن عرضه ، والمطالبة بحقوقه فى غيبته ، مهما قصد الانسان بسوء ، أو اعتدى عليه فى شان من الشئون .

اللهم الا اذا أدى ذلك الى بغضه أو النفور منه ، فما عليه الا أن يعلن الحق ، دون أن يخشى فيه لومة لائم .

فان السكوت على الحق موغر للصدر ، منفر للقلب ، بل أنه تقصير مذموم فى حق الاخوة ، والساكت على الحق شيطان أخرس .

ولقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أن يخذل مسلم مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته ، أو ينقص فيه من عرضه .

عن اسماعيل بن بشير ، قال : سمعت جابر بن عبد الله ، وأبا طلحة بن سهل الانصارى رضى الله عنهما يقولان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مامن امرىء يخذل امرا مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه ، الا خذله الله تعالى فى مواطن يحب فيها نصرته » .

وما من امرىء ينصر امرأ مسلما ، فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، الا نصره الله عز وجل فى مواطن يحب فيها نصرته »(١) .

وروى أبو الدرداء رضى الله عنه ، أن رجلا نال من رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرد عنه رجل فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« من رد عن عرض أخيه ، كان له حجابا من النار » (٢) .

ويوجه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، الأمة الى التضامن والترابط ، ويحثهم على التناصر والتعاون ، فيقول فى حديث نبوى .

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره .. » .

وما دام شأن المسلم كذلك : فان أهمال تمزيق العرض كاهمال تمزيق اللحم ؛ وحسبنا من ذلك ، أن الله تعالى شبه ذلك بمن يأكل لحم أخيه ميتا فقال :

« ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ، فكرهتموه »(٣) .

وحماية الأخوة ، بدفع ذم الأعداء ، ورد تعنت المتعنتين، واجب على كل مسلم .

يقول سيدنا على كرم الله وجهه :

« ان الأمر ينزل من السماء الى الأرض ، كقطرات المطر ، الى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان ، فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة فى أهل ، أو مال ، أو نفس ، فلا تكونن له فتنة ، فان المرء المسلم ، لم يغش دناءة تظهر فيخشه لها اذا ذكرت ، ويغرى بها لئام الناس كان كالفالج(٤) الذى ينتظر أول فوزه من قداحة توجب له المغنم ، ويرفع بها عنه المغرم ؛

---

(١) رواه أبو داود

(٢) رواه الترمذى وحسنه

(٣) الحجرات آية : ١٢

وكذلك المرء المسلم ، البرىء من الخيانة ، ينتظر من الله احدى الحسنيين .

اما داعى الله ، فما عند الله خير له ، واما رزق الله ، فاذا هو ذو اهل ومال ، ومعه دينه وحسبه » أ هـ .

فلا يتأتى لمسلم أن يذكر أخاه فى غيبته الا بما يحب ، ولا يترك عرضه للآخرين ينهشون فيه ، دون أن يذود عنه ، فمن صدق اسلام المرء ، أن لا يرى لأخيه الا ما يحب أن يراه لنفسه ؛

ومن وجد فى نفسه غير ذلك فليس مخلصا ، فان الاخلاص هو :

استواء الغيب والشهادة ، واللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والجماعة والخلوة ، فى كل ما يحب لنفسه ، يحبه لغيره .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمنا » .

وفى رواية للترمذى قال :

« وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

على هذا : فان الاختلال والتفاوت فى شىء من ذلك ، انما يكون مما ذاقه فى المودة ، ودخلا فى الدين ، ووليجة فى طريق المؤمنين .

٣ ـ مواساة الانسان ونصحه وارشاده :

مواساة الانسان لأخيه ، حق ثابت حث الشارع عليه ، وأقامت الصحبة عليه دعائمها .

ذلك : ان المواساة رباط قوى من روابط المحبة ، وكذا اسداء النصح ، والتوجيه ، لكل ما ينفع فى الدنيا ويسعد فى الآخرة .

---

(١) الفالج : المغامر الفائز على مغامره

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، فيما رواه أبو داود من حديث أبى هريرة :

« المؤمن مرآة المؤمن » (١) .

فان ذكر الانسان أخاه بذلك ، ولم يعمل بمقتضى ما علم ، فلم يبق لناصحه الا أن يذكر له آفات فعله ، مخوفا له ، ثم يعرفه بفوائد تركه لصالح عمله ، مع تقبيح القبيح له فى عينه ، وتحسين الحسن فى وجهه ، سرا بينه وبينه ، حتى لا يكون فى نصحه فضيحة لا شفقة عليه فيها .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ، ناهيا عن ذلك :

« النصيحة فى الملأ فضيحة » .

ويقول الشافعى رضى الله عنه :

« من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه » أ هـ .

والشفقة بالمؤمنين ، واسداء النصيحة لهم ، أمر حث عليه الشارع ، وحذر من خلافه .

والتنبيه على مالا يعلم ، هو عنصر استمالة القلوب الواعية الى كمال المحبة ؛ ولهذا كان التلطف فى النصح ، والاجمال فى الطلب ، أمرا ضروريا ، يقوم الشأن ، ويجمع الشمل ، ويعيد السيرة الحميدة الى الصلاح والورع ، بل ان ذلك يعد من قمة المثل العليا التى حرص الاسلام عليها .

٤ ـ العفو عنه والاحسان اليه :

يقول الله تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٢) .

---

(١) رواه أبو داود من حديث أبى هريرة باسناد جيد

(٢) آل عمران آية ١٣٣ ، ١٣٤

قصد المسلم من معاشرة أخيه ، اصلاح نفسه بمراعاته ، وقيامه بحقه ـ كما أوجب الاسلام ذلك ـ وهذا يتطلب ضرورة احتماله عند تقصيره ، والعفو عند هفواته ، خاصة حينما يثبت لديه عذره ، أو يستبين له قهر أمره ، والخروج عن ارادته .

ولهذا مكانة عند الله سبحانه ، مكانة محبة الله للمحسنين من عباده ، الذين يحبهم الله ويحبونه ، فيحتملون الأذى من أجله ، ويعفون عن الأخطاء ، التى مدحهم الله سبحانه بسبب عفوهم عنها ، وطالبهم بالاسراع الى مغفرته ، والدخول فى جنته .

٥ ـ التيسير وترك التكليف :

يقول الله سبحانه :

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

اذا كان الاسلام فى جملة توجيهاته ، وجه المسلمين ، الى تحرى الأسباب الجالبة لدوام الصحبة ، فانه بالتالى وجههم الى ما يحقق ذلك ويربط عراه بين الأصدقاء ، برباط المحبة والوئام ، ذلك : هو التيسير وترك التكليف وصدق الله العظيم اذ يقول :

« وما أنا من المتكلفين » .

ويشرح لنا الامام الغزالى رضى الله عنه معنى التيسير وترك الكليف فيقول :

« لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، بل يروح سره من مهماته وحاجاته ، ويرفهه عن أن يحمله شيئا من أعبائه ، فلا يستمد منه من جاه ومال ، ولا يكلفه التواضع له ، والتفقد لأحواله ، والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته الا الله تعالى ، تبركا بدعائه ، واستئناسا بلقائه ، واستعانة به ، على دينه ، وتقربا الى الله تعالى بالقيام بحقوقه ، وتحمل مؤونته » اهـ .

ويزيد بعض الحكماء ، هذا المعنى وضوحا فيقول :

« من اقتضى من اخوانه مالا يقتضونه ، فقد ظلمهم ، ومن

اقتضى منهم مثل ما يقتضونه ، فقد أتعبهم ، ومن لم يقتض ، فهو المتفضل عليهم » اهـ .

٦ ـ الحب فى الله وادامته الى ما بعد الموت :

الحب فى الله ، من الركائز القوية التى تشيد عليه الصداقة بنيانها ، وتؤسس قوائمها ، ولذا كان حق الصديق على صديقه : ثبات الحب فى الله ، وادامته الى الموت معه ، والى ما بعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فان الحب انما يراد للآخرة .

فاذا ما انقطع قبل الموت ، حبط العمل ، وضاع السعى ، وضل المشى ؛

واذا بقى بعد الموت ، كان مراده فى الآخرة ، أن يظل الله المتحابين تحت ظل عرشه ؛

فان من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه ، يوم لا ظل الا ظله :

« ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه » .

أما مراعاة جميع أصدقاء الصديق وأقاربه ، والمتعلقين به بعد الموت ، فان ذلك من وفاء الأخوة .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أكرم عجوزا دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال :

« انها كانت تأتينا أيام خديجة ، وان كرم العهد من الدين » (١)
وفى رواية : « وان حسن العهد من الايمان » .

فاذا امتنع الوفاء ، شمت الشيطان وفرح ، فان من لعنة الله عليه ، أنه يجهد نفسه لأجل أن يفسد ما بين متحابين فى الله تعالى .
يقول سبحانه :

---

(١) رواه الحاكم من حديث عائشة ، وقال صحيح على شرط الشيخين

« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم » (١) .

ولأجل أن تكون المحبة فى الله ، ينبغى أن يحب المرء ، امتثالا لأمر الله تعالى ، وابتغاء لوجهه سبحانه ، لا لينال منه علما أو عملا ، أو يتوسل به الى أمر وراء ذاته ، فان ثمرات الأخوة والمودة ، أن تكون المحبة فى الله لا لشىء غيره ، ولا لأحد سواه .

واذا كانت مراعاة أصدقاء الصديق بعد موته من وفاء الأخوة ، فان الحب لله سبحانه ، أسمى من ذلك وأعظم .

يقول صلوات الله وسلامه عليه ــ فيما رواه أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه : ــ

« من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الايمان » (٢) .

فاذا أحب الانسان انسانا ، وكان صادقا فى حبه اياه ، كان محبا لله ، لأنه لا يتصور أن يحب شيئا الا لمناسبته لما هو محبوب عنده ، وهو رضا الله عز وجل عنه .

يقول الامام الغزالى ، رضى الله عنه :

« اذا اجتمع فى قلبه محبتان ، محبة الله ، ومحبة الدنيا ، واجتمع فى شخص واحد المعنيان جميعا ، حتى صلح لأن يتوسل به الى الله ، والى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأمرين : فهو من المحبين فى الله ، كمن يحب أستاذه الذى يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة فى المال ، فأحبه من حيث ان طبعه طلب الراحة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، فهو وسيلة اليهما ، فهو محب فى الله » (١) اهـ .

---

(١) الاسراء آية : ٥٣

(٢) انظر كتاب : « احياء علوم الدين » لحجة الاسلام الغزالى ج ٥ طبعة دار الشعب

ومن المعروف بداهة ، بل ومن المعلوم ضرورة أن من يحب لله (١)
لابد وأن يبغض لله أيضا ،

فانك ان أحببت انسانا لأنه مطيع لله سبحانه ، ومحبوب عند الله ، والله راض عنه ، فانك كذلك تبغض الشخص حينما يعمل عملا يغضب الله فيه ، ويغضب الله عليه بسببه .

فالله تعالى يبغضه لمعصيته ، وأنت تبغضه لبغض الله له ، ولخروجه عن طاعة الحق ، لا لغرض شخصى ، ولا لعلة دنيوية .

فمن نظر فى حبه رضا الله سبحانه ، ونظر فى بغضه رضا الله تعالى ، فقد استكمل ايمانه بالله سبحانه وتعالى .

ويشرح الامام الغزالى معنى الحب فى الله ، والبغض فى الله فيقول :

« من أحب بسبب فبالضرورة يبغض لضده ، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وهو مطرد فى الحب والبغض فى العادات ، ولكن كل واحد من الحب والبغض داء دفين فى القلب ، وانما يترشح عند الغلبة ، ويترشح بظهور أفعال المحبين ، والمبغضين ، فى المقاربة والمباعدة ، وفى المخالطة والموافقة .

فان قلت :

فكل مسلم فاسلامه طاعة منه ، فكيف أبغضه مع الاسلام ؟
فأقول : تحبه لاسلامه ، وتبغضه لمعصيته ، وتكون معه على حالة لو قستها بحال كافر أو فاجر أدركت تفرقة بينهما ، وتلك التفرقة حب الاسلام ، وقضاء لحقه » أ هـ .

ولما للحب فى الله من منزلة ترقى بأصحابها الى ذروة الفضائل ، ناسب أن نذكر ما يوضح ذلك ويبينه .

روى أن الله تعالى أوحى الى موسى عليه السلام ، هل عملت لى عملا قط ؟ فقال :

الهى ! انى صليت لك ، وصمت ، وتصدقت ، وزكيت ، فقال :

---

(١) انظر : روح المعانى للالوسى

ان الصلاة لك برهان ، والصوم جنة ، والصدقة ظل ، والزكاة نور ؛ فأى عمل عملت لى ؟

قال موسى :

الهى دلنى على عمل هو لك ؟ قال ياموسى :

هل واليت لى وليا قط ؟ وهل عاديت فى عدوا قط ؟

فعلم موسى أن أفضــل الأعمال ، الحب فى الله ، والبغض فى الله (١) » اهـ .

وقال عيسى عليه السلام :

« تحببوا الى الله ببغض أهل المعاصى ، وتقربوا الى الله ، بالتباعد منهم ، والتمسوا رضا الله بسخطهم ؛

قالوا : يارسول الله ، فمن نجالس ؟ قال :

جالسوا من تذكركم الله رؤيتــه ، ومن يزيد فى عملكم كلامه ، ومن يرغبكم فى الآخرة عمله » اهـ .

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :

« والله لو صمت النهار لا افطره ، وقمت الليل لا انامه ، وانفقت مالى غلقا غلقا فى سبيل الله ، أموت يوم أموت ، وليس فى قلبى حب لأهل طاعة الله ، وبغض لأهل معصية الله ما نفعنى ذلك شيئا » اهـ

أما الحديث الذى يحرك القلوب ، ويهز المشاعر ، ويأخــذ النفوس بالهيام والشوق ، فهو :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباســهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ، ولا شــــهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء ، فقالوا يارسول الله !

---

(١) انظر : روح المعانى للآلوسى

صفهم لنا ؟ فقال :

هم المتحابون فى الله ، والمتجالسون فى الله ، والمتزاورون فى الله (١) » .

فالتحاب فى الله ، والأخوة فى دينه ، والقيام بحقوق ذلك مع مراعاة حق الله فيها ، يقرب الى الله زلفى ، والمحافظة على ذلك ، تحقق الدرجات العلى .

هذا هو مجمل ما رأيناه من حقوق الصحبة ، على سبيل التوجيه والارشاد ، لا على طريق البحث والتفصيل .

أما واجب المسلم نحو المسلمين عامة ، وحقوقهم عليه ، فقد أوجب الاسلام كل ما سبق أن ذكرنا من حقوق الصحبة ، مع الاضافة لأمور نذكر منها ما يلى :

١ ـ الاستئذان وافشاء السلام :

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (١) » .

ويقول سبحانه :

« فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة (٢) » .

ويقول جل وعز :

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها (٤) » .

ويقول سبحانه وتعالى :

---

(١) رواه النسائى فى سننه الكبرى ، ورجاله ثقات

(٢) النور آية : ٢٧

(٣) النور آية : ٦١

(٤) النساء آية : ٨٦

« هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ، اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام (١) » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى الاسلام خير ؟ قال :

« تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (٢) »

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لما خلق الله آدم صلى الله عليه وسلم ، قال : اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك ، فانها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال :

السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله فزادوه ، ورحمة الله (٣) » .

آيات قرآنية كريمة ، وأحاديث نبوية شريفة ، كل ذلك فى عمومه ، يشعرنا تمام الاشعار ، أن الاسلام وجه الناس الى الآداب الاجتماعية ، التى يستقر بها حال الأمم ، ويسود معها الأمان ، ويحصل التواد ، ويتحقق الوئام .

لهذا خليق بالمسلم ، ان يسلم على أخيه اذا لقيه ، ويجيبه فى دعوته ، ويشمته اذا عطس ، ويعوده اذا مرض ، ويشهد جنازته ويشيعها ، ويبر قسمه اذا أقسم .

عن البراء بن عازب رضى عنهما قال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بسبع :

بعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وتشميت العاطس ، ونصر الضعيف ، وعون المظلوم ، وافشاء السلام ، وابرار القسم (٤) » .

---

(١) الذاريات آية : ٢٤ ، ٢٥

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه

(٤) متفق عليه

ويجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، افشاء السلام سببا، للتحاب الذى يقوى الايمان ، ويدخل الجنة ، فيقول فيما رواه ابو هريرة رضى الله عنه :

« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ؛ ولا تؤمنوا حتى تحابوا ؛

اولا أدلكم على شىء اذا فعلتموه تحاببتم ؟

أفشوا السلام بينكم (١) » .

فحق المسلم على المسلم ، أن يعامله كما أمر الله سبحانه ؛ ينصح له اذا استنصحه ، ويحفظه بظهر الغيب اذا غاب عنه ؛

يحفظه بالدعاء له ، والأمانة على ماله وعرضه ، كما يحب ذلك لنفسه :

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

أما حق المسلم على المسلم بالنسبة للاذن او الاستئذان فان الله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون .

فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم أرجعوا فأرجعوا ، هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح ، أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا ، فلم يؤذن له ، انصرف ، ثم قال عمر :

الم اسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ؟

فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رجعك ؟ قال :

---

(١) رواه مسلم

(٢) النور آية : ٢٧ ، ٢٨

انى استأذنت ثلاثا ، فلم يؤذن لى ، وانى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

« اذا استأذن أحدكم ثلاثا ، فلم يؤذن له ، فلينصرف »

فقال عمر :

لتأتينى على هذا ببينة ، والا أوجعتك ضربا ، فذهب الى ملأ من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا :

لا يشهد لك الا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدرى ، فأخبر عمر بذلك ، فقال : ألهانى عنه ، الصفق بالأسواق » ا هـ

وعن كلدة بن حنبل قال :

دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم أسلم ، ولم أستأذن ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ (١) »

فالاستئذان قبل السلام والكلام ، لابد منه ، أما المبادرة بالمصافحة ، فحسبها من الأفضلية والمثوبة ، توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، اليها ، وحثه العظيم عليها .

فعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان ، الا غفر لهما قبل أن يتفرقا (١) » .

٢ ـ الرفق واللين :

يقول الله تعالى ، مخاطبا رسوله وموجها عباده ، الى اللين فى القول ، والرفق فى المعاملة :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين (٢) »

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه

(٢) آل عمران آية : ١٥٩

ويقول سبحانه :

« **خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين (١)** » .

ويقول عز وجل :

« **ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور (٢)** » .

خاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، ممتنا عليه وعلى المؤمنين ، فيما الان به قلبه على أمته المتبعين لأمره ، التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه ، فقال له :

« **فبما رحمة من الله لنت لهم** » يعنى : بأى شيء جعلك الله لهم لينا ، لولا رحمته سبحانه وتعالى بك وبهم .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » يعنى : لو كنت سيء الكلام قاسى القلب عليهم ، لا نفضوا عنك ، وتركوك وشأنك ، وانصرفوا عن دعوتك ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، جمعهم عليك ، والان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم ؛ يشهد لذلك ما قاله عبد الله بن عمرو ، اذ يقول :

« انى أرى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الكتب المتقدمة ، أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح » اهـ

ولنا فى هذا أحاديث رائعة لا تحصى ، نذكر منها ما يلى :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأشج عبد القيس :

« ان فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم ، والأناة (٣) » .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأعراف آية : ١٩٩

(٢) الشورى آية : ٤٣

(٣) رواه مسلم فى صحيحه

« أن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله (١) » .

وعنها رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ان الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ، ما لا يعطى على العتق ، وما لا يعطى على ماسواه (٢) » .

ويمدح صلوات الله وسلامه عليه ، الرفق ، ويحث عليه ، فيقول فيما روى عن عائشة ، رضى الله عنها :

« ان الرفق لا يكون فى شىء الا زانه ، ولا ينزع من شىء الا شانه (٣) » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، طبق الرفق تطبيقا عمليا مع أصحابه وعشيرته ، وقومه حتى غمر رفقه صلوات الله عليه ، كل فرد من أفراد الانسانية .

عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم :

هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال :

لقد لقيت من قومك — وكان أشد ما لقيته منهم — يوم العقبة، اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، واذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت فاذا فيها جبريل صلى الله عليه وسلم ، فنادانى فقال :

ان الله تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال يا محمد :

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه الامام مسلم

(٣) رواه مسلم

ان الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربى اليك ، لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ ان شئت أطبقت عليهم الأخشبين ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا (١) » .

ويزداد رفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سموا على سموه ، حتى تناول رفقه اليهود الذين لم يعلنوها حربا شعواء (٢) أيضا .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت :

ان رهطا من اليهود ، دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا :

السام عليك — ومعنى السام الموت — فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، عليكم .

فقالت عائشة رضى الله عنها فقلت :

« بل عليكم السام واللعنة » . فقال عليه الصلاة والسلام : يا عائشة !

ان الله يحب الرفق فى كل شىء . قالت عائشة :

الم تسمع ما قالوا ؟ قال :

فقد قلت : عليكم (٣) » .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه ، أن غلاما شابا اتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله !

---

(١) متفق عليه

(٢) أما الرفق مع اليهود الذين يعلنوها حربا ساخنة ، ففيه الضياع الكامل لمن يرفق بهم لانهم لا يستحقون الرفق أبدا

(٣) متفق عليه

أتأذن لي في الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

قربوه ، أدن .

فدنا حتى جلس بين يديه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم أتحبه لأمك ؟ فقال : لا جعلنى الله فداك . قال :

كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم .

أتحبه لابنتك ؟ قال : لا جعلنى الله فداك ، قال :

كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم .

أتحبه لاخوتك (١) ؟

وزاد ابن عوف : حتى ذكر العمة ، والخالة ، وهو يقول فى كل واحد ، لا ؛ جعلنى الله فداك ، وهو صلى الله عليه وسلم ، يقول كذلك الناس لا يحبونه .

وقالا ابن عوف ، وابو امامة :

فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يده على صدره وقال:

اللهم طهر قلبه ، وأغفر ذنبه ، وحصن فرجه » قال :

فلم يكن شيء أبغض اليه من الزنا » ا هـ .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت :

استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال :

« ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » .

فلما دخل ، الان له القول ، حتى ظننت ان له عنده منزلة ، فلما خرج ، قلت له :

لما دخل قلت الذى قلت : ثم النت له القول ؟ فقال يا عائشة :

---

(١) رواه احمد باسناد جيد

« ان شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ، من تركه الناس اتقاء فحشه (١) » .

فصلوات الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا من ارسلك الله للعالمين رحمة ، واثنى عليك بقوله :

« وانك لعلى خلق عظيم » .

٣ - التوسعة فى المجالس وتوقير علو المنزلة :

يقول الله سبحانه :

« يا ايها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس ، فافسحوا يفسح الله لكم (٢) » .

زاد اهتمام الاسلام بتكريم الانسان ، حتى جعل من حقوق المسلم على أخيه ، أن يوسع له فى المجالس ولا يقم الانسان انسانا من مجلسه للجلوس مكانه ، مهما كان الجالس وضيعا والقادم رفيعا .

يقول صلوات الله وسلامه عليه :

« لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ، ثم يجلس فيه ، لكن توسعوا وتفسحوا (٢) » .

فاذا سلم الداخل ، ولم يجد مجلسا ، فلا ينصرف . بل يجلس حيث انتهى الصف ، خاصة فى مجلس العلم وسماعه . فان الانصراف عن العلم منهى عنه .

يقول ابو واقد الليثى رضى الله عنه :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جالسا فى المسجد ، اذ اقبل ثلاثة نفر ، فأقبل اثنان الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

---

(١) متفق عليه

(٢) المجادلة آية : ١١

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر

فأما احدهما : فوجد فرجة فجلس فيها .

وأما الثانى : فجلس خلفهم .

وأما الثالث : فأدبر ذاهبا .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

الا أخبركم عن النفر الثلاث ؟

اما احدهم : فآوى الى الله ، فآواه الله ؛ وأما الثانى : فاستحيا، فاستحيا الله منه ، وأما الثالث : فأعرض ، فأعرض الله عنه (١) »

اما توقير من تدل هيئته على علو منزلته ، فقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك تطبيقا عمليا مع أصحابه .

روى الحاكم من حديث جابر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه ، حتى غص المجلس ، وامتلأ ، فجاء جرير بن عبد الله البجلى ، فلم يجد مكانا ، فقعد على الباب ، فلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رداءه ، فألقاه اليه ، وقال له :

« اجلس على هذا » .

فأخذه جرير ، ووضعه على وجهه ، وجعل يقبله ويبكى ، ثم لفه ورمى به الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« ما كنت لأجلس على ثوبك ، اكرمك الله كما أكرمتنى » .

فنظر النبى صلى الله عليه وسلم ، يمينا وشمالا ، ثم قال :

« اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه (١) » .

خلق عظيم ، ومثل انسانية كريمة ، ضرب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المثل الأعلى فى معاملته لأصحابه ، بل وفى معاملته

---

(١) متفق عليه .

(١) رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد .

للناس أجمع ، وسار الصحابة الأجلاء ، على نهجه المحمدى القويم ؟ سيرتهم الطويلة ، حتى مدحهم الله بقوله سبحانه :

« رحماء بينهم »

يقول ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى قوله تعالى : « رحماء بينهم » .

يدعو صالحهم لطالحهم ، وطالحهم لصالحهم ، فاذا نظر الطالح الى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال

« اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير ، وثبته عليه ، وانفعنا به » .

واذا نظر الصالح الى الطالح قال :

« اللهم اهده ، وتب عليه ، واغفر له عثرته » أ هـ

ومجمل القول : ان فى المصافحة خير كثير ، وفى التوقير حب العلى القدير ، وفى التوسعة فى المجالس ، رحمة الله وبركاته على العاملين .

فكم من نعم أنعمها الله على خلقه ، وبالشكر يحصل المزيد ؟ وكم من الأمور ما هو ميسور ، والثواب عليه موفور جزيل .

فلك الحمد والشكر ، يا من له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

٤ ـ اصلاح ذات البين :

اوجب الله سبحانه ، الصلح بين المتخاصمين ، رأفة بخلقه ؟ وتكريما لانسانيتهم ، وحث على ذلك القرآن ، وأرشد الرسول عليه الصلاة والسلام .

يقول سبحانه وتعالى :

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا ، أو اعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير (١) »

---

(١) النساء آية ١٢٨ .

وينفى الله تعالى ، الخيرية فى كثير من النجوى ، الا من أمر بصدقة أو معروف ، أو اصلاح بين الناس فيقول :

« لا خير فى كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة ، أو معروف ، أو اصلاح بين الناس (١) » .

وقتال احداهما ان بغت على الأخرى حتى تفىء الى أمر الله فيقول:

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ، ان الله يحب المقسطين (٢) » .

ثم يبين الله سبحانه ، أن المؤمنين اخوة ، وأن الصلح بين الأخوين سبب التقوى والرحمة ، فيقول موضحا ذلك :

« انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون (٣) » .

ولما لاصلاح ذات البين من مكانة سامية ، وغاية منشودة ، وجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، اليه فقال :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ، والصدقة؟ قالوا : بلى . قال :

اصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هى الحالقة (٤) » .

واصلاح ذات البين ، عام فى الدماء ، والأموال ، والأعراض ، وفى كل شيء يقع التداعى والاختلاف فيه بين المسلمين ؛

---

(١) النساء آية : ١٤٤

(٢) الحجرات آية : ٩

(٣) الحجرات آية : ١٠

(٤) رواه أبو داود والترمذى وصححه من حديث أبى الدرداء

وكل كلام يراد به وجه الله سبحانه وتعالى ، فهو لك ، وما عداه عليك . وفى الخبر :

« كلام ابن آدم كله عليه لا له ، الا ما كان من أمر بمعروف ، او نهى عن منكر ، أو ذكر الله تعالى » اهـ

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أنه قال :

« من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة » اهـ

وقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأبى أيوب :

« الا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ؟

تصلح بين أناس اذا تفاسدوا ، وتقرب بينهم اذا تباعدوا » اهـ

وقال الأوزاعى :

« ما خطوة أحب الى الله عز وجل ، من خطوة فى اصلاح ذات البين ، ومن أصلح بين اثنين ، كتب الله له براءة من النار » اهـ

وقال محمد بن المنكدر :

« تنازع رجلان فى ناحية المسجد ، فملت اليهما فلم أزل بهما حتى اصطلحا ، فقال أبو هريرة وهو يرانى :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد (١) » .

٥ ـ المسلم أخو المسلم ، لا يخذله ، ولا يسلمه ، بل ينصره ويؤازره :

يقول الله تعالى :

« انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

---

(١) انظر : « الجامع لأحكام القرآن للقرطبى » جـ ٥ ص ٣٨٥

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تناجشوا ، وكونوا عبا الله اخوانا » .

فالمؤمنون بنص الكتاب والسنة ، اخوة فى الدين والحرمة ، لا فى النسب والقرابة ، ولهذا قيل :

« اخوة الدين ، أثبت من أخوة النسب ، فان أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين ، واخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب » ا هـ

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا .

المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ولا يحقره .

التقوى ها هنا ــ ويشير الى صدره ثلاث مرات ــ بحسب امرىء من الشر ، أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم ، حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه » .

ويحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الظن السيىء ، وينهى عن التحاسد ، والتدابر ، والتباغض فيقول فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه :

« أياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، و كونوا عباد الله اخوانا ، كما أمركم الله تعالى ؛

المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ؛

بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم ، حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه ».

---

(١) رواه الامام مسلم واللفظ له .

ان الله لا ينظر الى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم .

التقوى ههنا ؛ التقوى ههنا ؛ التقوى ههنا ـ ويشير الى صدره ـ الا لا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله اخوانا ؛ ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » (١) أ هـ .

والأحاديث فى هذا الشأن أكثر من أن تحصى ، وهى فى مجموعها تحث على التعاون الاسلامى القوى ، الذى لا ينفصم حبله ، ولا ينقطع سببه ، ولا تنحل عرى محبته .

وحسب الأخوة فى الدين أهمية ، أن جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كالجسد الواحد ، عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » (٢) .

وعن أبى حازم قال :

سمعت سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه ، يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان المؤمن من أهل الايمان بمنزلة الراس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الايمان ، كما يألم الجسد لما فى الرأس » .

٦ ـ الكف عن السخرية والمنع عن الأذى :

يقول الله تعالى ناهيا عن السخرية والاستهزاء :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن .

---

(١) اخرجه الستة الا النسائى . وهذا لفظ مسلم

(٢) متفق عليه

ولا تلمزوا انفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق ، بعد الايمان ، ومن لم يتب ، فأولئك هم الظالمون » (١) .

حرم الله سبحانه ، السخرية ، لما فيها من احتقار الانسان لأخيه الانسان والاستهزاء الذى يوغر الصدر ، ويحدث البغضاء ، ويوقع ما هو مخالف لما امر الله به ، من التوادد والتراحم ، والتعاطف ، وغير ذلك من ملاطفة العشرة .

وأفرد الله سبحانه ، النساء بالذكر بقوله : « ولا نساء من نساء » ، لأن السخرية منهن اكثر .

وعلى الرغم من بيان سبب النهى الالهى عن السخرية ، الا أن هناك حكمة الهية جليلة يعلمها الله سبحانه ، نهى من أجلها عن السخرية والاستهزاء أيضا .

ذلك : أن الانسان تحت رهن اشارة القدر ، وهو فى عجز دائما عن ادراك ما غيب عنه ، وما هو مقدور له .

فهو لا يدرى : ماذا يكون له ؟ أصلاح الحال أم فساده ؛ بل انه لا يدرى حقيقة ما به ، وما هو عليه ، فعلم ذلك موكول الى الله وحده .

فربما سخر بانسان أو استهزأ به ، وهو عند الله أفضل منه ، وأعظم .

« رب أشعث أغبر لو اقسم على الله لأبره » .

لذا نهى الله عن السخرية ، وحذر بنى الانسان ، عن أن يقعوا فى حبائل الشيطان ، فلا يكون لهم فى الآخرة ، الا الندم والخسران ؛ أعاذنا الله من ذلك .

ويكفى المسلم حجة ، ما رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » (١) .

---

(١) الحجرات آية : ١١

(٢) رواه مسلم

يقول القرطبى فى هذا الحديث :

« وهذا حديث عظيم ، يترتب عليه ، ألا يقطع بعيب أحد ، لما يرى عليه من صور وأعمال الطاعة ، أو المخالفة ، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة ، يعلم الله من قلبه وصفا مذموما ، لا تصح معه تلك الأعمال .

ولعل من رأينا عليه تفريطا ، أو معصية ، يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه .

فالأعمال أمارات ظنية لا أدله قطعية ؛ ويترتب عليها عدم الغلو فى تعظيم من رأينا عليه أفعالا صالحة ، وعدم الاحتقار لمسلم ، رأينا عليه أفعالا سيئة ؛ بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة ، لا تلك الذات المسيئة ؛

فتدبر هذا فانه نظر دقيق ، وبالله التوفيق » (٢) ا هـ .

ويقول ابن زيد فى هذا المعنى :

« لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ، ممن كشفه الله ، فلعل اظهار ذنوبه فى الدنيا خير له فى الآخرة » ا هـ .

فلا ينبغى بحال ، أن يجترىء أحد على الاستهزاء بعد هذا البيان ، بمن يقتحمه بعينه اذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة فى بدنه ، أو غير لبيق فى محادثته ... أو ... فلعله أخلص ضميرا ، وأنقى قلبا ، وأصفى نفسا ، ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

ولقد بلغ شأن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، من فرط توقيهم ، وتصونهم ، أن قال عمرو بن شرحبيل :

« لو رأيت رجلا يرضع عنزا ، فضحكت منه ، لخشيت ان اصنع مثل الذى صنع » .

---

(٢) الجامع لاحكام القرآن جـ ١٦ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

وعن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه :

« البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب ، لخشيت أن احول كلبـا » .

أما الاستهزاء باللمز ، فان الله تعالى نهى عنه قائلا :

« ولا تلمزوا أنفسكم » .

يقول الطبراني :

« اللمز » باليد ، والعين ، واللسان ، والاشـارة « والهمز » لا يكون الا باللسان .

وهذه الآية : مثل قوله تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » . اى :

لا يقتل بعضكم بعضا ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، فكأنه بقتل أخيه قاتل نفسه .

وكقوله تعالى : « فسلموا على أنفسكم » . يعنى :

يسلم بعضكم على بعض ؛

والمعنى : لا يعب بعضكم بعضا » (١) .

ففى الآية تنبيه على أنه لا يصح أن يستصغر انسان أخاه ، أو يمقته ، أو يعيب عليه ، فيعيب على نفسه وهو لا يدرى .

والعاقل لا يعيب نفسه ، ولا يعيب غيره ، لأن غيره كنفسه . قال صلى الله عليه وسلم :

« المؤمنون كجسد واحد ، ان اشتكى عضـو منـه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وقال ابو بكر بن عبد الله المزنى :

« كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة ، فيدعى ببعضها ، فعسى أن يكره ، فنزلت الآية : « ولا تنابزوا بالألقاب » (٢) .

---

(١) تفسير الجامع لاحكام القرآن جـ ١٦ ص ٣٢٨

(٢) قال : هذا حديث حسن

فمن لقب أخاه ، أو سخر منه ، كان ممن قال الله فيهم :
« بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » .

ويحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من التنابز ، وينهى أصحابه رضوان الله عليهم نهيا حاسما عن ارتكاب هذا الاثم . فقد جاء أن أبا ذر رضي الله عنه ، كان عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فنازعه رجل ، فقال له أبو ذر :

« يابن اليهودية » . فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« ما ترى ها هنا أحمر ، وأسود ، ما أنت بأفضل منه » . يعنى بالتقوى ؛ ونزلت :

« ولا تنابزوا بالألقاب » (١) .

ويشرح ابن عباس رضى الله عنهما : معنى التنابز فيقول :

« التنابز بالألقاب ، أن يكون الرجل قد عمل السيئات ، ثم تاب ، فنهى الله أن يعبر بما سلف ، يدل عليه ، ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من عير مؤمنا بذنب تاب منه ، كان حقا على الله أن يبتليه به ، ويفضحه فيه فى الدنيا والآخرة » (٢) .

ومجمل ما ترشدنا اليه الآية : يحدثنا عنه أبو عبد الله بن خوير منداد فيقول :

تضمنت الآية المنع من تلقيب الانسان بما يكره ، ويجوز تلقيبه بما يحب ، الا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لقب عمر بالفاروق ، وأبا بكر بالصديق ، وعثمان بذى النورين ، وخزيمة بذى الشهادتين ، وأبا هريرة بذى الشمالين ، وبذى اليدين فى أشباه ذلك » أ هـ .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٢٩

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٦ ٣٢٩

أما الزمخشرى فانه يقـــول : روى عن النبى صلى الله عليــه وســـلم :

« من حق المؤمن على المؤمن ، أن يسميه بأحب أسمائه » .

لهذا كانت التكنيـــة ، والتسمية بأحب الأسماء من الســـنة ، والأدب الحسن .

قال عمررضى الله عنه :

« أشيعوا الكنى فانها منبهة » .

ولقد لقب ابو بكر بالعتيق والصديق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله .

وقل من المشاهير فى الجاهلية والاسلام ، من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة فى الأمم كلهـــا ــ من العرب والعجم ــ تجرى فى مخاطباتهم ، ومكاتباتهم من غير نكير » أ هـ .

والضابط لهذا كله : أن كل ما يكرهه الانسان اذا نودى به ، فلا يجوز لأجل الأذية .

ويشهد لهذا قوله تعالى : « ومن لم يتب » . أى من لم يتب عن هـــذه الألقـــاب التى يتأذى بها السامعون « فأولئك هم الظالمون » لأنفسهم بارتكاب هذه المناهى .

٧ ــ اجتناب الظن السيىء :

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنـــوا اجتنبـــوا كثيرا من الظن ، ان بعض الظن اثم » .

والظن المنهى عنه فى الآية : هو التهمة ، ومحل التحـــذير ، والنهى : انما هو تهمة لا سبب لها يوجبها ، كمن يتهم بالفاحشـــة ، أو بشرب الخمر مثلا ، ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ؛

ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى : «ولا تجسسوا»

وذلك انه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ، ويريد أن يتجسس خبر ذلك ، ويبحث عنه ، ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة ، فنهى النبى صلى الله عليه وسلم ، عن ذلك .

والذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها ، أن كل مالم يعرف له امارة صحيحة ، وسبب ظاهر : كان حراما واجب الاجتناب ؛ وذلك : اذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونست منه الأمانة فى الظاهر ، فظن الفساد به ، والخيانة محرم .

بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث .

فمن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، فظن الفساد به محرم ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« ان الله حرم من المسلم : دمه ، وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء .

فقد تبين من هذا أن الظن على قسمين :

احدهما : تعرف وتقوى ، بوجه من وجوه الأدلة ، فيجوز الحكم به .

والثانى : ان يقع فى النفس شيىء من غير دلالة ، فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهى عنه .

فالظن محمود ، ومذموم . فالمحمود منه : ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه . والمذموم منه : هو ما قال الله فيه : « ان بعض الظن اثم » .

٨ ـ النهى عن التجسس :

يقول الله سبحانه وتعالى ، ناهيا عن التجسس :

« ولا تجسسوا » .

نهى الله تعالى عن التجسس ، وحذر من اتيـانه ، وجاء ذلك النهى فى القرآن الكريم بلفظ صريح ، وهو قوله : « ولا تجسسوا ».

غير أن النهى لم يكن عاما لأنواع التجسس ، فان التجسس اذا كان على الاعداء ، لم يدخل تحت هـذا النهى ، ولم يكن محظـورا بل انه مباح ومطلوب .

أما التجسس الذى عناه القرآن ونهى عنـه ، فهو ما يترتب عليه تتبع عورات المسلمين ، وكشف أسرارهم ، والبحث عن عيوبهم وذلك هو المنهى عنه بقوله أ « ولا تجسسوا » .

والمعنى : خذوا ما ظهر ، ولا تتبعوا عورات المسلمين ، اذ لا يصح أن يبحث أحدكم عن عيب أخيه ، حتى يطلع عليـه بعد أن ستره الله .

وفى كتاب أبى داود عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« انك ان اتبعت عورات النـاس أفسـدتهم ، أو كدت أن تفسـدهم » .

قال أبو الدرداء :

« كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، صلى الله عليه وسـلم ، نفعه الله تعالى بها » .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم :

« يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فان من اتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه فى بيته » .

وقال عبد الرحمن بن عوف :

حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بالمدينة ، اذ تبين لنا سراج فى بيت بابه مجاف على قوم لهم اصوات مرتفعـة ، ولغط ! فقال عمر :

هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شرب ، فما ترى ؟
قلت :

ارى أنا قد اتينا ما نهى الله عنه ، قال الله تعالى :

« ولا تجسسوا » وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم » (١) .

وهاك قصة أخرى ، تبين بيانا لا لبس فيه ، الزجر الحاسم عن التجسس :

قال عمرو بن دينار :

كان رجل من اهل المدينة له أخت فاشتكت ، فكان يعودها ، فماتت فدفنها : فكان هو الذى نزل فى قبرها ، فسقط من كمه كيس فيه دنانير ، فاستعان ببعض أهله ، فنبشوا قبرها ، فأخذ الكيس ثم قال :

لأكشفن حتى أنظر ما آل حال أختى اليه ، فكشف عنها ، فاذا القبر مشتعل نارا ، فجاء الى أمه فقال :

أخبرينى ما كان عمل أختى ؟ فقالت :

قد ماتت أختك ، فما سؤالك عن عملها ؟ فلم يزل بها حتى قالت له :

كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها ، وكانت اذا نام الجيران ، قامت الى بيوتهم فألقمت أذنها أبوابهم، فتتجسس عليهم ، وتخرج أسرارهم . فقال :

بهذا هلكت (٢) » .

٩ - ولا يغتب بعضكم بعضا :

اذا كان الاسلام فى عموم أوامره ، وفى شمول نواهيه ، اهتم بآداب العشرة ، مراعاة لدوام الصحبة ، فان حفظ عرض الانسان

---

(١) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ ١٦ ص ٣٣٢
(٢) تفسير القرطبى جـ ١٦ ص ٣٣٤

فى غيبته ، والذود عن كرامته ، والدفاع عن حقوقه ، من باب أولى .
لهذا نهى الله تعالى عن الغيبة ، فقال

« ولا يغتب بعضكم بعضا ، ايحب احدكم ان ياكل لحم أخيه ميتا »

والغيبة التى نهى الله عنها هى : ان تذكر الانســان فى غيبته بما يكره ، فان كان فيه ما تذكره فقد اغتبته ، والا فقد بهته ، وكل منهما منهى عنه .

عن ابى هريرة ـ فيما رواه الامام مســلم فى صحيحه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا :

الله ورسوله أعلم . قال :

ذكرك أخاك بما يكره ، قيل :

أفرأيت ان كان فى أخى ما أقول ؟ قال :

ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وان لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »

ولقد ثبت فى الصحاح ، والحسان ، والمسانيد ، من غير وجه ، أنه صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الوداع :

ان دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا »

وعن ابى صالح فيما رواه عن ابى هريرة رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كل المسلم على المسلم حرام ، ماله ، وعرضه ، ودمه ،

حسب امرىء من الشر ان يحقر اخاه المسلم »

والأحاديث فى هذا الموضوع لا يتأتى لنا حصرها ، فلنــذكر ما يكفى للاستدل ، حتى لا يكون هناك ريب لشاك ، ركب الشيطان

رأسه ، وأساء صنعه ، واتبع هواه وكان أمره فرطا .
عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال :

خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أسمع العواتق في بيوتها ــ أو قال خدورها ــ فقال :

« يا معشر من آمن بلســانه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوارتهم ، فانه من يتبع عورة أخيه ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه فى جوف بيته »

وفى رواية ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يفض الايمان الى قلبــه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبــع عورات المسلمين ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه ولو فى جوف رحله »

أما ما أعده الله تعالى من عذاب للذين يغتابون ، فذلك يوضحه الحديث التالى :

عن وقاص بن ربيعه ، عن المسور ، أنه حدثه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« من أكل برجل مسلم أكلة ، فان الله يطعمه مثلها فى جهنم .

ومن كسا ثوبا برجل مسلم ، فان الله يكسوه مثله فى جهنم .

ومن قام برجل مقام سمعة ورياء ، فان الله تعالى ، يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة (١) »

ويخبر رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، عن أحوال الذين

---

(١) رواه ابو داود فى سننه

يأكلون لحوم الناس ، وما هم عليه من قبح الصورة ، وبشاعة المنظر فيقول :

« لمــا عرج بي ، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال :

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم (١) » .

ويبين صلوات الله وسلامه عليه ، شأن الذين يغتابون الناس ، من سوء الحال ، وشدة النكال ، فيصور ذلك في حــديث هاك نصه :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنــا يا رســول الله ، حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك ؟

قال : « .... ثم انطلق بي الى خلق من خلق الله كثير ، رجال ونساء ، موكل بهم رجال يعمدون الى عرض جنب أحــدهم ، فيجذون منه الجذة مثل النعل ، ثم يضعونها في أحدهم . فقال له :

كل كما أكلت ، وهو يجد من أكله الموت يا محمد ، يجد الموت ، وهو يكره عليه ، فقلت :

يا جبرائيل ، من هؤلاء ؟ قال :

هؤلاء الهمازون ، اصحاب النميمة ، فيقال :

« ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه » . وهو يكره على أكل لحمه »

شبه الله سبحانه ، الذي يغتاب الناس ، بمن ياكل لحم أخيه ميتا ،

يقول ابن عباس رضي الله عنهما :

« انما ضرب الله هذا المثل للغيبة ، لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين ، وقبيح في النفوس » .

---

(١) رواه أبو داود في سننه

وقال قتادة رضى الله عنه :

« كما يمتنع أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا ، كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا »

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« اياكم وذكر النـــاس ، فانه داء ، وعليكم بذكر الله ، فانه شفاء » .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانه يقف من أجل ذلك مع أصحابه موقفا حاسما يصوره لنا الحديث التالى :

عن أبى هريرة رضى الله عنــه ، ان الأسلمى ماعزا ، جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فشهد على نفسه بالزنى ، فرجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسمع نبى الله صلى الله عليه وسلم ، رجلين من أصحابه ، يقول أحدهما للآخر :

« انظر الى هذا الذى ستر الله عليه ، فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب » .

فكسنت عنهما ، ثم سار ساعة ، حتى مر بجيفة حمار ، شائل برجله ، فقال :

« اين فلان ، وفلان ؟ » فقالا : نحن ذا يا رسول الله ! قال :

« انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » فقالا : يا نبى الله ! ومن يأكل من هذا ؟ قال :

فما نلتما من عرض أخيكما ، أشـــد من الأكل منه ، والذى نفسى بيده ، انه الآن لفى أنهار الجنة ، ينغمس فيها (١) » .

ودور نبوى آخر ، يضرب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اروع نماذج التوجيه لأصحابه :

---

(١) رواه ابو هريرة ، واسناده صحيح .

عن سليمان التيمى قال : سمعت رجلا يحدث فى مجلس أبى عثمان النهدى ، عن عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله !

ان ها هنا امرأتين صامتا ، وانهما كادتا تموتان من العطش ، أراه قال بالهاجرة .

فأعرض عنه ، أوسكت عنه ، فقال : يا نبى الله ! انهما والله قد ماتتا ، أو كادتا تموتان ، فقال :

ادعهما ، فجاءتا . قال :

فجيىء بقدح أوعس ، فقال لاحداهما : قيىء ، فقاءت من قيح ، ودم ، وصديد ، حتى قاءت نصف القدح ، ثم قال للأخرى : قيىء ، فقاءت قيحا ، ودماء ، وصديدا ، ولحما ، ودما عبيطا وغيره ، حتى ملأت القدح ، ثم قال :

ان هاتين صامتا عما احل الله تعالى لهما ، وافطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست احداهما الى الأخرى ، فجعلتا تأكلان لحوم الناس (١) » .

وحادثة أخرى تبين خبث الغيبة ، وقبح رائحتها .

روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال :

كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فى سفر ، فهاجت ريح منتنة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

« أن نفرا من المنافقين ، اغتابوا ناسا من المسلمين ، فلذلك بعثت هذه الريح » .

وقال السدى فى قوله تعالى :

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ »

---

(١) رواه الامام احمد .

أن سلمان رضى الله عنه ، كان مع رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فى سفر يخدمهما ويخف لهما ، وينسال من طعامهما ، وأن سلمان رضى الله عنه ، لما سار الناس ذات يوم وبقى سلمان رضى الله عنه ، نائما ، لم يسر معهم ، فجعل صاحباه يكلمانه فلم يجداه ، فضربا الخباء فقالا :

ما يريد سلمان ، أو هذا العبد شيئا غير هذا ، أن يجيىء الى طعام مقدور ، وخباء مضروب .

فلما جاء سلمان : أرسلاه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطلب لهما اداما .

فانطلق ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه قدح له ، فقال : يا رسول الله !

بعثنى أصحابى لتؤدمهم ، ان كان عندك ؛ قال صلى الله عليه وسلم :

« ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد ائتدموا » .

فرجع سلمان رضى الله عنه ، يخبرهما بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا :

« والذى بعثك بالحق : ما أصبنا طعاما منذ نزلنا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انكما قد ائتدمتما بسلمان بقولكما » . قال : ونزلت :

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم اخيه ميتا » .

وفى رواية أخرى :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كانت العرب تخدم بعضها بعضا فى الأسفار ، وكان مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، رجل يخدمهما ، فناما فاستيقظا ولم يهىء لهما طعاما . فقالا :

ان هذا لنؤوم ، فأيقظاه ، فقالا له :

« ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقل له : ان ابا بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، يقرئانك السلام ، ويستأدمانك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« انهما قد ائتدما » .

فجاءا ، فقال : يا رسول الله !

بأى شيء ائتدمنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« بلحم أخيكما ؛ والذى نفسى بيده ، انى لأرى لحمه بين ثناياكما » فقالا رضى الله عنهما :

استغفر لنا يا رسول الله ! فقال صلى الله عليه وسلم :

« مراه فليستغفر لكما (١) » .

وهكذا اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوجه أصحابه ، ويقرر للناس أجمع :

أنه لن يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولن يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه ، ولن يستقيم لسانه حتى يسلم المسلمون من لسانه ويده .

فمن استطاع أن يلقى الله سبحانه وهو نقى الراحة ، من دماء المسلمين ، وأموالهم ، سليم اللسان من أعراضهم ، فليفعل .

يقول الامام على كرم الله وجهه :

« اياكم وتهزيع الأخلاق وتصريفها ، واجعلوا اللسان واحدا ، وليخزن الرجل لسانه ، فان هذا اللسان جموح بصاحبه .

والله : ما ارى عبدا يتقى تقوى تنفعه ، حتى يخزن لسانه ، وان لسان المؤمن من وراء قلبه ، وان قلب المنافق من وراء لسانه ،

---

(١) رواه الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المختار من طريق حسان بن هلال ، عن حماد بن سلمه عن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

لأن المؤمن اذا اراد أن يتكلم بكلام ، تدبره فى نفسه ، فان كان خيرا ، أبداه ، وان كان شرا واراه .

وان المنافق يتكلم بما أتى على لسانه ، لا يدرى ماذا له ، وماذا عليه » ا هـ

فحفظ اللسان عن ذكر عيوب الناس فى غيبتهم وحضورهم ، من تقوى الله سبحانه .

وذكر مساوىء الانسان ، والتشهير بعيوبه ، والتصريح بأسراره ، والمواجهة له بشىء يكرهه ، من ضروب الغيبة التى حرمها الله تعالى .

والانسان خليق به ان يطالع احوال نفسه ، فربما وجد فيها من المذموم ما يهون عليه ما يراه من خصال ذميمة فى غيره .

فمن ينتظر ان يجد منزها عن كل عيب ، فهو من الذين يجهدون انفسهم دون أمل ولا رجاء ، كالناقش على الماء ، أو كالراقم فى الهواء .

وما من شك : أن مقتضى الأمر من السكوت باللسان ، ليس هو عدم ذكر المساوىء فحسب ، بل ان مقتضى الأمر من السكوت باللسان ، أن يسكت القلب عن ذلك أيضا ، فان القلب هو الأهم ، وهو دائرة معارف الانسان ، ولب حقيقته .

« ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

فستر عيوب الانسان ، والتجاهل عنها ، وسكوت القلب عن ذلك ، شيمة أهل الدين .

ومهما يكن من شىء :

فانه لن يتم ايمان المرء ، ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، واقل درجات الأخوة ، أن يعامل الانسان أخاه بما يجب ان يعامل به .

وكل انسان يحب دائما ستر عورته ، فلا أقل من أن يحافظ على ذلك فى حق غيره ، فان منشأ التقصير ، فى ستر العورة ، أو السعى فى كشفها ، داء دفين فى الباطن ، وخبث خبيث فى الطوية ، وحقد قاتل فى باطن صاحبه ، والله تعالى نهى عن ذلك كله .

جاء فى الأثر أن عيسى عليه السلام ، قال للحواريين :

« كيف تصنعون اذا رأيتم أخاكم نائما ، وقد كشف الريح ثوبه عنه ؟ قالوا :

نستره ونغطيه . قال :

بل تكشفون عورته . قالوا :

سبحان الله ، من يفعل هذا ؟ فقال :

« أحدكم يسمع بالكلمة فى أخيه ، فيزيد عليها ، ويشيعها بأعظم منها » .

ويقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما روى عن أبى برزة الأسلمى ـ :

« يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فان من اتبع عوراتهم ، يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته ، يفضحه فى بيته » .

أما الحافظ الواعى لستر عورة الغير ، فان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه مطمئنا :

« لا يستر عبد عبدا ، الا ستره الله يوم القيامة (١) » .

وبعد : فيقول الامام على رضى الله عنه :

« انما ينبغى لأهل العصمة والمصنوع اليهم فى السلامة ، أن يرحموا أهل الذنوب والمعصية ، ويكون الشكر هو الغالب عليهم ، والحاجز لهم عنهم ؛ فكيف بالغائب الذى غاب أخاه ، وعيره ببلواه ؟

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

اما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه ، ممـا هو أعظم من الذنب الذى عابه ، به !!!

وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله ؟

فان لم يكن ركب ذلك الذنب بعينه ، فقد عصى الله فيما سواه؟ مما هو أعظم منه .

وايم الله ! لئن لم يكن عصاه فى الكبير ، وعصـاه فى الصـغير ، فجراته على عيب الناس أكبر .

يا عبد الله : لا تعجل فى عيب احد بذنبه ، فلعله مغفور له ؟ ولا تأمن على نفسك صغير معصية ، فلعلك معذب عليه ، فليكتف من علم منكم عيب غيره ، لما يعلم من عيب نفسه ، وليكن الشـكر شاغلا له ، على معافاته ، عما ابتلى به غيره » ا هـ

وحتى لا يكون الانسان ممن يتبع الله عوراتهم ، بل ولأجل أن يكون من الذين سترهم الله يوم القيامة ، لابد وأن يتحلى بصفات المؤمنين الواردة فى القرآن ، والسـنة ، وكتب العلمـاء وسـيرة الصالحين :

« قل هذه سبيلى ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ، وما انا من المشركين » .

الفصل الثالث

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على ضوء القرآن والسنة

يقول الله تعالى :

((كنتم خير امة أخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله (١))) .

أعطى الشارع الحكيم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، الحظ الوافر من الرعاية الالهية ، والنصيب الأوفر من الرسالة الخاتمة الاسلامية ، حتى كان شأنهما من الأهمية ـ أن ابتعث الله سبحانه وتعالى الرسول بهما مبشرا ومنذرا ، وأنزل معه الكتاب الذى يحمل مشعل الهداية الرشيدة ، والسناء الحسن اللألاء فى سائر الخلق اجمعين .

والقرآن الكريم ، اشاد بهذين الأمرين ، ووجه عباد الله اليهما ، لما لهما من الأهمية الهامة ، والمكانة السامية ، عن سائر فروع الشريعة ، بعد العقيدة التى هى أصل التوحيد ، وأساس الشريعة الغــراء .

ذلك أن الشريعة فى عمومها : التزام ما شرع الله لعباده من أوامر ، أو نواهى ، وحدود وفرائض ، على لسان أكرم رسول وأعظم نبى صلى الله عليه وسلم .

يقــول سبحانه :

((وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا)) .

ويقول تعالى :

((ثم جعلناك على شريعه من الامر فاتبعها ، ولا تتبع اهواء الذين لايعلمون (٢))) .

---

(١) آل عمران آية : ١١٠

(٢) الجاثية آية : ١٨

وما كانت الأمة الاسلامية فى حقيقتها ، خير أمة أخرجت للناس، الا لأمرها بالمعروف ، ونهيها عن المنكر ، يقول مجاهـد رضى الله عنـه :

« كنتم خير أمة : اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ». وقيـــل

« انما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير امة ، لأن المســلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعــروف والنهى عن المنكر فيهم أفشى (١) » .

ويقول القرطبى فى معنى قوله تعالى : « تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر » :

« مدح لهذه الأمة ، ما اقاموا ذلك واتصفوا به ، فاذا تركوا التغيير ، وتواطئوا على المنكر ، زال عنهم اسم المدح ، ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سببا لهلاكهم » ا هـ .

ويوجه الله سبحانه وتعالى ، عباده الى الخـير والســعادة ، ويحثهم على سبب فلاحهم ، حتى يكونوا صالحين فى الدنيا ، فائزين فى الآخرة ، فيقول :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخـير ، ويأمرون بالمعــروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (٢) .

ولم يكن المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، الا لأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر .

يقـــول ســبحانه :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر (٣) » .

---

(١) انظر كتاب الجامع لاحكام القرآن للقرطبى جـ ٤ ص ١٧١

(٢) آل عمران آية : ١٠٤ هـ

(٣) التوبة آية : ٧١

وجعل الله تعالى ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، الفرق القائم ، بين المؤمنين والمنافقين فقال مخبرا عن ذلك فى هاتين الآتيين :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف » .

« والمؤمنون والمؤمنات ، بعضهم أولياء بعض ، يامرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » .

يقول القرطبى :

« جعل تعالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف المؤمن ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ورأسها الدعاء الى الاسلام ، والقتال عليه » ا هـ

وبالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، يكون الانسان خليفة . أتدرى خليفة لمن ؟ !

قال الحسن رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« من أمر بالمعروف ، أو نهى عن المنكر ، فهو خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه » .

وازداد شأن الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، سموا وتكريما ، حتى أخبر عنهم ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنهم خير الناس عند الله سبحانه .

عن درة بنت أبى لهب قالت :

جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر فقال :

من خير الناس يارسول الله ؟ قال :

آمرهم بالمعروف ، وانهاهم عن المنكر ، واتقاهم لله ، واوصلهم لرحمه » .

وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

ن وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ثبت بالقرآن والسنة ، وقد وردت فى ذلك آيات استفاض القرآن فى ذكرها استفاضة تامة .

ولم يكن القرآن وحده هو الذى حث على ذلك ، بل ان السنة النبوية أشادت بذلك فى أحاديث عدة . منها ما سبق أن ذكرنا ، ومنها ما يلى :

عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى ، الا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره .

ثم انها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل (١) » .

وروى الأئمة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع ، فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان (٢) » .

وعن أبى رقية تميم بن أوس الدارى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« الدين النصيحة » . قيل : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم (٣) » .

---

(١) رواه الامام مسلم .

(٢) رواه الامام مسلم

(٣) رواه الامام مسلم

واخرج ابن أبى شيبة ونعيم ، عن ابن مسعود قال :

اذا رأيت المنكر فلم تستطع له تغييرا ، فحسبك ان يعلم الله أنك تكره بقلبك » .

وعندهما أيضا عنه قال :

ان الرجل يشهد المعصية ، يعمل بها فيكرهها ، فيكون كمن غاب عنها ، ويغيب عنها فيرضاها فيكون كمن شهدها » اهـ .

وما من شك : أن موضوعا مثل هذا ، عضدته الآيات القرآنية ، وأشادت بذكره الأحاديث النبوية ، لو ترك شأنه ، وطوى بساطه ، وأهمل علمه ، وانحرف العمل له ، لتعطلت دعوة النبوة ، ولتوقف تبليغ الرسالة ، واضمحلت الديانة ، وفشت فى الناس الضلالة ، وعاثت الجهالة فى الأرض فسادا ، وكان وشيكا أن تتخرب البلاد ، وأن يصبح شأن العباد قول : « انا لله وانا اليه راجعون » .

لو ترك هـذا الأمر ووضع فى الجوانب ، لاندرس عمله ، وجهل الناس علمه ، وامحقت بالكلية حقيقته ، وانقشعت صورته ، وتغير رسمه ، واستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وامحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى ، وتتبع الشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم .

أخرج الطبرانى عن طارق بن شهاب قال :

جاء عتريس بن عرقوب الشيبانى ، الى عبد الله ، رضى الله عنه ، فقال :

هلك من لم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، فقال :

بل هلك من لم يعرف المعروف ، وينكر المنكر (١) » .

وعن على رضى الله عنه قال : الجهاد ثلاثة :

جهاد بيد ، وجهاد بلسان ، وجهاد بقلب .

---

(١) قال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح .

فأول ما يغلب عليه من الجهاد ، جهاد اليد ، ثم جهاد اللسان ، ثم جهاد القلب .

فاذا كان القلب لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا ، نكس وجعل أعلاه أسفله (١) » .

وعند ابن أبى شيبة ، وأبى نعيم ، ونصر فى الحجة ، عن على قـال :

أول ما تغلبون عليه من الجهاد ، الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ؛

فأى قلب لم يعرف المعروف ، ولم ينكر المنكر ، نكس أعلاه أسفله ، كما ينكس الجراب فينثر ما فيه » .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

الناس ثلاثة ، فما سواهم فلا خير فيه :

رجل رأى فئة تقاتل فى سبيل الله ، فجاهد بنفسه وماله ؛

ورجل جاهد بلسانه ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ؛

ورجل عرف الحق بقلبه (٢) » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

يذهب الصالحون أسلافا ، ويبقى أهل الريب من لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكر (٣) .

واخرج البيهقى عن أبى بكر رضى الله عنه قال :

« اذا عمل قوم بالمعاصى بين ظهرانى قوم هم أعز منهم ، فلم يغيروه عليهم ، أنزل الله عليهم بلاء ، ثم لم ينزعه منهم » .

---

(١) أخرجه مسدود والبيهقى وصححه عن على رضى الله عنه

(٢) أخرجه الطبرانى

(٣) أخرجه أبو نعيم فى الحلية وأخرجه الطبرانى نحوه ورجاله رجال الصحيح

وأخرج أبو نعيم فى الحلية ، عن أبى الرقاد قال :
خرجت مع مولاى ، وأنا غلام ، فدفعت الى حذيفة رضى الله عنه ، وهو يقول :

ان كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيصير بها منافقا ، وانى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد ، أربع مرات ؛

لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتحضن على الخير ، أو ليسحتكم الله جميعا بعذابه ، أو ليأمرن عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم ، فلا يستجاب لكم (١) » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

ستكون أمور ، فمن رضيها ممن غاب عنها ، كان كمن شهدها ، ومن كرهها ممن شهدها فهو كمن غاب عنها (٢) » .

وأخرج البزار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

انكم على بينة من ربكم ، مالم تظهر فيكم سكرتان :

سكرة الجهل ، وسكرة حب العيش ، وأنتم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتجاهدون فى سبيل الله .

فاذا ظهر فيكم حب الدنيا ، فلا تأمرون بالمعروف ، ولا تنهون عن المنكر ، ولا تجاهدون فى سبيل الله .

القائلون يومئذ بالكتاب والسنة ، كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار » .

وعن أبى نعيم عن أبى الرقاد قال :

لعن الله من ليس منا ؛

---

(١) اخرجه ابن ابى شيبة

(٢) رواه ابو نعيم وابن النجار عن ابن مسعود رضى الله عنه .

والله لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو لتقتلن بينكم ، فليظهرن شراركم على خياركم ، فليقتلنهم حتى لا يبقى أحد يأمر بالمعروف ، ولا ينهى عن المنكر ، ثم تدعون الله عز وجل ، فلا يجيبكم بمقتكم (١) » .

منزلة الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر :

لا شك أن من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وسعى فى تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، سواء أكان متكفلا بعملها ، أو متقلدا لتنفيذها ، فهو مجدد لهذه السنة الدائرة ، ويكون ناهضا بأعبائها ، مشمرا فى احيائها ، مستأثرا من بين الخلق باحياء سنة أفضى الزمان الى اماتتها ، مستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها .

عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ألا أخبركم بأقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء ، بمنازلهم من الله على منابر من نور يعرفون . قالوا :

من هم يا رسول الله ؟ قال :

الذين يحببون عباد الله الى الله ، ويحببون الله الى عباده ، ويمشون على الأرض نصحا .

فقلت : هذا يحبب الله الى عباده ، فكيف يحببون عباد الله الى الله ؟ قال :

يأمرونهم بما يحب الله ، وينهونهم عما يكره الله ، فاذ اطاعوهم احبهم الله عز وجل (٢) » .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال :

---

(١) اخرجه أبو نعيم فى الحلية جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) اخرجه البيهقى

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا ابن مسعود ! فقلت :

لبيك يارسول الله ! قالها ثلاثا . قال :

أتدرى أى الناس أفضل ؟ قلت :

الله ورسوله أعلم . قال :

فان أفضل الناس ، أفضلهم عملا اذا فقهوا فى دينهم .

ثم قال : يا ابن مسعود ! قلت :

لبيك يا رسول الله . قال :

أتدرى أى الناس أعلم ؟ قلت :

الله ورسوله أعلم . قال :

ان أعلم الناس أبصرهم بالحق اذا اختلف الناس ، وان كان مقصرا فى العمل ، وان كان يزحف على استه زحفا ؛

واختلف من كان قبلى على اثنتين وسبعين فرقة ، نجا منها ثلاثة ، وهلك سائرهن .

فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دينهم ، ودين عيسى بن مريم ، وأخذوهم وقتلوهم وقطعوهم بالمناشير .

وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك ، ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم ، فيدعوهم الى الله ، ودين عيسى بن مريم ، فساحوا فى البلاد ، وترهبوا قال :

وهم الذين قال الله عز وجل :

« ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله ... الآية » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

من آمن بى وصدقنى واتبعنى ، فقد رعاها حق رعايتها ، ومن لم يتبعنى فأولئك هم الهالكون (١) » .

---

(١) أخرجه الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه .

وأخرج ابن أبى شيبة عن عثمان رضى الله عنه قال :

مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن يسلط عليكم شراركم ، ويدعو عليهم خياركم فلا يستجاب لهم » .

وعن الحارث ، عن على رضى الله عنه قال :

« لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

توعد الله لمن تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شأن عظيم ، فان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، توعد بالعقاب الشديد من خالف الحق فيهما سبحانه ، أو تهاون فى العمل بهما ؛

عن سيدنا على رضى الله عنه ـ فيما أخرجه ابن أبى شيبة ـ قال :

لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتجدن فى أمر الله ، أو ليسوا منكم أقوام يعذبونكم ، ويعذبهم الله (١) » .

وعند ابن أبى حاتم عن على رضى الله عنه أنه قال فى خطبته :

أيها الناس ! انما هلك من هلك قبلكم ، بركوبهم المعاصى ، ولم تنههم الربانيون والأحبار ، كلما تمادوا فى المعاصى ، ولم تنههم الربانيون والأحبار ، أخذتهم العقوبات .

فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، قبل أن ينزل بكم الذى نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يقطع رزقا ، ولا يقرب أجلا » .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ، يا رسول الله !

متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما سيدا أعمال أهل البر ؟ قال :

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن على رضى الله عنه ، انظر حياة الصحابة جـ ٢ ص ٧١٧

اذا أصابكم ما أصاب بنى اسرائيل ، قلت :

يا رسول الله ! وما أصاب بنى اسرائيل ؟ قال :

اذا داهن خياركم فجاركم ، وصار الفقه فى شراركم ، وصار الملك فى صغاركم ، فعند ذلك تلبسكم فتنة تكرون ويكر عليكم(١) »اهـ

وبنو اسرائيل استحقوا ما نزل بهم من لعنة الله عليهم ، على لسان أنبيائهم ، ودالت دولتهم ، وذهبت ريحهم ، وسبقت كلمة العذاب عليهم .

استحقوا ذلك : بسبب أنهم وقعوا فى المعاصى والفجور ، وكانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، ثم نهتهم علماؤهم ، فلم يسمعوا لقولهم ، ولم يتناهوا عن منكر فعلوه ، فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود ، وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

هذا واقع بنى اسرائيل ، وحاصل ما آل اليه حالهم ، من عذاب وطرد ، ونقمة ولعنة عليهم من الله ورسوله .

أما الذين استجابوا لأوامر الله سبحانه ، وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فكانوا هم المؤمنون حقا ، الصادقون قولا ، المحسنون فعلا ، الراسخون قدما وقلبا ، المحبون بعضهم بعضا . يقول سبحانه :

« والمؤمنون والمؤمنات ، بعضهم أولياء بعض ، يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، ان الله عزيز حكيم (١) » .

وبعد : فان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قد أجمعت الأمة عليه ، وكثرت الآيات والأخبار ، الدالة على ثبوت الفلاح للذين جندوا أنفسهم للعمل له ؛ يقول الله تعالى :

---

(١) اخرجه الطبرانى فى الاوسط .

(٢) التوبة آية : ٧١

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون (١) » .

وفى الآيات بيان أن الفلاح منوط باتباع الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وانه فرض كفاية لافرض عين ؛

هذا الصنيع المحمود عند الله تعالى ، وعند رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعند المؤمنين أجمع ، جعله الله يسرا لا عسر فيه ، ترغيبا لخلقه ، فلم يقل مثلا سبحانه :

كونوا كلكم جميعا معشر الناس آمرين بالمعروف ... الخ .

اذ لو كان ذلك كذلك لشق على الناس ذلك ، وهو بالخلق رءوف رحيم .

لذلك قال تعالى :

« ولتكن منكم أمة » .

وقد خص الله سبحانه القائمين على أوامره تعالى ، المنتهين عن نواهيه سبحانه ، بالفلاح والظفر بالمطلوب ، فقال فيهم :

« من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ، آناء الليل وهم يسجدون .

يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين (٢) » .

فلم يشهد القرآن لهم بالصلاح لمجرد الايمان منهم بالله واليوم الآخر ، فحسب ، وانما أضاف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى ايمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ، ولذلك خصهم الله بقوله :

« خير أمة أخرجت للناس » .

---

(١) آل عمران آية : ١٠٤

(٢) آل عمران آية : ١١٣ ـ ١١٥

ولذلك فان الحرج يعم كافة الخلق لا محالة ، ان تقاعد القادرون عنــه .

ومن هجــر الأمر بالمعــروف ، والنهى عن المنكر ، فهو خارج بهجرانه عن هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله : **((كنتم خير أمة أخرجت للناس))** .

وليس مؤمنا كذلك بالقرآن ولا بالنبى ، كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

« ان الذى لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، ليس مؤمنا بالقرآن ولا بى » .

ولقد فهم بعض الناس يوما ، قول الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفســكم لايضركم من ضــل اذا اهتديتم)) . أن هذه الآية تجيز السكوت عن رد المنكر وتغييره ، فأرشدهم سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وقال لهم :

« يا أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية ، وانكم تضعونها على غير موضعها ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أن الناس اذا رأوا المنكر ولا يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقابه » .

وأخرج البيهقى وسعيد بن منصور وغيرهم عن قيس بن أبى حازم قال :

« لمــا ولى أبو بكر رضى الله عنه صعد المنبر فحمد الله ، ثم قــال :

أيها الناس ! انكم تقرءون هذه الآية : **((يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم))** . وأنكم تضعونها على غير مواضعها ، وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« أن الناس اذا رأوا المنكر ولا يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب (١) » .

---

(١) أخرجه أيضــا النسائى وابن ماجه ، وابو يعلى وابو نعيم فى المعرفة والدارقطنى فى العلل وقال : جميع رواته ثقات

وعند ابن مردويه ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

قعد ابو بكر على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم سمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم مد يديه ، ثم وضعهما على المجلس الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يجلس عليه من منبره ، ثم قال :

سمعت الحبيب وهو جالس على هذا المجلس يتأول هذه الآية :

« **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم** » . ثم فسرها فكان تفسيره لنا أن قال :

نعم ! ليس من قوم عمل فيهم بمنكر ويفسد فيهم بقبيح ، فلم يغيروه ولم ينكروه ، الا حق على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعا ، ثم لايستجاب لهم ، ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه ، فقال :

ان لا أكن سمعته من الحبيب فصمتا (٢) » .

اذن فالأمة الاسلامية كلها ، أمام هذا الفرض الكفائى مدينة ، ومؤاخذة ، وينالها الأذى والعقاب فى الدنيا والآخرة ، اذا سكتت عن وقوع المنكر فيها من بعض أفرادها ، لأنها مكلفة دينا أن تكون مقومة لكل فرد فيها .

والسكوت على الفسق والفجور والعصيان ، يستوجب العقاب والأذى ، وليس فى ذلك ظلم « فاتقوا فتنة لا تصبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

والأمة التى ينتشر فيها المنكر ، أو يكثر فيها الفسق والفجور ، ولا تغيره ، أو تحاربه ، أو تؤدب فاعله ، فهى من غير شك أمة آثمة ، عليها الوزر فى الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، يخبر عن الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر أنهم بئس القوم هم .

---

(١) كنز العمال ج ٢ ص ١٣٨

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« بئس القوم ، قوم لا يأمرون بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر ، بئس القوم ، قوم يمشى المؤمن بينهم بالتقية » .

ويزيد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، شأن هؤلاء الذين تقاعدوا عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بيانا فيقول ـ فيما رواه أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه :

« كيف أنتم اذا طغى نساؤكم ، وفسق شبابكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا :

كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذى نفسى بيده ، واشد منه سيكون . قالوا :

وما أشد منه يا رسول الله . قال :

كيف أنتم اذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا :

كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذى نفسى بيده ، واشد منه سيكون . قالوا :

وما أشد منه ؟ قال :

كيف أنتم اذا رأيتم المعروف منكرا ، والمنكر معروفا ؟ قالوا :

وان ذلك كائن يا رسول الله ؟ قال :

نعم . والذى نفسى بيده ، واشد منه سيكون . قالوا :

وما أشد منه ؟ قال :

كيف انتم اذا أمرتم بالمنكر ، ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا :

وكائن ذلك يا رسورل الله ؟ قال :

نعم . والذى نفسى بيده ، وأشد منه سيكون ؟ يقول الله تعالى:

« بى حلفت لاتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران » اهـ

وفى نفس هذا المعنى يتفاعل الامام على كرم الله وجهه : فيقول:

« انه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شيء أخفى من الحق ، ولا اظهر من الباطل ، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله، وليس عند أهل ذلك الزمان ، سلعة أبور من الكتاب اذا تلى حق تلاوته ، ولا أنفق منه ، اذا حرف عن مواضعه ، ولا فى البلاد شيء أنكر من المعروف ، ولا أعرف من المنكر .

فقد نبذ الكتاب حملته : وتناساه حفظته ، فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان ، وصاحبان مصطحبان ، فى طريق واحد لا يؤيهما مؤو .

فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم ، ومعهم وليسا معهم .

لأن الضلالة لا توافق الهدى ، وان اجتمعا ، فاجتمع القوم على الفرقة ، وافترقوا عن الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب امامهم !

فلم يبق عندهم منه الا اسمه ، ولا يعرفون الا محطه وزبره !!

ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله ، وسموا صدقهم على الله فرية : وجعلوا فى الحسنة عقوبة السيئة » اهـ .

اذا ما تحقق ذلك فى المجتمع وحدث ، فما على الانسان الا أن يجاهد المنكر بقدر استعداده واستطاعته ، موطنا نفسه على الصبر وتحمل الأذى ، واثقا بالثواب من الله تعالى .

أما من لم يتيسر له ذلك ، ولم تتسع له الفرصة ، فما عليه الا ان ينكر ذلك بقلبه ثم يجاهد نفسه وهواه ، ويترك أمر العوام ، لأن هذه انما تكون فتنة ، يلزم الانسان التضرع الى الله تعالى ، بالخلاص منها .

عن أبى ثعلبة الخشنى ، انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم : لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » ؟

فقال :

يا أبا ثعلبة :

« مر بالمعروف وانه عن المنكر ، فاذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بنفسك ، ودع عنك العوام .

ان من ورائكم فتنا كقطع الليل المظلم ، للمتمسك فيها ، بمثل الذى أنتم عليه أجر خمسين منكم .

قيل : بل منهم يا رسول الله ؟ قال : لا ، بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعوانا : ولا يجدون عليه أعوانا » (١) .

وفى رواية : قال صلى الله عليه وسلم :

« تآمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا مطاعا ، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخويصة نفسك ، ودع عنك أمر العوام » أ هـ

ويقول الامام على رضى الله عنه :

« أن ما أحدث الناس لا يحل لكم شيئا مما حرم عليكم ، ولكن الحلال ما أحل الله ، والحرام ما حرم الله ، فقد جربتم الأمور وضرستموها ، ووعظتم بمن كان قبلكم : وضربت لكم الأمثال ، ودعيتم الى الأمر الواضح ، فلا يصم عن ذلك الا أصم ، ولا يعمى عن ذلك الا أعمى .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى ، وحسنه وابن ماجه .

ومن لم ينفعه الله بالبلاء والتجارب ، لم ينتفع بشىء من العظة وأتاه التقصير من أمامه ، حتى يعرف ما أنكر ، وينكر ما عرف .

فان الناس رجلان :

متبع شرعة ، ومبتدع بدعة ، ليس معه من الله برهان سنة ، ولا ضياء حجة .

وان الله سبحانه ، لم يعظ أحدا بمثل هذا القرآن : فانه حبل الله المتين ، وسببه الأمين ، وفيه ربيع القلب ، وينابيع العلم ، وما للقلب من جلاء غيره ، مع أنه ذهب المتذكرون ، وبقى الناسون ، أو المتناسون .

فاذا رأيتم خيرا فأعينوا عليه ، واذا رأيتم شرا ، فاذهبوا عنه، فان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يقول :

« يا ابن آدم ! اعمل الخير ، ودع الشر ، فاذا أنت جواد قاصد » اهـ

وبعد : ففى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، الخير الكثير ، بهما مكن الله لعباده ، وشهد لصلاح حالهم كتابه :

« يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر : ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين » .

وصدق الله سبحانه اذ يقول :

« الذين ان مكناهم فى الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

خاتمة

لما كان القرآن الكريم ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وكان هو مصدر الاسلام الأول الذى اعتمد الاسلام عليه ، قبل كل شيء ، فى صدور أحكامه : وتشريع قوانينه وكان هو أيضا : المصدر الالهى ، الذى يعتمد عليه ، كل من يدين لله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، نبيا ورسولا وكان هو كذلك ، الالهام الربانى ، الذى اعتمدنا عليه ، واستمددنا منه كل ما سردناه من أدلة : لتقويم كتابنا الذى نحن بصدده .

لما كان القرآن الكريم ، هو كل هذا :

فانى آثرت بعد الثناء الجميل على الله سبحانه ، على توفيقه الحكيم ، أن اختتم كتابى هذا ، ببعض ما اختتم الله تبارك وتعالى به كتابه :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده ؟ سيدنا ومولانا محمد ، ومن اتبع هديه ، وسلك طريقه : وعمل بشريعته ، وعلى آله وصحبه وسلم .

من أهم المصادر

القرآن الكريم	سبحان من أنزله
تفسير القرطبى	لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ـ المتوفى عام ٦٧١ هـ
القرآن العظيم	لعماد الدين أبى الفداء اسماعيل ابن كثير ـ المتوفى عام ٧٧٤ هـ
أنوار التنزيل وأسرار التأويل	لناصر الدين ابى الخير عبد الله بن عمر البيضاوى ـ المتوفى عام ٧٩١ هـ
جامع البيان فى تفسير القرآن	للسيد معين الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الصفوى المتوفى عام ٩٠٥ هـ
روح المعانى	لأبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى ـ المتوفى عام ١٢٧٠ هـ
الجلالين	للسيد جلال الدين السيوطى ، والمحلى
صفوة البيان لمعانى القرآن	للشيخ حسنين محمد مخلوف
أسباب النزول	لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى
غريب القرآن	لامام أبى بكر محمد بن عزيز السجستانى

الاتقان فى علوم القرآن	للسيد جلال الدين السيوطى
مناهل العرفان فى علوم القرآن	للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى
صحيح البخارى	للامام البخارى رضى الله عنه
فتح البارى	لابن حجر
	للامام مسلم رضى الله عنه ـ شرح النووى
دلائل النبوة	للبيهقى
اعجاز انقرآن	للباقلانى
سنن ابى داود	للامام ابم داود
رياض الصالحين	للامام النووى
النهاية ، أو الفتن والملاحم	للامام ابن كثير
تيسير الوصول الى جامع الأصول من حديث الرسول صلى الله عليه وسلم	لابن الديبع الشيبانى
جامع المعقول والمنقول لأحاديث الرسول	لابن الأثير الجزرى
السير الكبير	لمحمد بن حسن الشيبانى
المعجم الصغير	للطبرانى
الجامع الصغير فى احاديث البشير النذير	للامام السيوطى
نهج البلاغة	للامام على بن أبى طالب رضى الله عنه
الروض الأنف	للامام المحدث عبد الرحمن السهيلى

الكتاب	المؤلف
السيرة النبوية	للامام ابن هشام
السيرة الحلبية	لعلى بن برهان الدين الحلبى
احياء علوم الدين	لحجة الاسلام الامام الفزالى
التنوير فى اسقاط التدبير	لابن عطاء الله السكندرى
كشف الغمة	للامام الشعرانى
حياة الصحابة	للاستاذ محمد يوسف الكاندهلوى
الأنوار الأحمدية	لابن راشد المشهدى الخفاجى
القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم	لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود
الاسلام والايمان	لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود
حياة محمد	للاستاذ محمد حسين هيكل
الاسلام دين العلم والمدنية	للشيخ محمد عبده
الاسلام والعقل	لفضيلة الدكتور عبد الحليم محمود
السيرة التحليلية على ضوء الكتاب والسنة	للدكتور محمد محمد ابو شهبة
الجهاد فى الاسلام	جامعة الأزهر

رقم الايداع ١٩٧٣/٤٢٦٨

